المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين
قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
تخصص الثقافة الإسلامية

الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين

دراسة تحليلية

رسالة علميّة مقدَّمة لنيل درجة الماجستير في الثقافة الإسلامية

إعداد الطالب

محمد بن أبو بكر بن حسن الصعب

الرقم الجامعي

(٤٣١٨٨٢٩٥)

إشراف فضيلة الدكتور

محمد هلال الصادق هلال

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية المشارك بجامعة أم القرى

ملخص الرسالة

موضوع الرسالة: (الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين – دراسة تحليلية)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين؛ سيدنا محمد عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة وأتم التسليم أما بعد:

فهذه الدراسة تتحدث عن الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين، الهدف منها هو الوقوف على الواقع الثقافي الإسلامي لبلاد المغرب العربي خلال فترة من أعظم فتراته وهي فترة حكم دولة المرابطين، والاستفادة بعد ذلك في تطوير الفكر والثقافة من خلال ما أنتجته الدراسة من توصيات.

وقد تحدثت فيها ابتداءً عن تجريد مفهوم الواقع الثقافي، وبينت المراد بالمغرب العربي، ثم عرفت بدولة المرابطين.

وقد تناولت في خمسة فصول بيان أهم الروافد للثقافة الإسلامية في دولة المرابطين، وأهم مجالات الثقافة الإسلامية وآثارها في تلك الفترة، ثم انتقلت للحديث عن المؤثرات الإيجابية والسلبية التي أثرت في الثقافة الإسلامية خلال فترة الدراسة، وبعد الحديث عن المؤثرات ذكرت عدداً من التحديات الداخلية والخارجية التي واجهت الثقافة الإسلامية خلال تلك الفترة ، وفي الفصل الأخير الذي يعتبر خلاصة البحث تطرقت لبعض سبل الاستفادة من الدراسة علمياً وعملياً، ثم ختمت البحث بخاتمة ضمنتها أبرز النتائج والتوصيات، وذيلته بعدد من الفهارس.

وتأتي هذه الدراسة ضمن مشروع بحثي تبناه قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بجامعة أم القرى مشكوراً، يهتم هذا المشروع بدراسة الواقع الثقافي للعالم الإسلامي.

هذا والله أسأل أن يبارك في هذا العمل، وأن يجعله خالصاً صواباً، والله الموفق.

اسم الباحث	المشرف
محمد بن أبو بكر بن حسن الصعب	د. محمد هلال الصادق هلال

The Message Digest

Analytical study for Islamic cultural reality of the Arab Moroccan "Maghreb" during the State of marabouts*

This study talks about the Islamic cultural reality of the Arab Moroccan "Maghreb" during the State of marabouts, the aim of this study is to stand on the Islamic cultural reality of the Maghreb during the reign stationed state, then take advantage for the development of thought and culture through the study of lessons learned and recommendations.

I have talked at the beginning about the cultural reality, and I explained the meaning of the Maghreb, then the state stationed.

I explained in five chapters the most important tributaries of Islamic culture stationed in the country, also the most important areas of Islamic culture and its effects in that period, then moved on to talk about the positive and negative influences that have affected the Islamic culture during the study period.

After talking about the effects, I mentioned number of internal and external challenges faced by the Islamic culture during that period, and in the last chapter, which is a summary of research

I went through some ways to take advantage of the scientific and practical study,

In conclusion, reported the main findings and recommendations, and a number of indexes.

This study is part of a research project adopted by the Islamic culture department at the University of Umm Al-Qura, this project is interested in studying the cultural reality of the Muslim world.

At the end I ask God to bless this work, and to make it pure properly.

Researcher Name:

Muhammad bin Abu Bakar bin Hassan AL Sa'ab

Supervisor:

D. Mohammed Hilal Al Sadiq Hilal

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، وصفيّه وخليله، وخيرته من خلقه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه واهتدى بهديه واستنّ بسنته إلى يوم الدين أما بعد:

فإن الإسلام بشموليته ومنهجه الرباني دين الله الذي ارتضاه للعالمين ، وجعله خاتم الديانات السماوية ومهيمناً عليها، ولهذا فإن الله تعالى لن يقبل من أحد ديناً غير الإسلام، فقد قال الله تعالى في محكم تنزيله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَام دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [سورة آل عمران: آية ٨٥]

وهذا الدين العظيم قيض الله له رجالاً حملوه وبأرواحهم افتدوه، حتى بلغ مشارق الأرض ومغاربها، يسلم رايته جيل إلى الذي بعده، فتهوي أمام رجال الإسلام حصون الشرك المنيعة، وتندك معاقل الوثنية العمياء، ويدخل الإسلام الأمصار ليحيي النفوس ويروي الأفئدة، ويصلح أحوال الناس، حتى وإن خبا نوره في مصر من الأمصار فترةً من الزمن، فإن الله يقيض من عباده أحفاداً للرجال المؤمنين يحملون رايته من جديد ويسعون لنشره بقوة، فتبقى الراية خفاقةً ترفرف على كل جبل، وتهتف بالحق على كل ثنيّة، شعارها أخلاق الإسلام وسماحة الإسلام؛ دين الفطرة والحق والعدل، الذي يفتح القلوب قبل القلاع، ويسعد الأرواح قبل المَراح.

وهناك في بلاد المغرب العربي كان للإسلام صولته وجولته منذ أن دخله الإسلام على أيدي الرجال الفاتحين، من جنود الأمة المحمدية الذين حملوا الرسالة إلى تلك البلاد لتنعم بالدين الحق وتسعد بشريعة الله التي تصلح البلاد والعباد.

"تدفق العرب من مصر متجهين صوب المغرب، فأوغلوا في برقة[1]، ثم في طرابلس[2]، ثم تدفقوا إلى أفريقية، وأسسوا مدينة القيروان[3]، واستطاعوا بعد جهود متواصلة، من سنة ٤٩ هـ إلى سنة ٧٨هـ أن يخضعوا هذه الولاية لسلطانهم، فاستقامت أمورها لهم، وأوغل نفوذهم فيها، وأصبحت قاعدة حربية يتوسعون منها صوب المغرب لإتمام فتحه، وأصبحت القيروان قبلة سكان المغرب جميعهم، يضربون إليها آباط الإبل، يطلبون العلم، ويشاركون فيما نعمت به إفريقية من يسر ورخاء.

ثم استطاع العرب أن يتموا فتح المغرب، وأوغل عقبة بن نافع الفهري[4] في البلاد، حتى أشرف على ساحل المحيط، وهيأ العرب للمغرب نوعاً من الوحدة السياسية بزعامة القيروان، ولكن ما لبثت طبيعة البلاد أن ظهرت بوضوح وجلاء، وأخذت تهدد هذه الوحدة تهديداً خطيراً، وظهرت شخصية المغرب الأقصى ظهوراً واضحاً منذ البداية"[5].

---

(١) بَرقَة: مدينة كبيرة قديمة بين الأسكندرية وأفريقية بينها وبين البحر ستة أميال، وهي مرج أفيح وتربة حمراء، افتتحها عمرو بن العاص ﷺ سنة إحدى وعشرين، وفيها آثار كثيرة. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، ص ٩١ ، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤م .

(٢) طرابلس: من مدن أفريقية وهي مدينة كبيرة أزلية على ساحل البحر، يضرب البحر في سورها، افتتحها عمرو بن العاص ﷺ سنة ثلاث وعشرين، وفي شرقيها بساتين كثيرة بها خيرات جمة. انظر: الروض المعطار، محمد عبدالمنعم الحميري، ص٣٨٩.

(٣) القيروان: مدينة عظيمة بأفريقية غَبَرَت دهراً وليس بالغرب مدينة أجلّ منها إلى أن قدمت العرب أفريقية واخربت البلاد، فانتقل أهلها عنها، وفي عهد معاوية بن أبي سفيان ﷺ أعاد بناءها وإعمارها عقبة بن نافع ﷺ . انظر: معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي ، مجلد ٤، ص٤٢٠، دار صادر، بيروت، ط ١٣٩٧هـ .

(٤) عقبة بن نافع القرشي الفهري؛ الأمير؛ نائب أفريقية لمعاوية، وليزيد، وهو الذي أنشأ القيروان، وأسكنها الناس، كان ذا شجاعة وحزم وديانة، لم تثبت له صحبة، وقد قُتل سنة ثلاث وستين، رحمه الله تعالى. انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، تحقيق بشار بن عواد، الجزء ٣ ، ص٥٣٣، مؤسسة الرسالة، بيروت.

(٥) قيام دولة المرابطين صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، الدكتور حسن أحمد محمود، ص٢٠(بتصرف يسير) ، دار الفكر العربي، ط٢ ، ١٤١٦هـ.

وبطبيعة الحال فقد كانت الممانعة والمقاومة من بعض سكان المغرب ضد هذا التقدم الإسلامي على أيدي العرب الفاتحين، ولكن إصرار رجال هذه الأمة وتشوقهم لفتح المزيد من الأرض ليعمرها نور الإسلام لم يثنهم عن عزمهم، واستطاعوا بتوفيق الله ثم بوجود رجال في المغرب الأقصى مهدوا لهم الطريق وقاموا في قومهم بتسهيل مهمة عباد الله الفاتحين، كأمثال موسى بن نصير[1] رحمه الله.

وازدادت أهمية بلاد المغرب الأقصى على وجه الخصوص وبلاد المغرب عموماً بعد أن فتح المسلمون بلاد الأندلس وعمروها بالإسلام العظيم الذي عاش فيها ما يقرب من ثمانية قرون.

وفي طريق الفتوحات الإسلامية المباركة وضمن سلسة الانتصارات الإسلامية في بلاد المغرب تظهر دولة عظيمة، تفرض على التاريخ الإسلامي الحديث عنها، انتزعت بلاد المغرب من بين أنياب القبائل المتطاحنة، وأوقفت شلالات الدم التي أجراها المتعصبون للمذاهب المنحرفة، والخرافات والأوهام التي تعلق بها عامة الناس، وغاب النور فترةً من الزمن، لتأتي دولة المرابطين العظيمة، تبسط عقيدة الله من جديد، على أرض المغرب، تلملم أطراف هذا القطر الهام من بلاد العرب، وتجمع شتات أمره بأمر الله ، ويبرز في سجل التأريخ المشرق للأمة رجال جدد رسموا بإيمانهم وعزيمتهم أروع لوحة للعزة والنصر، وسطروا ملاحم المجد على صفحات التاريخ، بل نقشوها لتبقى الحقبة الزمنية المرابطية لامعةً يزداد بريقها مع الأيام، صفحات ناصعة حوت أسماء رجال عظماء أبوا إلا أن يضعوا أنفسهم في قوائم الفاتحين، ولم يرضوا إلا أن يكونوا كأسلافهم ممن حملوا أرواحهم على أكفهم،

(١) موسى بن نصير؛ الأمير الكبير؛ أبو عبد الرحمن اللخمي، متولي المغرب، وفاتح الأندلس، قيل: كان مولى امرأة من لخم، وقيل: ولاؤه لبني أمية، وكان أعرج مهيباً، ذا رأي وحزم. يروي عن تميم الداري ﷺ، وقد ولي موسى غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص وبنى هناك حصوناً، وقد استعمل على أقصى المغرب مولاه طارق بن زياد، فبادر وافتتح الأندلس، ولحقه موسى فتمم فتحها، وجرت له عجائب هائلة. انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، المجلد الرابع، ص٤٩٦.

فكتبوا ملحمة البطولات التي بقيت مصدر عزة وفخر وإلهام لكل من حذا حذوهم، وسار على منهجهم.

لقد عاش المغرب في ظل دولة المرابطين أياماً عظيمةً، رُفع فيها شأن العقيدة، وعلا صوت الحق، وألجم صوت الباطل ، وتنفست فيها قبائل المغرب العربي عبير النصر والعزة والإيمان، ليس المغرب فحسب بل حتى بلاد الأندلس شملها من خيرات المرابطين ما وحد شتاتها، وجمع أمرها.

لقد انطلقت دولة المرابطين من عقيدة صافية وشريعة ربانية، حددت أهدافها بوضوح، وانطلقت في تحقيقها بعزيمة، لم تتراخ عن تحقيق أهدافها، ولم تتوان في الوصول لغاياتها ، وعندما تكونت الجماعة المؤمنة الموحدة، ونبذت كل مايدعو إلى العصبية القبلية والحمية الجاهلية خرج المرابطون صفاً واحداً يدعون إلى الله ويجاهدون في سبيل الله منطلقين من مبدأ الجهاد لإعلاء كلمة الله، يسترخصون في سبيل ذلك النفس والنفيس، ويقدمون أرواحهم قرباناً لربهم، فكانت النتيجة نصراً تلو نصر، وتقدماً في بلاد المغرب حتى استطاع الرجال المرابطون أن يوحدوا كلمة المغرب على التوحيد.

ونظراً لأهمية هذه المرحلة، ولما تحويه من جوانب مضيئة، ولحاجة الأمة اليوم إلى إبراز جوانب التميز في رجالها عبر التاريخ، لتكون منهجاً تستقي منه الأجيال، ويتربى عليه القادة، رأيت أن أسبر أغوار هذه الدولة العظيمة، أتفحص مواقف رجالها، وأعيش أيامها، وأدرس واقعها الثقافي، لإخراجه للطالبين، وتسهيله للراغبين.

من هنا انطلقت في هذه الدراسة، والتي عنونت لها بـ (الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين – دراسة تحليلية) واستعنت بالله تعالى، وبدأت جمع كل ما يتعلق بهذا الموضوع من مصادر ومراجع، سافرت خلال مدة البحث إلى بلاد المغرب العربي، ونهلت من مكتباته الزاخرة، وزرت المجلس العلمي في مدينة الرباط، وجلست إلى مديره الفاضل، سعادة الأستاذ: عبد الله أكديره ، والذي أفادني

في طريقة البحث في تاريخ المرابطين، ودلني على أهم الكتب، كما حذرني من زلل بعض المؤلفين، وتهجمهم على بعض قيادات الدولة المرابطية لأسباب معينة، ثم مكنني وفقه الله من نسخ عدد من الكتب المتعلقة بهذا الموضوع من خزانة المجلس العلمي، فجزاهم الله خيراً، وبارك في جهودهم.

كما أنني تشرفت بزيارة المكتبة الوطنية الكبرى بالمغرب، والتي تعتبر من أكبر مكتبات العالم، ومن أكثرها دقةً وتنظيماً، وتطويعاً للتقنية الحديثة في سبيل التيسير على الباحث، وتزودت منها بعدد كبير من المصادر المهمة، والمراجع التي فتحت لي الطريق، كما أنني تشرفت بزيارة جامع القرويين في مدينة فاس، وأفدت كثيراً من خزانة الكتب الملحقة بهذا الجامع التاريخي الكبير، والحمد لله الذي يسر وأعان.

ونظراً لطول المدة الزمنية للدراسة، والتي تزيد على مائة عام، فإن القراءة في تاريخ المرابطين تحتاج لتأن وروية، وعدم استعجال في استنباط المعلومة من كتاب أو آخر، بل لا بد من معرفة التاريخ الذي كتب فيه الكتاب، ذلك لأن كثيراً ممن كتب في تاريخ المرابطين، هم ممن جاء بعدهم، وعاش في دولة الموحدين، والتي تعتبر من ألد أعداء دولة المرابطين، بل كانت سبباً في إسقاطها وتقويض ملكها، لذلك فإن بعض من كتب في تاريخ المغرب ممن عاش في عهد الموحدين، تحدث بشيء من الانتقاص لملوك المرابطين ، وذلك بحكم الواقع الذي تفرضه دولة الموحدين.

من هنا بدأت بجمع ما استطعت الوصول إليه مما كتب، والملاحظ أن جل الكتابات اهتمت بالسرد التاريخي لأحداث الدولة وإبراز الجانب السياسي، بل تكاد تكون كل المصادر القديمة تتحدث عن هذا الجانب بتوسع، يأتي بعد ذلك الجانب الاجتماعي، بينما تفتقر المكتبة الإسلامية إلى كتب تتحدث عن الجانب الثقافي والعلمي للمرابطين، اللهم إلا ورقات متناثرة في بعض الكتب، فاستعنت بالله وبدأت باستخلاص ما يتعلق بموضوع دراستي عن الواقع الثقافي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين، والذي تظهر أهميته من خلال النقاط التالية:

أهمية موضوع الدراسة:

١. ما تتميز به بلاد المغرب من موقع جغرافي مهم يربط بلاد المشرق بالقارة الأوروبية، مما يبرز الدور الكبير الذي قام به المسلمون الأوائل في نشر الدعوة الإسلامية.

٢. عظم دولة المرابطين، وما قدمته خلال تاريخها للإسلام والمسلمين، وموقفها من العقائد المنحرفة، مما يكسب دراسة تاريخها أهمية بالغة للاستفادة من تجربتها واستخلاص الدروس منها.

٣. ظهور أثر العلماء في توجيه السياسات نحو خدمة دين الله، وجمع كلمة المسلمين، ونبذ التفرق والاختلاف.

٤. دراسة الواقع الثقافي مهمة في معرفة المخرج عند الفتن، والطريقة الصحيحة لتجنب الصراعات، ودراسة واقع المغرب في عهد المرابطين يكسب الباحث تصوراً صحيحاً في معالجة بعض الصراعات.

٥. تظهر أهمية الموضوع – كذلك- في كون الدولة المرابطية عاصرت الخلافة الإسلامية العباسية، واستطاعت أن تبني كياناً موالياً للخلافة الإسلامية غير خارج عليها، أو منفصل عنها، بل معزز لأهدافها، وهذا دليل على سلامة المنهج وحسن النوايا.

أسباب اختيار الموضوع:

١. يقع هذا الموضوع ضمن مشروع بحثي علمي تبناه – مشكوراً- قسم الدعوة والثقافة الإسلامية بالجامعة لدراسة الواقع الثقافي الإسلامي للعالم الإسلامي، حيث يشكل المغرب العربي في فترة المرابطين جزءاً مهماً من هذا العالم.

٢. حاجة المكتبة الإسلامية إلى دراسات بحثية علمية تهتم بالواقع الثقافي لبلاد المسلمين، وتلقي الضوء على ثقافة الدول الإسلامية على مدار التاريخ.

٣. إبراز الجوانب المضيئة في ثقافتنا الإسلامية المستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حيث تعتبر فترة الحكم الإسلامي للمغرب العربي ومنه عهد المرابطين من أهم ما يبرز الجوانب الثقافية الإسلامية للأمة.

٤. إبراز دور العلماء والفقهاء في تلك الفترة، وبيان أثرهم في تعزيز الثقافة الإسلامية للأمة.

٥. قطع الطريق على المشككين في تاريخ المسلمين، والقادحين في قادة الأمة الذين حمى الله بهم دينه، وأقام شريعته، كقادة المرابطين الكرام الذين قدموا للأمة تاريخاً ناصعاً بحمايتهم لدين الله، والذود عن حياضه.

الدراسات السابقة:

لم أقف خلال بحثي على دراسة علمية تهتم بالواقع الثقافي لبلاد المغرب العربي خلال فترة المرابطين.

أبرز العقبات التي واجهت الباحث:

لقد يسر الله وأعان على تقصي الواقع الثقافي للمغرب العربي ولكن ثمة عقبات واجهتني أثناء البحث تتلخص فيما يلي:

١. قلة المصادر التي تتحدث عن الواقع الثقافي بل ندرتها.

٢. طول الفترة الزمنية لدولة المرابطين، والتي بدأت من سنة ٤٣٠هـ، وانتهت سنة ٥٤١هـ، أي ما يزيد على مئة وعشرة أعوام، شهدت هذه المرحلة التاريخية تغيرات كبيرة على مستوى الدولة والأفراد.

٣. اختلاف المصادر التاريخية في تحليل ونسبة بعض الأحداث مما يتطلب مزيداً من البحث والمقارنة، وكما أشرت سلفاً، فإن بعض الذين كتبوا في تاريخ المرابطين وهم ممن يوالي دولة الموحدين كالمؤرخ المشهور عبد الواحد المراكشي، قد أغلظوا القول على أمراء المرابطين خاصةً الأمير الأشهر؛ يوسف بن تاشفين رحمه الله، والذي أجحف في حقه بعض المؤرخين، وقد اضطررت مع هذا لجمع الأقوال

وتحليلها وربطها، واستفدت كثيراً من تحقيقات المتأخرين، والذين فندوا الأقوال المجحفة بدراسة تاريخ الدولة وتحليله، ومن أمثال هؤلاء الدكتور: حسن أحمد محمود، صاحب الكتاب الرائع: قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى.

٤. قلة المراجع داخل المملكة، مما اضطرني للسفر إلى بعض البلدان العربية الأخرى، كالمغرب العربي، والأردن، حيث استفدت كثيراً من جامعات الأردن، ومكتبات وجامعات المغرب العربي كما أسلفت.

منهج الباحث:

١. اعتمدت المنهج الاستقرائي التحليلي لأهم الوقائع والأحداث التي كان لها تأثيرها الواضح على بلاد المغرب العربي، واستقرأت تاريخ الدولة المرابطية من البداية حتى النهاية، ووقفت على الجوانب التي برز فيها الواقع الثقافي الإسلامي بما يتوافق وأهداف هذه الدراسة.

٢. عزوت النصوص لمصادرها، مبيناً في الآية رقمها واسم السورة بعد ذكر الآية مباشرةً، وكذا عزوت الأحاديث لمصادرها .

٣. ترجمت للأماكن والمعالم والمدن بحسب أهميتها في البحث وعلاقتها بأهدافه، وكذلك الحال في ترجمة الرجال، فلم أترجم إلا لمن أرى له علاقة بموضوع الدراسة.

٤. في حال النقل عن المصدر بالنص، التزمت الإحالة إلى اسم المصدر ومؤلفه وبيان رقم الصفحة مع جعل النص المقتبس بين علامتي تنصيص، وفي حال النقل بالمعنى، أذكر اسم المصدر مسبوقاً بكلمة: انظر .

٥. اجتهدت في التصحيح اللغوي، وحرصت على سلامة البحث من الأخطاء اللغوية قدر الإمكان.

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول وخاتمة تشمل النتائج والتوصيات، وذيلت البحث بعدد من الفهارس العلمية ، وجاءت الخطة على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره والدراسات السابقة وأبرز العقبات التي واجهت الباحث ومنهج البحث وخطته .

التمهيد: وفيه عرّفت بمفردات عنوان البحث، حيث اشتمل على التالي:

أ - التعريف بالواقع في اللغة والمراد منه في الدراسة.

ب -التعريف بمصطلح (الثقافي الإسلامي) وعرفت فيه بالثقافة الإسلامية في اللغة والاصطلاح، وانطلقت من تعريف مختار للثقافة الإسلامية.

ج -التعريف ببلاد المغرب العربي وتقسيماتها وحدودها الزمانية والمكانية في عهد المرابطين.

د -التعريف بدولة المرابطين من النشأة إلى السقوط.

الفصل الأول: روافد الثقافة الإسلامية في دولة المرابطين، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: روافد اجتماعية.

المبحث الثاني: روافد دعوية إعلامية.

المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية.

الفصل الثاني: مجالات الثقافة الإسلامية وآثارها في دولة المرابطين، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: مجالات الثقافة الإسلامية.

المبحث الثاني: آثار الثقافة الإسلامية في دولة المرابطين.

الفصل الثالث: الواقع الثقافي الإسلامي في دولة المرابطين بين المؤثرات الإيجابية و المؤثرات السلبية، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات الإيجابية.

المبحث الثاني: الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات السلبية.

الفصل الرابع: تحديات الواقع الثقافي الإسلامي في عصر المرابطين وسبل مواجهتها، وفيه المباحث التالية:

المبحث الأول: التحديات الداخلية وسبل مواجهتها.

المبحث الثاني: التحديات الخارجية وسبل مواجهتها

الفصل الخامس: سبل الاستفادة من الدراسة في العصر الحاضر، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: سبل الاستفادة من الدراسة علمياً.

المبحث الثاني: سبل الاستفادة من الدراسة عملياً.

الخاتمة، وتشمل أهم النتائج والتوصيات.

الفهارس .

هذا ، وإني أحمد الله تعالى على مزيد توفيقه وعطائه، فقد يسر الله لي في إعداد هذا البحث أموراً كثيرة، كنت أرى فيها توفيق الله تعالى، وبركة دعاء الوالدين، والصالحين من الإخوة، ولولا توفيقه سبحانه ما تيسر لي هذا الأمر، فالحمد لله أولاً، وآخراً.

ثم إني بعد شكر الله تعالى، أشكر أماً كريمةً كانت ولا زالت رافعة يديها بالدعاء، معلقةً قلبها بي في كل غدوة وروحة، تابعت بكل اهتمام وشفقة أيام الدراسة المنهجية، والتي كنت أسافر لها كل يوم ما يزيد على مائتي كيلو مترا، وكانت حفظها الله لا تنام حتى تطمئن على وصولي من مكة، وبقيت كذلك تسأل كل يوم عن لحظة الختام ونهاية الدرسة والبحث، فاللهم احفظها بحفظك، ومتعها بعافيتها، ولا أنسى الأب الغالي الذي ما فتر عن الدعاء لي والسؤال عن دراستي، ولم أعدم منه مشورةً ، ونصيحة بروح الأب المشفق الحكيم، فاللهم أمد في عمره على طاعتك، واكتب له الخير حيث كان، واجزه خيراً على تربيته وصبره.

ثم الشكر موصول لأهل بيتي وأخص منهم الزوجة الغالية الكريمة التي كانت نعم العون بعد الله لي في دراستي، وصبرت على انشغالاتي وتحملت تبعات تربية الأولاد من أجل توفير بيئة مناسبة لي لأكمل دراستي، فجزاها الله خيراً وأحسن إليها.

أما شيخي وأستاذي الدكتور محمد هلال فإن كلمات الشكر لا توفيه حقه على صبره وتحمله، وطول باله على تأخري وانشغالي، فقد كان أخاً ناصحاً ومحباً صادقاً، قبل أن يكون أستاذاً مهتماً وحازماً، فأسأل الله أن يمتعه بالصحة والعافية، وأن يبارك له في عمره وعلمه، وأن يخلف له في ماله وأهله وولده بخير.

والشكر لكل من دعا ، ولكل من سأل ، ولكل من اهتم من الإخوة والزملاء والأصدقاء، والمشائخ الفضلاء.

وختاماً أسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في بيان الواقع الثقافي لبلاد المغرب العربي الغالية على نفوس المسلمين، وأسأله تعالى أن يتجاوز عن تقصيري، وأن يعفو عن زللي.

حسبي من الأمر أني كنت مجتهداً والله يعطي على الإخلاص والعمل

وإن بدا خللي فالله يعذرني فهو العفو عن الزلات والخطل

كل ابن آدم خطاء له زلل فخلق آدم نقص غير مكتمل[1]

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

[1] هذه الأبيات من نظم الباحث.

التمهيد

التعريف بمفردات عنوان البحث

(الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين)

الواقع:

في اللغة: استعمل العرب كلمة (الواقع) للدلالة على معان متعددة، منها:

الواقع: الذي ينقر الرحى، والحاصل يقال: أمر واقع، وطائر واقع، إذا كان على شجر أو نحوه وُقُوع ووقع، ويقال إنه لواقع الطير، أي ساكن لين، والنسر الواقع.[1]

والمقصود هنا ، هو : الحياة السائدة ، التي عاشها الناس ، والوضع الذي كانوا عليه، من جميع الجوانب.

الثقافي الإسلامي:

الثقافة مصطلح له وجوه عدة ، وكل تعريف لهذا المصطلح يحمل معنىً له خصوصيته، وتترتب عليه آثاره، "فالثقافة إذا كانت لفظاً مطلقاً يراد بها الأخذ من كل علم بطرف"[2].

ولكن المراد بالثقافة هنا معناها الخاص المضاف إلى الإسلام، والذي يُستخرج منه مصطلح "الثقافة الإسلامية" ولهذا فإنه لابد من تعريف الثقافة الإسلامية بالتعريف المناسب للواقع المدروس، وقد ورد في تعريف الثقافة بمعناها المضاف

(١) انظر: المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية بالقاهرة،إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار ،الجزء ٢.ص ١٠٥٠ ، ١٠٥١، دار الدعوة.

(٢) نحو ثقافة إسلامية أصيلة ، د.عمر الأشقر، ص٢١ ، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٣٢هـ .

تعريفات عدة، فعندما تضاف للأمة فإنه يراد بها: "تراث الأمة الحضاري ، والفكري، في جميع جوانبه النظرية والعملية الذي تمتاز به الأمة.

وثقافة الأمة في جوانبها المختلفة تشكل أسلوبها في الحياة ، فعقيدة الأمة ، وتاريخها ، ونظرتها للحياة ، والأفكار والنظريات التي تدور في عقول أبنائها ومفكريها ، وتدون في كتبها ودراساتها تشترك جميعاً في تحديد الأسلوب الذي يحكم حياة الأمة، ويضبط مسارها، ولذلك عرّف بعض الباحثين الثقافة بقوله: (هي أسلوب الحياة السائد في مجتمع من المجتمعات) "[1] .

وهذا التعريف قد يتناسب وموضوع الدراسة، إلا أنني أرى أن التعريف المختار الذي يتميز بالشمول والجمع؛ هو ما ذهب إليه الدكتور: راشد شهوان، وهو: "علم دراسة التصورات الكلية ، والمستجدات، والتحديات المتعلقة بالإسلام والمسلمين بمنهجية شمولية مترابطة"[2]، وهذا التعريف مع التعريفات الأخرى سأستفيد منه إن شاء الله في تحديد الواقع الثقافي الإسلامي لبلاد المغرب العربي أثناء دولة المرابطين بما يتوافق ، وأهداف هذه الدراسة.

المغرب العربي:

عُرفت بلاد المغرب العربي منذ أقدم العصور بأسماء متعددة ، فقد أطلق العرب الفينيقيون على السكان الذين سكنوا حول مدنهم؛ طاقة "أوتيكا"[3]

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣.

(٢) الثقافة الإسلامية، د.راشد شهوان وآخرون ، دار المناهج ، الأردن ، ط١ ، ١٤٢٠ هـ .

(٣) يقال عن أوتيكا إنّها أوّل الموانئ التجاريّة الفينيقيّة التي ركّزت في الأرض الإفريقيّة، ربّما حوالي ١١٠٠ ق.م،ولأنّ أوتيكا كانت أسبق من قرطاج، فقد لعبت مدّة طويلة دور العاصمة قبل أن تحلّ محلّها جارتها التي تأسّست في أواخر القرن التاسع ق.م والتي قوي سلطانها بسرعة. ورغما عنها، ارتبط مصيرها بمصير جارتها فعاشت فترات من الازدهار والرخاء، كما عاشت أيّاما حالكة. لكنّها، في المنعرج الحاسم، عندما احتدمت المجابهة بين قرطاج وروما، اختارت التحالف مع روما فاستحقّت أن تعود، في سنة ١٤٦ ق.م، لمدّة ١٣٠ سنة، عاصمة لأفريكا. ثمّ مرّت بها تقلّبات، شأنها في ذلك شأن أغلب المدن
= =

وقرطاجنة[1]: اسم "أفري" وعنهم أخذها اليونان، فأطلقوها على جميع سكان المغرب العربي ابتداءً من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي، ومنها اشتق اسم "أفريقية" أي: بلاد الأفري.

وعندما تمكن الاستعمار الروماني من احتلال مدينة قرطاجنة سنة ١٤٦م ، أطلقوا اسم: أفريقية على جميع مناطق نفوذ الفينيقيين "قرطاجنة" وما حولها حتى نوميديا غرباً .

ثم اتسع مدلول هذه اللفظة حتى شمل معظم بلاد المغرب ، وفي بداية حروب التحرير العربية أطلقت لفظة "أفريقية" للدلالة على جميع الأقاليم مما يلي إقليم طرابلس غرباً ، ثم تحدد مدلولها لتعني الإقليم الذي نشأت فيه مدينة القيروان فقط، وهو ما يسمى بالمغرب الأدنى.

ثم انتهى بعد ذلك الأمر إلى أن يُطلق لفظ "أفريقية" للدلالة على الإقليم الذي تتوسطه مدينة القيروان وحده من غرب طرابلس حتى بجاية، ولفظ "المغرب" ليشمل عموم أقاليم البلاد وحدُّها من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي وأفريقية جزء منه.

القديمة في البلاد التونسية، انتهت في القرن السابع بتقهقر لا رجعة فيه. المصدر: موقع وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية. وزارة الثقافة. الجمهورية التونسية:
http://www.patrimoinedetunisie.com.tn/arabe/sites/utique.php

(١) قَرْطاجَنّة: بالفتح ثم السكون، وطاء مهملة، وجيم، ونون مشددة، وقيل: إن اسم هذه المدينة قرطا وأضيف إليها جنة لطيبها ونزهتها وحسنها: بلد قديم من نواحي إفريقية، كانت مدينة عظيمة شامخة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض، وبها من العمد الرخام المتنوع الألوان ما لا يُحصى ولا يُعد، وقد بنى المسلمون من رخامها لما خربت عدة مدن ، وهي على ساحل البحر، بينها وبين تونس اثنا عشر ميلاً، وتونس عمرت من خراب قرطاجنة وحجارتها.المصدر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد الرابع ص ٣٢٣.

وعلى هذا الأساس تقسّم بلاد المغرب العربي إلى ثلاثة أقسام:

١. المغرب الأدنى: ويبدأ من إقليم برقة[١]، وطرابلس شرقاً، ويمتد حتى بجاية[٢] غرباً ، وقاعدته مدينة القيروان.

٢. المغرب الأوسط: ويمتد من بجاية شرقاً إلى وادي ملوية[٣] وجبال تازة[٤] في الغرب، وقاعدته مدينة تلمسان[٥]، وهو يضم معظم بلاد الجزائر الحالية.

٣. المغرب الأقصى: وامتداد هذا الإقليم من وادي ملوية، في الشرق حتى مدينة آسفي[٦] على ساحل المحيط الأطلسي، ويشمل المغرب الحالي، وموريتانيا.[٧]

---

(١) سبق التعريف بها في ص٨.

(٢) بجاية: بالكسر، وتخفيف الجيم، وألف، وياء، وهاء: مدينة على ساحل البحر بين أفريقية والمغرب،كانت ميناءً فقط، ثم بنيت مدينةً بعد ذلك، وهي في لحف جبل شاهق، وفي قبلتها جبال كانت قاعدة ملك بني حماد. انظر: المرجع السابق.

(٣) وادي ملوية: أو نهر ملوية؛ نهر عظيم منبعه من فوهة في جبال قبلة تازي، ويصب في البحر الرومي عند غساسة. انظر: تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، الجزء السادس، ص١٣٣، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة:١٤٢١هـ.

(٤) جبال تازة: أو(تازا) أول بلاد تازا حد ما بين المغرب الأوسط وبلاد المغرب في الطول وفي العرض البلاد الساحلية مثل وهران ومليلة وغيرهان وقد بني في جبال تازة مدينة الرباط. انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار،محمد عبد المنعم الحميري، ص١٢٨.

(٥) تِلِمْسَان: بكسرتين، وسكون الميمن وسين مهملة، وبعضهم يقول: تِنِمْسان، بالنون عوض اللام: بالمغرب، وهما مدينتان متجاورتان مسوّرتان، بينهما رمية حجر، إحداهما قديمةن والأخرى حديثة، والحديثة اختطّها الملثمون ملوك المغرب، واسمها تافرزت، فيها يسكن الجند واصحاب السلطان وأصناف من الناس، واسم القديمة أقادير، يسكنها الرعية، فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر. المصدر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد الثاني. ص٤٤ .

(٦) مدينة أسفي: بفتحتين، وكسر الفاء: بلدة على شاطئ البحر المحيط بأقصى المغرب. المصدر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد الأول. ص ١٨٠.

(٧) انظر: تاريخ المغرب العربي، عبدالواحد ذنون طه، و خليل السامرائي، و ناطق صالح مطلوب، الصفحات من ١١ إلى ١٤، دار المدار الإسلامي، لبنان. ط١ ٢٠٠٤م.

دولة المرابطين:

دولة المرابطين هي في الأصل مجموعة من بطون قبيلة صنهاجة[1] المغربية العريقة، والذين اتخذوا اللثام على وجوههم، حتى صاروا يعرفون بـــ" الملثمون "، عاشوا في صحراء المغرب الأقصى والمناطق المدارية حتى السنغال إلى بلاد السودان، يعيشون على الأنعام، ويركبونها في تنقلاتهم، ويعتمدون في غذائهم على ألبانها، ولحومها[2].

وفي بدايات القرن الخامس الهجري ظهر من بينهم الأمير : يحيى بن إبراهيم الجدالي[3] ، والذي عُرف بتقواه وورعه، وبعد نظره ورجاحة عقله، كما انه كان

---

(١) بنو صنهاجة بطن من البرانس، من البربر؛ مساكنهم بلاد المغرب، وهم بنو صنهاجة بن برنس بن بربر، ويقال: بنو صنهاجة بن أوريغ بن برنس بن بربر، ويقال: إنهم من حميَر. المصدر: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبي العباس القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، ص٣١٧، دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط٢ ١٤٠٠هـ .

وقد نفى ابن حزم نسبة البربر إلى حميَر فقال: "وهذا باطل لا شك فيه، وما علم النسابون لقيس عيلان ابناً اسمه بَرّ أصلاً، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر، إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن". وتحدث ابن حزم عن نسبة صنهاجة إلى البربر فقال:"فولد برّ: ما دغس، وبرنس. فولد برنس: كتامة، وصنهاجة، وعجيسة، ومصمودة، وأوربة.." انظر: جمهرة أنساب العرب، لأبي محمد علي بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، ص٤٩٥، دار المعارف، ط٥ ١٩٨٢م .

(٢) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد ، ص٢٣، مؤسسة شباب الجامعة،الأسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

(٣) يحيى بن إبراهيم الجدالي، أو الكدالي ، لم تذكر المصادر عن سيرته شيئاً كثيراً إلا أن أغلب المصادر التي تكلمت عن شخصيته، ذكر أنه أمير جدالة، وفي بعض الكتب (كدالة) ، وهو رجل صالح بر تقي، وهو اول من اهتم لأمر قبائل لمتونة وقبائل الصحراء، وهو الذي أحضر عبد الله بن ياسين رحمه الله لتعليم الناس أمور دينهم، بعد أن استشار الإمام أبا عمران الفاسي رحمه الله، وقد ناصر يحيى بن إبراهيم دعوة ابن ياسين، واستمر حاكماً للمتونة، إلى أن وافته المنية سنة ٤٤٠هـ ، بعد أن استقر أمر المرابطين في رباط حوض السنغال. انظر: المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، أبي عبيد البكري،مكتبة المثنى ، بغداد . الطبعة والتاريخ مجهولة.

يطمح إلى توحيد صفوف هذه القبائل المتناثرة، وجمع كلمتها على التوحيد، وقد ذهب الأمير : يحيى إلى الحج، وفي أثناء عودته اتجه إلى القيروان والتقى بالإمام: أبي عمران الفاسي[1]؛ إمام المغرب في زمانه، وطلب منه أن يرسل معه أحد طلابه لينشر بين قبائل الملثمين تعاليم الدين الإسلامي الصحيح ، ويعلم الجاهل ، وينبه الغافل، فأحاله الإمام: أبو عمران إلى الفقيه: وجاج بن زلو[2] ، وهو من فقهاء المغرب الأقصى، فأرسل وجاج معه واحداً من أفضل تلاميذه، وأنبغهم وأكثرهم علماً، ألا وهو الشيخ: عبد الله بن ياسين الجزولي الذي انطلق بصحبة الأمير يحيى بن إبراهيم إلى بلاد الملثمين[3].

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقه المليء بالأشواك من أجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ورجع إلى أهله وعشيرته ومعه الرجل الرباني والفقيه المالكي المربي الصبور والزعيم الديني الإمام عبدالله بن ياسين.[4]

---

(١) أبو عمران الفاسي: هو موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي الفاسي، ولد سنة: ٣٨٦هـ . قدم الأندلس طالباً للعلم، فسمع بقرطبة من علمائها، ورحل إلى المشرق، فحج حججاً ، وأخذ القراءة عرضاً عن أبي الحسن علي بن عمر الحمامي المقرئ وغيره، وسمع بمكة، ومصر، والقيروان، وتوجه إلى بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمئة، وأقرأ بها القرآن شهراً، وشاهد مجالس علمائها، ثم انصرف إلى القيروان، وأقرأ الناس بها مدة،ثم ترك الإقراء، ودارس الفقه، وأسمع بها الحديث. توفي سنة ٤٣٠هـ ، رحمه الله . المصدر: الصلة، لابن بشكوال،تحقيق إبراهيم الأبياري، الجزء الثالث: ص٨٨١، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت. ط١ ١٤١٠هـ .

(٢) وجاج بن زلو اللمطي، ومعنى (وجاج): ابن الطالب، من اهل السوس الأقصى، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي، ثم عاد إلى السوس فبنى داراً سماها دار المرابطين، جعلها لطلبة العلم وقراء القرآن، وكان المصامدة يزورونه، توفي حسب بعض المصادر سنة:٤٤٥هـ . انظر: التشوف إلى رجال التصوف، أبو يعقوب التادلي،تحقيق أحمد التوفيق، ص٨٩ ، هامش رقم ٢٤،منشورات كلية الآداب بالرباط، ط٢ ١٩٩٧.

(٣) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد، ص٢٣، ٢٤.

(٤) دولة المرابطين، علي الصلابي، ص ٢٦،ط مكتبة الإيمان بالمنصورة .

"بدأ ابن ياسين دعوته بالتعريف بالإسلام والعقيدة الصحيحة ، واهتم بتعليم الناس أمور دينهم، فقد وجدهم لا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، كما حارب العادات والمعتقدات السيئة التي تتنافى مع تعاليم الإسلام ومنهجه.

دخل عبد الله بن ياسين بلاد المغرب الأقصى مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي عام ٤٣٠هـ ، واستقر في ديار جدالة، فنال إعجاب أهل هذه الديار ، وجعلوه قدوةً صالحةً لهم" (١).

وقد وجد ابن ياسين صعوبةً بالغةً في أداء مهمته، وعانى من سكان الصحراء أشد المعاناة، ولهذا كان عليه أن يقوم بعملين شاقين :

١. جمع أتباع مخلصين تقع عليهم مهمة تطهير البلاد من الانحرافات والضلالات .

٢. العمل على توحيد بلاد المغرب الأقصى ، من أجل القضاء على كل عوامل الفرقة والخصام بين الإمارات الصغيرة المتنازعة.

ومن أجل تحقيق هذين الهدفين ، رابط عبد الله بن ياسين مع الأمير يحيى بن إبراهيم في جزيرة بحوض نهر السنغال ، وقد بدأت هذه المرابطة عام ٤٣٣هـ بسبعة أشخاص، سماهم عبدالله بن ياسين بالمرابطين، وبتوالي الأيام انضم إلى هذا الرباط مئات الأشخاص(٢).

"وعندما اكتمل عدد هؤلاء الرجال ألفاً ، أمرهم عبد الله بن ياسين بالخروج إلى البر والسير للجهاد في سبيل الله ، وانضمت إليهم أعداد غفيرة من الجداليين واللمتونيين(٣) وغيرهم . وكان ذلك سنة ٤٤٥هـ ، وكانت القوة والقيادة في تلك

(١) تاريخ المغرب العربي، ص ٢٩١.

(٢) المرجع السابق.ص٢٩٢.

(٣) جدالة ولمتونة هما من بطون صنهاجة، وهي من أهم قبائلها، وصنهاجة بطون كثيرة منها لمطة، وترغة، وسرتة، وجزولة وغيرها . انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق خليل شحاتة، الجزء السادس ص١٨٣، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، سنة١٤٢١هـ .

الجماعة المرابطية الأولى للمتونة، فبدأ اسم هذه القبيلة يظهر من بين القبائل الكثيرة التي تكونت منها مجموعة قبائل صنهاجة الصحراء"[1] .

بدأ عبد الله بن ياسين الجهاد في سبيل الله وبدأ بدعوة الناس إلى دين الله، ووجه المرابطين أن يذهب كل واحد منهم إلى أهله وعشيرته، فيدعوهم إلى الله، فلما لم يجدوا تجاوباً من قومهم، خرج لهم ابن ياسين، وجمع شيوخ القبائل ورؤساء العشائر، فدعاهم إلى الله، وأقام بينهم سبعة أيام يدعوهم إلى التوحيد، ويذكرهم الآخرة، فلما لم يجد منهم تجاوباً ، أعلن الجهاد عليهم، وأمر أصحابه المرابطين أن يبدأوا جهاد هذه القبائل، فانقادوا لأمره، فبدأوا بقبيلة (كدالة) فانهزموا بين يديه، فقتل منهم خلقاً، وأسلم الباقون إسلاماً جديداً، وبايعوه على السمع والطاعة، ثم سار إلى قبائل (لمتونة) ، فنزل بهم وقاتلهم حتى أذعنوا له، وهكذا الحال مع (مسوفة[2]) ، فلما رات قبائل صنهاجة ولمتونة الباقية ذلك، بايعوه ودخلوا في طاعته، ثم أقبل يعلمهم القرآن ، ويدعوهم إلى إقامة شعائر الدين كما أراد الله منهم، ثم جعل بيت مال يدفع إليه خراج زكواتهم، وكان يجهز الجيوش منه، حتى ذاع أمره، وعلا شأنه، وفي هذه الأثناء توفي الأمير: يحيى بن إبراهيم رحمه الله ، فجمع ابن ياسين رؤساء القبائل من صنهاجة، وقدم عليهم يحيى بن عمر اللمتوني[3]، وكان يحيى من أهل الدين والفضل والورع والزهد، فأمره ابن ياسين بالجهاد، فانقاد طائعاً لأمر الله .

---

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، ص ١٨٥،دار الرشاد ط ١١ .

(٢) مسوفة: هي بطن من بطون صنهاجة، تشترك مع جدالة (كدالة) ولمتونة في صنهاجة . انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر لابن خلدون، الجزء السادس . ص١٨٣ .

(٣) يحيى بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت اللمتوني الصنهاجي؛ أمير لمتونة وأول من ناصر الإمام عبد الله بن ياسين في دعوته، وكان لا يتحرك إلا بأمره، وقد كان مجاهداً شجاعاً، جمع أمر لمتونة على التوحيد وجاهد بهم أعداءهم ، توفي رحمه الله وهو يقاتل في بلاد السودان سنة: ٤٤٨هـ . انظر: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،مؤلف مجهول،تحقيق سهيل زكار، وعبد القادرزمامة.دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،ط١ ١٣٩٩هـ.

قام الأمير يحيى بن عمر بالجهاد في بلاد السودان، ففتح الكثير منها، فلما كان في سنة: ٤٤٧هـ وجه فقهاء وصلحاء سجلماسة ودرعة الدعوة إلى ابن ياسين لتطهير بلادهم من رجس المنكرات، شق ابن ياسين مع رجاله الصحراء متجهاً إلى الشمال ، ولما وصل إلى ديار مغراوة[١] الذين كان يقودهم مسعود بن وانودين[٢] ورجاله من المغراويين دارت بينهم رحى حرب طاحنة، قتل فيها من رجال ابن وانودين الكثير، وغُنمت أموال كثيرة، وهزمهم المرابطون واستخلصوا منهم سجلماسة[٣] وقُتل أثناء هذه الحرب مسعود بن وانودين ، وفي الوقت نفسه قتل أيضاً الأمير يحيى بن عمر وهو يجاهد في بلاد السودان، وكان هذا في سنة ٤٤٨هـ .

لما توفي يحيى بن عمر، قدّم عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر اللمتوني[٤]، فخرج مجاهداً يواصل ما بدأه المرابطون، فانطلق إلى بلاد المصامدة والسوس، في جيوش عظيمة في سنة ٤٤٨هـ ، وجعل على مقدمة جيشه ابن عمه

---

(١) مغراوة هم أوسع بطون زناتة ، واهل البأس والغلب منهم، وينسبون إلى مغراو بن يصلتين بن مسر ، وكانت محلاتهم بأرض المغرب الوسط من شلف إلى تلمسان إلى جبل مدبولة. انظر: العبر. لابن خلدون. الجزء٧ . ص ٣٣ .

(٢) هو مسعود بن وانودين بن خزرون؛ أمير مغراوة بعد مهلك والده وانودين بن خزرون، الذي استقل بملك سجلماسة سنة ٤٠٧هـ . انظر: العبر وديوان المبتدأ والخبر، لابن خلدون، الجزء ٧ ص٣٧ .

(٣) سجلماسة: في صحراء المغرب، بينها وبين البحر خمس عشرة مرحلة، وهي على نهر يقال له زيز، وليس بها عين ولا بئر، وزرعهم الدخن والذرة ولهم النخل الكثير، وهي من أعظم مدن المغرب، وهي على طرف الصحراء لا يعرف في قبليها ولا في غربيها عمران، وبينها وبين غانة في الصحراء مسيرة شهرين في رمال وجبال غير عامرة، قليلة الماء، يسكنها قوم من مسوفة رحالون لا يستقر بهم مكان، ليس لهم مدن ولا عمارة يأوون إليها إلا وادي درعة، وبينه وبين سجلماسة مسيرة خمسة أيام.
المصدر: الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، ص٣٠٥.

(٤) أبو بكر بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت اللمتوني؛ أمير لمتونة بعد أخيه يحيى بن عمر، وهو اول من اختط مدينة مراكش ونظر موضعها لبنائها، لكن غارات جدالة على أهل الصحراء جعلته يترك أمر مراكش، لينطلق بالملثمين لإخماد فتنة الصحراء، واستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين، واستمر الأمير أبو بكر يجاهد في الصحراء إلى أن وافته المنية مقاتلاً سنة: ٤٨٠هـ.. انظر: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.ص٢٣ ، ٢٤.

يوسف بن تاشفين[1] فانطلق على بلاد السوس مقاتلاً فاتحاً، ففتح العديد من مدنها ودانت له قبائلها بالطاعة، بعد قتال شديد، ثم ارتحل إلا بلاد المصامدة ففتح جبل درن[2]، وبلاد درعه[3]، واستمر في القتال وفتح الأمصار حتى وصل مدينة أغمات[4]، فدخلها المرابطون سنة ٤٤٩هـ ، فأقام بها المرابطون حوالي شهرين،

---

(١) يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالي الصنهاجي، وفي إبراهيم يجتمع مع ابني عمه الأميرين؛ أبوبكر، ويحيى بني عمر، كنيته أبويعقوب، كانت خلافته من اول ولايته بالمغرب بعد استخلاف ابن عمه الأمير أبي بكر له ، وعم حكمه بلاد الأندلس بعد أن ضمها لدولته.
كان شجاعاً بطلاً مقداماً شهماً عادلاً مهيباً، اختط مراكش سنة ٤٦٥هـ ، كانت تخافه الملوك، فقد عزل ملوك الأندلس بعد ان ضمها لملكه لما كان بينهم من الخلاف وعدم الاتفاق، وكان ابن تاشفين كثير العفو، مقرباً للعلماء، كان أسمر نحيفاً، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائساً، حازماً، تملك بضعاً وثلاثين سنة، مات أول سنة ٥٠٠هـ ، وله بضع وثمانون سنة، رحمه الله . انظر: الحلل الموشية ص٢٤. و سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، المجلد ١٩ ص٢٥٢ وما بعدها.

(٢) درن: جبل بالمغرب مشهور يُعرف بسقنقور، وهو جبل عظيم معترض في الصحراء، وقلّ أن يكون في الجبال مثله سمواً وكثرة خصب وطول مسافة واتصال عمارة ومبدؤه من البحر المحيط في أقصى السوس، ويمر مع المشرق مستقيماً حتى يصل إلى جبال نفوسة، ويسمى هنالك بجبل نفوسة، ويتصل بعد ذلك بجبال طرابلس ثم يرق هنالك ويخفى أثره، ويقال أن هذا الجبل يصل إلى البحر حيث الطرف المسمى بأوثان. المصدر: الروض المعطار، محمد عبد المنعم الحميري، ص ٢٣٤.

(٣) درعة: بالمغرب في جهة سجلماسة ، وغنما تعرف درعة بواديها فإنه نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب، وينبعث من جبل درن، وعليه عمارة متصلة نحو سبعة ايام، وهي مدينة عامرة آهلة بها جامع وأسواق حافلة كثيرة ومتاجر رائجة، وهي في شرف من الأرض والنهر منها بقبليها ن وجريه من المشرق إلى المغرب، ويهبط لها من ربوة حمراء، وعليه الجنات الكثيرة فيها جميع الفواكه من النخل والزيتون وغيرهما. المصدر: الروض المعطار، محمد عبد المنعم الحميري، ص٢٣٥.

(٤) أغمات: ناحية في بلاد البربر من أرض المغرب قرب مراكش، وهي مدينتان متقابلتان كثيرة الخير، ومن ورائها إلى جهة البحر المحيط السوس الأقصى بأربع مراحل، ومن سجلماسة ثماني مراحل نحو المغرب، وليس بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف من الخيرات، ولا أكثر ناحية ولا أوفر حظاً ولا خصباً منها، وبين مدينة أغمات ومرّاكش ثلاثة فراسخ، هي في سفح جبل هناك، وهي للمصامدة. المصدر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد ١ ص٢٢٥.

وذلك بقصد من عبد الله بن ياسين حتى يستريح الجنود، ثم واصل المرابطون جهادهم.[1]

بعد ذلك رجع ابن ياسين إلى الصحراء وهاجم السودان الغربي في حوض السنغال ، وانتصر على أهلها ، وفتحت له إفريقيا واستطاعت قبائل لمتونة وجدالة ، ومسوفة وجزولة أن تتوسع جنوباً وتصل إلى قبائل أفريقيا السوداء ، وفي هذه الحروب قُتل عبد الله بن ياسن رحمه الله تعالى وذلك في سنة ٤٥١هـ .

وبعد استشهاد ابن ياسين في بلاد السوس[2] واصل أبو بكر بن عمر الجهاد ضد تلك الجماعات حتى قضى عليهم، ولما بلغه أن خلافاً عنيفاً وقع بين قبيلة لمتونة ومسوفة بالصحراء أسرع إليهم، وذلك في عام ٤٥٣هـ ، لإصلاح أحوالهم، وندب ابن عمه: يوسف بن تاشفين ليحل محله على المغرب الأقصى ، جاهد أبو بكر في بلاد السودان حتى استشهد في عام ٤٨٠هـ ، وتابع خلفاؤه من بعده الجهاد في الجنوب، أما في الشمال فقد تولى القيادة يوسف بن تاشفين ؛ ذلك المجاهد البطل الذي بنى مدينة مراكش[3] في عام ٤٥٤هـ ، وعمرا ببناء المسجد الجامع ثم البناء

---

(١) انظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي، ص١٢٥ ومابعدها، دار المنصور للطباعة، الرباط، طبعة سنة ١٩٧٢م .

(٢) السوس: في أقصى بلاد المغرب، وهي مدينة جليلة حاضرة جامعة لكل خير وفضل، وأهلها أخلاط، وهي بلاد السكر، وهذا السوس الغربي قرى وعمارات كثيرة متصلة بعضها ببعض، وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة وانواع كثيرة، وأهلها أخلاط من البرابر والمصامدة، وبين السوس وأغمات ست مراحل، ويقال للسوس: السوس الأقصى، وهي مدن كثيرة وبلاد واسعة يشقها نهر عظيم يصب في البحر المحيط يسمى وادي ماست، وقد وصل عقبة بن نافع رحمه الله إلى هذه المدينة عند دخول بلاد المغرب وافتتحها. انظر: الروض المعطار، محمد عبد المنعم الحميري، ص ٣٣٠ .

(٣) مَرَّاكُش: بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف، وشين معجمة : أعظم مدينة بالمغرب، وأجلها ، وبها سرير ملك بني عبد المؤمن ، وهي في البر الأعظم، بينها وبين البحر عشرة أيام ، في وسط بلاد البربر ، وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين ، وكان موضع مراكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص على القوافل ، كان إذا انتهت القوافل إليه قالوا "مراكش" ؛ ومعناه بالبربرية : أسرع المشي ، وبقيت مدة = =

المخصص لإدارة شؤون الحكم[1].

أصبح يوسف بن تاشفين أميراً على المغرب بصفة رسمية منذ أن تنازل له أبو بكر بن عمر عن الإمارة سنة ٤٥٣هـ .

اختط ابن تاشفين مراكش سنة ٤٥٤هـ ، ليتخذ منها عاصمةً لمملكته ، ولكي يكون أقرب إلى الصحراء وأقاليم الشمال المتحضرة ، وكون جيشاً ضخماً يتكون من مائة ألف فارس من صنهاجة وزناتة ومصمودة وغيرهم، وتوجه بهم صوب مدينة فاس[2] ففتحها سنة ٤٥٥هـ ، ونازل قلعة فازار[3]، وفي عام ٤٧٠هـ

يشرب أهلها من الآبار حتى جُلب إليها ماء يسير من ناحية أغمات يسقي بساتين لها ، وكان أول من اتخذ بها البساتين عبد المؤمن بن علي ، يقولون أن بستاناً منها طوله ثلاثة فراسخ. انظر: معجم البلدان . المجلد الخامس. ص٩٤. وفي الروض المعطار قال عنها الحميري: شمال أغمات وعلى اثني عشر ميلاً منها بداخل المغرب، وهي في وطاء من الأرض، وليس حولها من الجبال إلا جبل صغير يسمى إيجليز، ومنه قُطع الحجر الذي بني منه قصر علي بن يوسف؛ أمير المسلمين، وبها جامع كبير بناه يوسف بن تاشفين. انظر: الروض المعطار، محمد عبد المنعم الحميري، ص٥٤٠.

(١) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد. ص٢٦، ٢٧.

(٢) فاس: مدينة مشهورة كبيرة على بر المغرب من بلاد البربر، وهي حاضرة البحر وأجل مُدُنه ، قبل أن تُختط مراكش، وفاس مختطة بين ثنيتين عظيمتين ، وقد تصاعدت العمارة في جنبيها على الجبل حتى بلغت مستواها من رأسه، وهي مدينتان؛ عدوة القرويين، وعدوة الأندلسيين ، وكلتا عدوتي فاس في سفح جبل ، وأسست عدوة الأندلسيين في سنة ١٩٢ه وعدوة القرويين في سنة ١٩٣هـ في ولاية إدريس بن إدريس. انظر: معجم البلدان. المجلد ٤ . ص٢٣٠. وفي الروض المعطار: فاس مدينة عظيمة، وهي قاعدة المغرب، وهما مدينتان مقترنتان، يشق بينهما نهر كبير، يسمى: وادي فاس، يأتي من عيون تسمى عيون صنهاجة، وبالجملة فمدينة فاس قطب بلاد المغرب الأقصى، ويسكن حولها قبائل من البربر، لكنهم يتكلمون بالعربية، فهي حضرة المغرب الكبرى، وإليها تشد الركائب، وتقصد القوافل. انظر: الروض المعطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، ص٤٣٤.

(٣) فازار: من الجبال المشهورة في بلاد المغرب، وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر، يطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربي، وهم يكسبون من البقر والغنم والخيل، وخيل هذا الجبل من اعتق الخيول لصبرها وخدمتها، وفي هذا الجبل أنواع النبات من العقاقير التي تنصرف في العلاجات الرفيعة، وفيه خشب الأرز العتيق الغالي، وفي هذا الجبل قلعة تنسب للمهدي بن توالا في نهاية المنعة، أقام عليها = =

استولى على غمارة[1] مروراً بمنطقة الريف إلى طنجة[2] ، ثم أعاد فتح فاس عام ٤٦٢ه للمرة الثانية ، ثم توالت فتوحات المرابطين في بلاد المغرب الأقصى ، ثم استولى على طنجة عام ٤٧٠هـ ، واستولى على تلمسان في عام ٤٧٢هـ ، ثم اتجه المرابطون إلى بلاد المغرب الأوسط، واستولوا على الجزء الغربي من الجزائر ، كما استولى على ميناء سبتة[3] عام ٤٧٧هـ .

ومنح يوسف بن تاشفين نفسه لقب "أمير المسلمين" وأعلن تبعيته للخليفة العباسي في بغداد، وطبع اسمه على السكة في عام ٤٨٠هـ خلفاً للأمير أبي بكر .

وبعد أن أتم المرابطون سيادتهم على الصحراء في جنوب المغرب الأقصى ، وبعد أن اتجهوا إلى الشمال وتم لهم النصر على الزناتيين ، وبسطوا سلطانهم عليهم وأصبح المرابطون سادة المغرب بعد صراع دام عشرين عاماً ٤٤٧ – ٤٦٧هـ ،

عسكر الملثمين سبعة أعوام، وبناؤها بالألواح. انظر: الروض المعطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، ص٤٣٥

(١) غمارة هم قبيلة من بطون المصامدة من ولد غِمَار بن مصمود، وهم شعوب وقبائل أكثر من أن تحصر، يسكنون جبال الريف على ساحل البحر شمال المغرب، على بعد خمس مراحل من طنجة. أنظر: العبر لابن خلدون، المجلد ٦ . ص ٢٨٠.

(٢) طنجة: مدينةٌ في الإقليم الرابع، طولها من جهة المغرب ثمانون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف من جهة الجنوب؛ بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر، وهي على ظهر جبلن وماؤها في قناة يجري إليهم من موضع لا يعرفون منبعه على الحقيقة، وهي خصبة، وبينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد، وهي آخر حدود أفريقية. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد ٤ . ص٤٣.

(٣) سبتة: وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر، تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بأفريقية على ما قيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كف على زند، ومن جنوبها بحر ينعطف إليها من بحر الزقاق ، وبينها وبين فاس عشرة أيام. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد ٣. ص١٨٢ .

أخذوا على عاتقهم ، وعلى رأسهم أميرهم يوسف بن تاشفين ؛ رفع راية التوحيد لنصرة المسلمين في الأندلس.[1]

وقد عبر ابن تاشفين إلى الأندلس، وناصر أهلها، وانتصر على النصارى في موقعة "الزلاقة" الشهيرة ، والتي وقعت في سنة ٤٧٩هـ ، وعاد بعدها إلى المغرب، ثم دعت الحاجة إلى عبور ثان للأندلس ، وقد حدث هذا سنة ٤٨١هـ ، ثم عاد مرةً أخرى إلى المغرب، وعندما لم ينته ملوك الطوائف في الأندلس عما هم فيه من العبث والانشغال بالنزاعات، بل مال بعضهم إلى الأعداء من النصارى ، كره الفقهاء وعلماء الأمة ذلك ، فكتبوا إلى ابن تاشفين ؛ الذي تحرك لخلع ملوك الأندلس ، وفي سنة ٤٨٤هـ ، بسط المرابطون ملكهم على الأندلس ، وانقضى أمر ملوك الطوائف باستثناء بني هود الذين احتفظوا بالثغر الأعلى بطلب منهم وموافقة ابن تاشفين ، وفي سنة ٤٩٥هـ ، ولى ابن تاشفين عهده ابنه علياً ، واوصاه بالإحسان إلى حماة الثغر الأعلى ، وعدم التعرض بأذى للمصامدة ، وتوفي رحمه الله في سنة ٥٠٠هـ ، ودفن في مراكش.[2]

بعد وفاة يوسف بن تاشفين، تولى أمر المرابطين، ابنه علي بن يوسف[3]، والذي كان يبلغ من العمر ٢٣ عاماً ، وعندما تولى أمر الدولة واصل الجهاد ، حيث كان

---

(١) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، محمود السيد.ص٢٧ ، ٢٨.

(٢) انظر: المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، الجزء الأول من ص ١٦٣ – ١٦٥، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية.

(٣) علي بن يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن وارتملي بن تمليت الصنهاجي اللمتوني ، كنيته أبو الحسن، أمه أم ولد اسمها قمر، وتكنى أم الحسن ، ولد بسبتة سنة ٤٧٧هـ ، له من الأبناء تاشفين، وأبو بكر، وسيري.
بويع له يوم مات أبوه بمراكش بعهد أبيه له، وتسمى بأمير المسلمين، وذلك غرة شهر المحرم سنة ٥٠٠هـ ، وسنّه يوم بويع بالخلافة ثلاث وعشرون سنة، وقد كتب إلى جميع بلاد الأندلس والمغرب يعلمهم بوفاة أبيه، ويأخذ منهم البيعة لنفسه، فأتته البيعة من جميه هذه البلدان، وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة ، وقد واصل علي ما كان عليه والده من الجهاد ونشر الخير، وكان رجلاً شجاعاً، = =

شجاعاً ذكياً تكونت فيه مقومات الملك، فجاز إلى الأندلس سنة ٥٠٠هـ ، حيث بايعه الفقهاء ، وكبار رجال الدولة، وكان ينيب أخاه تميماً[١] على المغرب إذا غاب عنها، بيد أنه عزله لسبب ما سنة ٥٠١هـ ، ونقله إلى غرناطة وناحيتها، وأجرى حركة هامة في نقل الولاة وعزلهم.

وقام تميم بتحركات جهادية في الأندلس ، سيطر خلالها على بعض المواقع المهمة للنصارى، بعد أن تعرض لجيش قوي من القشتاليين[٢] بقيادة ولد الفونسو السادس، وكانت حرباً شديدة بين الفريقين قتل خلالها ولد الفونسو وجماعة من قادة المسلمين، والنصارى.

ولما كان سنة ٥٠٣هـ جاز علي بن يوسف إلى الأندلس للمرة الثانية فأقام بقرطبة[٣] شهراً يعبئ جيشه ، ثم زحف نحو قشتالة ففتح منها ٢٧ حصناً ،

صالحاً تقياً، توفي رحمه الله سنة ٥٣٧هـ ، وكان ولي عهده من بعده ولده تاشفين بن علي. انظر: الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص١٥٧ وما بعدها .

(١) تميم بن يوسف بن تاشفين ، أخو علي بن يوسف غير الشقيق، وهو الذي أخذ بيد أخيه علي وأخذ له البيعة بعد وفاة والدهما، كان قائداً مجاهداً في بلاد الأندلس أثناء فترة حكم أخيه علي. انظر: المرجع السابق.ص١٥٨.

(٢) نسبة إلى قشتالة، وقشتالة: إقليم عظيم بالأندلس، وهو بيد النصارى. المصدر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، مجلد٤ .ص٣٥٢.

(٣) قرطبة: "بضم أوله، وسكون ثانيه، وضم الطاء المهلمة أيضاً، والباء الموحدة، كلمة فيما أحسب عجمية رومية، ولها في العربية مجال يجوز أن يكون من القَرْطَبَة وهو العَدْوُ الشديد، قال بعضهم:

إذا رآني قد أتيت قَرْطَبا وجال في جحاشه وطَرطَبا

وهي مدينة عظيمة بالأندلس وسط بلادها وكانت سريراً لملكها وقصبتها وبها كانت ملوك بني أمية ومعدن الفضلاء ومنبع النبلاء من ذلك الصقعن وبينها وبين البحر خمسة أيام، قال ابن حوقل التاجر الموصلي وكان طرق تلك البلاد في حدود سنة ٣٥٠ فقال: وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقعة، وهي حصينة بسور من حجارة ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي، وقد اهتم المسلمون فيها بالعلم وبرز فيها جملة من العلماء. المصدر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد ٤ . ص٣٢٤.

ولم يتمكن من فتح طليطلة[١]، وفي سنة ٥٠٤هـ توسع القائد المرابطي سير بن أبي بكر في فتح البرتغال، فاستولى على أشبونة[٢] ويابُرة[٣] وشنترين[٤] وبطليوس[٥]، وقد توفي هذا القائد العظيم سنة ٥٠٧هـ.

ولم تكد تحل سنة ٥١٢هـ حتى سقطت سرقسطة[٦] في يد النصارى بعد دفاع شريف من لدن سكانها، الذين وصلتهم النجدة متأخرة من المغرب بعد سقوط المدينة، ولكن تميم بن يوسف صد الإسبانيين عن لوردة بعد أن كبدهم خسائر جسيمة.

---

(١) طليطلة: بالأندلس، عظيمة القطر، كثيرة البشر، وهي كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق، وهي حصينة لها أسوار حسنة، وقصبة حصينة، وهي أزلية من بناء العمالقة، وهي على ضفة النهر الكبير، وقلما يرى مثلها إتقاناً وشماخة بنيان، وهي عالية القدر حسنة البقعة، ولها قنطرة من عجائب البنيان، وهي قوس واحدة، والماء يدخل تحتها بعنف وشدة جري، وكانت طليطلة دار مملكة الروم، وعند افتتاح الأندلس وجد المسلمون فيها ذخائر كادت تفوق الوصف كثرة، وبطليطلة بستاين محدقة وأنهار مخترقة ودواليب دائرة، وجنات يانعة، وفواكه عديمة المثال. انظر: الروض المعطار، محمد بن عبد المنعم الحميري، ص٣٩٣.

(٢) أشبونة: مدينة بالأندلس، يُقال لها لشبونة أيضاً، وهي متصلة بشنترين؛ قريبة من البحر المحيط، يوجد على ساحلها العنبر الفائق. انظر: معجم البلدان، ياقوت الحموي، المجلد١ . ص١٩٥.

(٣) يابُرة: بلد في غربي الأندلس. المرجع السابق، المجلد ٥ ، ص٤٢٤.

(٤) شَنتَرين: مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة في غربي الأندلس، ثم غربي قرطبة وعلى نهر تاجُه قريب من انصبابه في البحر المحيط، وهي حصينة، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً، وبينها وبين باجة أربعة أيام. المرجع السابق،المجلد٣، ص٣٦٧.

(٥) بَطَلْيُوس: بفتحتين، وسكون اللام، وياء مضمومة، وسين مهملة: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة، ولها عمل واسع، وينسب لها عدد كبير من العلماء. المرجع السابق، المجلد الأول، ص٤٤٧.

(٦) سرقُسْطَةُ: بفتح أوله وثانيه، ثم قاف مضمومة، وسين مهملة ساكنة، وطاء مهملة: بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تطيلة، مبنية على نهر كبير، وهو نهر منبعث من جبال القلاع ، ولها مدن ومعاقل، وقد صارت إلى يد الإفرنج سنة ٥١٢هـ . المرجع السابق، المجلد ٣، ص٢١٣.

وفي سنة ٥١٣هـ ، استولى النصارى على قلعة أيوب ، فجاز علي بن يوسف مرة أخرى إلى الأندلس، وفتح شنتمرية ، وعين أخاه تميم والياً عاماً على الأندلس .

وفي سنة ٥٣٣هـ أخذ علي بن يوسف البيعة لابنه تاشفين ، وفي سنة ٥٣٧هـ توفي علي بن يوسف.[١]

بدأ عهد تاشفين بن علي بن يوسف مختلفاً حيث ظهرت قوة الموحدين التي تسببت فيما بعد في سقوط دولة المرابطين، ولهذا اشتبك معهم تاشفين بن علي في عدة مواقع ، واشتدت غاراتهم عليه حتى اضطر تاشفين إلى الالتجاء إلى حصن في وهران، وتابعه الموحدون حتى توفي سنة ٥٩٣هـ ، واستولى الموحدون على وهران والحصن[٢].

بعد وفاة تاشفين بن علي، خلفه ابنه إبراهيم بن تاشفين، وقاوم الموحدين، لكنه لم يتغلب عليهم، حتى تمكن منه الموحدون ، وسيطروا على ملكه، وسقطت دولة المرابطين العظيمة بوفاته سنة ٥٤١هـ.[٣]

(١) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د.محمود السيد.ص٤٠، ٤١ . المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، من ص١٦٥ إلى ص١٦٧ .

(٢) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د.محمود السيد، ص٤٢.

(٣) المرجع السابق.ص٤٢.

روافد الثقافة الإسلامية ومقوماتها في دولة المرابطين

المبحث الأول: روافد اجتماعية.

المبحث الثاني: روافد دعوية إعلامية.

المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية.

المبحث الأول

روافد اجتماعية

إن دولةً كدولة المرابطين نشأت من عمق الصحراء، وتكونت بعيداً عن الحياة الاجتماعية العادية، لا يمكن سبر أغوارها الاجتماعية بسهولة ، ذلك لأنها لم ترتبط بمكان واحد، ولم تنشأ في بقعة واحدة، بل بدأت بالانتشار والجهاد، وفتح المدن، وتكوينها، مما أكسبها مزيجاً مختلطاً من الجوانب الاجتماعية، ولعل هذا ما جعل الدراسات التي عنيت بتاريخ المغرب والأندلس - خاصةً في عصر المرابطين – تهتم بالتاريخ السياسي أكثر من التاريخ الاجتماعي، وقد أشار إلى هذا الدكتور: إبراهيم القادري بوتشيش في مقدمة أحد كتبه إذ قال: "ولا شك أن المتأمل في الدراسات التاريخية للمغرب والأندلس في عصر المرابطين، يلاحظ أن معظمها انصب على معالجة الجوانب السياسية، في حين تم إسدال ستار من الصمت على تاريخ المجتمع في هذه المنطقة من الغرب الإسلامي. والحاصل أن هذا الموضوع لا تزال تعتريه المحدودية والابتسار، ولا يزال الغموض والإبهام يلف بعض جوانبه، مما يجعله حلقةً من الحلقات المعتمة في تاريخ المرابطين"[1] .

ولذلك فإن الحديث عن الروافد الاجتماعية للثقافة الإسلامية في عصر المرابطين سينحصر في عاملين رئيسيين، هما :

١. الهجرة القبائلية.

٢. التكوين الطبقي للمجتمع.

---

(١) انظر: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د.إبراهيم بوتشيش، ص ٥، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت، ط١.

وكلا الأمرين نتيجة التمازج بين القبائل المغربية، وتداخلها إبان تكون دولة المرابطين، وفيما يلي بيانٌ لهذين العاملين:

أولاً - الهجرة القبائلية:

دولة المرابطين هي في الأصل مجموعة من قبائل الصحراء سواءً من البربر أو حتى من العرب الذين سكنوا بلاد المغرب، "ومن ثم فإن أبرز خاصية ميزت المجتمع المرابطي تتجلى في كونه مجتمعاً أصبح متعدد الأثنيات، تتعايش فيه عدة عناصر بشرية تختلف عرقياً ودينياً ولغوياً؛ إنه بعبارة أخرى مجتمع الكثرة والتعدد، إحدى السمات الأساسية لدول المغازي القائمة على التوسع."[1]

وهذا التعدد القبلي جعل الأعراف والعادات الاجتماعية التي شكلت فيما بعد الواقع الاجتماعي للمرابطين ناتجةً عن هذا التمازج الذي هو نتيجة الهجرة القبائلية ، خاصةً من جنوب المغرب، وشمال الصحراء إلى شمال المغرب، ولهذا فإن دراسة أحوال القبائل التي كان لها التأثير الواضح في تحديد الهوية الاجتماعية للمرابطين، يعطي تصوراً جيداً ، عن الروافد الاجتماعية للثقافة المرابطية، و في الأسطر التالية وقوف على التأثير القبائلي لقبائل المغرب العربي:

١ . البربر:

" يعد البربر العنصر الأغلب من عناصر السكان في بلاد المغرب، فمنهم وعلى أكتافهم تأسست دولة المرابطين، ثم الموحدين. ومن ثم فمن الطبيعي أن يشكل البربر أهم عناصر السكان بالمغرب الأقصى، خاصةً قبائل صنهاجة وقبائل المصامدة، فقد تبادلت القبيلتان المواقع في عهد كل من الدولتين ، وكان لهما دور كبير في توجيه تاريخ المغرب في العصر الإسلامي"[2]

---

(١) المرجع السابق. ص ٩ .

(٢) انظر: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، د.جمال طه ، ص٣٩، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- الأسكندرية، ط١.

والبربر ينقسمون إلى فرعين رئيسيين هما : البتر و البرانس ، وهذا التقسيم ذكر بعض المؤرخين أنه ينطلق من نمط العيش فالبرانس هم أهل الجبال المستقرون، والبتر هم الرحالة، والبعض يرى أن التقسيم ينبني على أساس ثقافي ، إذ تأثر البرانس المستقرون بمظاهر الحضارة البونيقية واللاتينية ، والإغريقية ، بينما بقيت قبائل البتر بمعزل عنها لبداوتها وتنقلها المستمر[1].

وبعيداً عن الخلاف في سبب التسمية، فإن كتب التاريخ تكاد تجمع على أن البرانس والبتر هما المكون الرئيس للبربر، وتنقلاتهم ونشاطاتهم هي التي صاغت المنظومة الاجتماعية لقبائل البربر إبان دولة المرابطين، فالخصائص القبائلية لهم ألقت بظلالها على الملامح العامة للمجتمع المرابطي من خلال التكوين لهذه الدولة ، ولهذا أشار الدكتور: إبراهيم بوتشيش عندما قال: "وحسبنا أنهم مثلوا نسبةً عاليةً من السكان، إذ لا يخلو بطن من بطونهم في جبل أو بسيط . أما أغلب البتر فهم بدو رحل ، نزلوا بسلسلة الأودية الرعوية، وانتشروا في أقاليم النخيل حسب فصول السنة، بينما أقام بعضهم في القرى الصحراوية . ويمتازون بروحهم القتالية العالية، وامتداد قبائلهم عبر مناطق كبيرة من المغرب الأقصى والأندلس"[2] .

وهذا التمدد لقبائل البربر جعل خصائص هذه القبيلة، ومكوناتها؛ العامل الرئيس في تشكيل المنظومة الثقافية الاجتماعية التي أثرت في المشهد الثقافي لدى دولة المرابطين ، فإن ثقافة التحمل، والصبر، والجلد الذي كانت عليه قبائل البربر، أعطى الدولة المرابطية القدرة على خوض المعارك بكل بسالة، والسير لتحقيق أهدافهم بكل رباطة جأش، وبالجملة فإن تكوينهم القبلي ذو تأثير واضح على صياغة الحياة الاجتماعية العامة للمغرب العربي، وقد لخص الدكتور: جمال طه دور البربر في المشهد بقوله: " فكان النظام الاجتماعي عند البربر يقوم على أسس قبلية

(١) انظر: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس، د. إبراهيم بوتشيش ، ص ١٠.

(٢) المرجع نفسه.ص١٢.

محضة، فالقبيلة هي عماد النظام ومحور الحياة سواءً كانت تعيش على الريادة والغزو، أو مستقرة تتكسب من الفلاحة وتربية الأغنام، وتتركب القبيلة البربرية من عشائر وأسر لأفرادها من الولاء والتعلق بها أكثر من القبيلة نفسها ، فالعصبية عند البربر تقوى كلما ضاق المجتمع ، وتضعف كلما اتسع فهم يشبهون في ذلك العرب، ويرأس الأب أو الزوج الأسرة وله سلطان مطلق عليها، وهو أعلى مقاماً وأشد احتراماً من الأم أو الزوجة"[1] .

"وأشهر القبائل البربرية هم قبائل "صنهاجة" التي تنقسم إلى ثلاث طبقات : أولاها صنهاجة أفريقية والمغرب الأوسط التي أفرزت نظامين سياسيين هما دولتا بني زيري وبني حماد ، أما الثانية فهي صنهاجة الصحراء التي شكلت نواة الدولة المرابطية، بينما تجلس الطبقة الثالثة في صنهاجة الريف، وعلى النهج نفسه يميز بين صنهاجة الشمال في أفريقية والمغرب الأوسط، وهم "أهل مدر" وصنهاجة الصحراء وهم "أهل وبر" "[2] .

وصنهاجة تشكل أغلبية القبائل البربرية ، وأكثرها تأثيراً في المجتمع المرابطي، لأن دولة المرابطين تأسست فيهم، وهم المكون الأساس لها، "واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلت شعباً انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهي التي تكونت منها دولة المرابطين السنية"[3] .

---

(١) انظر: الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، د. جمال طه ، ص ٤٠.

(٢) انظر: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. إبراهيم بوتشيش، ص ١٦.

(٣) انظر: دولة المرابطين، علي الصلابي، الطبعة الثانية. ص١٥.

وعلى هذا الأساس فمعرفة المكونات الاجتماعية لصنهاجة يعطي معرفةً بالمؤثرات الاجتماعية التي شكلت العقلية الثقافية لدى المرابطين آنذاك، وعليه فإن الصنهاجيون بمجموع بطونهم وقبائلهم تميزوا بخصائص من أهمها ما يلي:

أ - الجلَد ، والتحمل ، وهو ما جعلهم يعشقون الترحال والتنقل بحثاً عن لقمة العيش، ولا شك أن هذا التنقل من مكان لآخر كان سبباً في نقل ثقافتهم، وتوسيع تأثيرهم في الأقاليم التي ارتحلوا إليها، وبهذا يكون تأثيرهم أقوى، ونشر عاداتهم أشمل، "والميزة الأساسية التي ميزت الصنهاجيين، هي تنقلهم الدائم وعدم استقرارهم لاعتمادهم على نمط الرعي والانتجاع، فهم قوم لا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا ثماراً ، وإنما أموالهم الأنعام، وعيشهم اللحم واللبن، وينتقلون من ماء إلى ماء كالعرب"(١) .

إن هذا الجلد والتحمل الذي صيغت منه شخصية الفرد الصنهاجي أكسبه قوةً وبأساً أثرت في ثقافته تأثيراً كبيراً ، جعلت منه بعد ذلك إنساناً يحمل مبادئ الإسلام التي أحيتها دولة المرابطين في نفسه بكل قوة وثبات، فالجلد والتحمل ومواجهة الظروف أياً كان نوعها سمة من يريد التغيير والتأثير.

ب - التعصب القبلي، وأعني به الانتصار للقبيلة، وإن كان الإسلام ينبذ التعصب لما له من تأثير سلبي على العقيدة الإسلامية التي تدعو إلى موالاة المسلمين ومعاداة المشركين، لكنني أعني الوجه الحسن للتعصب وهو استثمار الانتصار للقبيلة لصالح الرسالة وتحقيق الهدف، وهو ما برز عند نشأة المرابطين، فهذا التعصب هو الذي جعلهم ينصرون الدولة المرابطية ، وينافحون عنها بكل بسالة، ولا يعني هذا أن قتالهم كان من أجل هذا الأمر، لكن حميتهم لبني جلدتهم كان واضحاً من خلال قتالهم المستميت مع يوسف بن تاشفين ضد خصومه، ولهذا لما

(١) انظر: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. إبراهيم بوتشيش، ص ١٦.

عاد أبو بكر بن عمر من الصحراء بعد أن أخمد نار الفتنة التي نشبت بين قبائل الصحراء ، استصحب معه مجموعات صنهاجية لها أهميتها، ثم تبعتها هجرة صنهاجية أخرى أكبر منها ، وأكثر عدداً والتحقت بالمغرب الأقصى، وفضلت البقاء فيه للمشاركة في جمع الغنائم ونصرة الجيش المرابطي، والقتال مع يوسف بن تاشفين، وقد كان لهذه الهجرة التأثير الواضح في نقل ثقافة هذه القبائل وعاداتها إلى الأقطار التي وصلوا إليها ، واستقروا بها مما أكسب الدولة المرابطية في المغرب صبغة قبائل الصحراء الصنهاجية.(١)

ج – المظهر العام للباس ، "وقد اشتهرت قبائل صنهاجة بلبس العمامة واللثام كلباس رسمي لهم ، وهو اللباس الذي كان عليه المرابطون، بل إن بعض المؤرخين كان يسمي دولة المرابطين، بدولة "الملثمون" "واشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملثمين، وأصبح اللثام شعاراً عُرفوا به إلى أن تسموا بالمرابطين، ويرى بعض المؤرخين أن الملثمين ينتسبون إلى قبيلة "لمتونة" إحدى بطون صنهاجة، وكانت "لمتونة" تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة، ومصراتة، ومداسة، وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثم آلت الرئاسة إلى قبيلة "جدالة" في عهد الأمير: يحي بن إبراهيم الجدالي. ويبدو أن إطلاق اسم الملثمين في بدايته كان خاصاً بقبيلة "لمتونة" ، ثم توسع وأصبح شعاراً لكل من حالف لمتونة ودخل تحت اسم سيادتها"(٢) .

إن تأثير اللباس واضح في كل الشعوب، فلكل شعب لباسه الخاص به، والذي يوحي بخلفية هذا الشعب وما يحمله من مبدأ ينعكس أثره على اللباس الذي يرتديه، ولا شك ان اللثام الذي ميز لباس المرابطين اللمتونيين له تأثيره على ثقافتهم فهو رمز جهادهم ومقاومتهم.

---

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٨، ١٩ .

(٢) انظر: دولة المرابطين، علي الصلابي، ص ١٦.

وتظهر أهمية اللباس كمظهر اجتماعي في تحديد الهوية الثقافية فإنه "من المتعارف عليه أن الزي يعد شكلاً ثقافياً يجسد رؤية الجماعة والفرد لمجموعة من القيم والمعايير الاجتماعية ، وهو اللحظة التي يصبح فيها المحسوس دالاً ، أي أنه يجسد ما يتخذه الجسد البشري كي يصبح حاملاً لمجموعة من الدلالات والعلامات، ومن ثم فإن وظيفة اللباس تكمن في إبراز اختلافات الامتيازات الاجتماعية والمهنية ، ويمكن أن نسوق كدليل على صحتها مثال اللثام، فقد منع ابن عبدون جميع طبقات الناس من لباسه بدعوى انه زي خاص بالمرابطين يتميزون به عن غيرهم من الطبقات الاجتماعية الأخرى ، مما يؤكد أن اللباس ما هو إلا تجسيد للتمايز الاجتماعي"[1] .

والكلام في اللباس ينطبق على بقية العادات الأخرى، والتي عادةً تميز كل مجتمع عن غيره.

لقد كانت الهجرة الصنهاجية من أهم الروافد الاجتماعية التي أثرت في الثقافة المغربية أثناء العصر المرابطي، إذ أثرت على نمط الحياة العامة، في كل المجالات وشكلت الوجه العام للبناء المجتمعي في بلاد المغرب، "معنى ذلك أن المغرب عرف تعميراً جديداً خلال العصر المرابطي . وحسبنا دليلاً على ذلك أننا لا نجد إشارات عن تجمعات سكنية في الأطلسين؛ الكبير الشرقي ، والمتوسط، وبلاد فازاز، إلا بعد قيام الحكم المركزي المرابطي فالبكري[2] الذي وصف المنطقة قبيل استقرار الدولة المرابطية لم يشر سوى إشارات عابرة إلى وجود بعض التجمعات الصغيرة المتناثرة في تلك المناطق، مما ينهض حجة على أن تعمير المنطقة جاء نتيجة مباشرةً للهجرة الصنهاجية الكبرى من الجنوب نحو الشمال، ونجد مصداقاً لظنوننا ما أورده

(١) انظر: المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع – الذهنيات - الأولياء) ، د.إبراهيم القادري بوتشيش، ص٧٥، دار الطليعة – بيروت، ط١ ١٩٩٣م . (بتصرف يسير).

(٢) هو أبو عبيد؛ عبد الله بن عبد العزيز البكري، مؤلف كتاب:المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، وهو جزء من كتاب: المسالك والممالك، توفي رحمه الله سنة:٤٨٧هـ

البيدق[1] من أسماء القبائل الموالية للحكم الموحدي، فقد ذكر ضمن هذه القبائل ، صنهاجة القبلة، وصنهاجة الظل، إشارةً إلى تعمير صنهاجة للأطلس الكبير من سفحيه الشمالي ، والجنوبي. كما لم يفُت الإدريسي[2] – وهو معاصر للمرابطين – أن يلمح كذلك إلى وجود تجمعات سكنية جديدة لبعض القبائل الصنهاجية قرب مدينة داي في أحواز تادلة؛ أبرزها صنهاجة أملو. وقد احتفظت هذه القبائل بنمط عيشها الأساسي المتمثل في الرعي لكنها تخلت عن تربية الجمال، وعوضتها بتربية الأغنام. كما قامت ببعض الأنشطة الزراعية المحدودة"[3] .

ولا شك أن هذه الهجرة لقبائل صنهاجة كان لها الأثر الكبير في التأثير على النمط الاجتماعي للثقافة المغربية، وهو ما أشار إليه الدكتور: إبراهيم بوتشيش أيضاً بقوله:"وقد خلفت هذه الهجرات الصنهاجية الواسعة نتائج هامة على الصعيد الاجتماعي ، فقد تمخض عن زحف صنهاجة الصحراء نحو شمال المغرب احتلالها أراضي القبائل الأخرى، ثم استقرار بعض قبائلها منذ وقت مبكر جنوب وادي سوس مثل لمطة وجزولة. كما تم تعمير جبل فازاز الذي أصبح منطقةً سكنيةً صنهاجيةً حتى إن ابن سعيد سماه جبل صنهاجة ، وتقدمت قبيلة لمطة شمال الحوز

(١) هو أبو بكر بن علي الصنهاجي، الملقب بالبيذق ، أو البيدق، صاحب كتاب: الأنساب في معرفة الأصحاب، وهو من أصحاب محمد بن تومرت، وصديق لتلميذه عبد المؤمن بن علي أمير الموحدين بعد ابن تومرت.المصدر: المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب.لأبي بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق، تحقيق:عبد الوهاب بن منصور، ص٥ ،دار المنصور للطباعة،الرباط، طبعة ١٩٧١م.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي الحسني، المعروف بالشريف الإدريسي، وهو من علماء القرن السادس، وله المؤلف المشهور: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. مصدر الترجمة: مقدمة كتاب: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

(٣) انظر: مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. إبراهيم بوتشيش. ص٢٠

عند ظهور الموحدين ، ثم استقرت شمال فاس ، وهذا يعني أن الصنهاجيين بدأوا يتذوقون طعم حياة الاستقرار ويميلون إليها" [1] .

خلاصة القول: أن الهجرة الصنهاجية كانت سبباً في نقل الثقافة الصحراوية إلى شمال المغرب الأقصى، بل وأسهمت في تغيير الخارطة البشرية ، وأثرت في مواطن الاستقرار ، وهذا يُعد من أهم الروافد التي أمدت الثقافة المغربية أثناء فترة المرابطين بكل مقومات الصحراء وعادات القبيلة التي كان لها أثر واضح بعد ذلك في تشكيل الخريطة الاجتماعية للدولة .

٢ . العرب:

"يعود الاستقرار العربي في المغرب الأقصى منذ أن بدأ تطلع العرب المسلمين إلى الاستيلاء على المغرب في فجر الخلافة ، وتمثل هذا الوجود بعد الفتوحات الإسلامية في الجنود والموظفين الذين بدأوا يثبتون بسلطة الخلافة الإسلامية في ربوع المغرب، ويدبرون أموره العمومية، ومسالكه، وطرقه، واستمر تدفق القبائل العربية إلى أرض المغرب في أواخر خلافة بني أمية بالمشرق، عندما حاول الأمويون قمع ثورات البربر ونشر الإسلام بينهم، وعندما قامت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى في أواخر القرن الثاني الهجري، استقدمت أعداداً منهم، فكان العنصر العربي من العناصر المؤسسة لمدينة فاس، فعلاوةً على مؤسسها العربي العلوي؛ إدريس بن إدريس، وفدت على المدينة وفود العرب من بلاد أفريقية والقيروان والأندلس والعراق، ومن القيسية والأزد ومدلج وبني يحصب والصدف، وغيرهم، بيد أن هذا الاستقطاب لم يؤثر كثيراً في التركيب السكاني، فلم يكن للعرب تأثير كبير في

(١) المرجع السابق. ص٢٢.

المغرب الأقصى إلا بعد منتصف القرن الخامس الهجري، مع الغزوة الهلالية التي بفضلها انتشر العرب في البوادي والأرياف"[1] .

والعرب لم يكونوا إبان دولة المرابطين أصحاب تأثير كبير، لأنهم كانوا يشكلون جزءاً يسيراً من المنظومة السكانية للمغرب إلا أن لهم أثراً سيظهر لنا من خلال تتبع هجرتهم، أثناء فترة المرابطين " وبقيام الدولة المرابطية تضافرت عدة عوامل لتجعل من المغرب الأقصى مركز استقطاب للعديد من المجموعات العربية، فمع شيوع الأمن والاستقرار في عهد يوسف بن تاشفين، واندماج الأندلس في حضيرة الدولة المركزية، وانتعاش المجال الحرفي والصناعي والتجاري، بدأ توافد الأسر العربية الأندلسية على المغرب الأقصى التي استوطن معظمها في فاس لجودة مناخها وسلامة بيئتها، إلى جانب الأسر العربية التي سبقتها، خاصةً الأسر المنتسبة للأدارسة، والتي استمرت في سكنى المدينة إلى عصر متأخر.

وتكمن الأسباب التي حدت بالحكم المرابطي إلى استقدام عرب الأندلس في حاجته إلى الخبرة الصناعية والإدارية"[2] .

ولا شك أن الدخول العربي إلى المجتمع المرابطي في المغرب أكسبه العديد من العادات الاجتماعية، والسلوكيات التي ستؤثر فيه ، خاصةً وأن المجتمع المغربي محتاج لهم كما سبق في ضروريات الحياة، "ففي عام ٥٣٠هـ، استحضر تاشفين بن علي بن يوسف زعماء المرابطين، ونظر ما عندهم في لقاء عدوهم ودعا العرب فقالوا: "ارم العدو بنا ولا تشرك أحداً معنا ، وسيرى الله عملنا" . ومنذ ذلك

(١) الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، د. جمال طه ، ص٥٩.

(٢) مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. إبراهيم بوتشيش ص ٣٨.

التاريخ بدأ الوجود العربي الجماعي يثبت بأرض المغرب الأقصى"[1] وهذا سيدفع بهم إلى المخالطة التي تنتقل من خلالها الخصال ، والعادات ، ليحدث التمازج الاجتماعي مما يؤكد التأثير العربي على الثقافة المغربية أثناء تلك الفترة.

وعند تحليل الهجرة العربية نحو المغرب يظهر أن أهم ما اكتسبه أهل المغرب من العرب ينحصر في أمرين رئيسيين هما:

أ - السياسة الحربية، وفنون القتال؛ فالدراسات تفيد أنهم إنما قدموا على المغرب ، ورُحب بهم لما يتميزون به من القتال ، والبسالة، كما سبق من قولهم لتاشفين بن علي :"ارم العدو بنا " وهذه العبارة تؤكد تمرسهم في الحروب ، ومعرفتهم بها، وعلى هذا تكون ثقافة الحرب وفنون القتال من المكتسبات التي كسبتها الدولة المرابطية من هجرة العرب إلى بلاد المغرب، ولا يعني هذا أن قبائل الملثمين لا تجيد القتال، لكن فنون القتال والمراس الطويل للعرب خاصةً قبائل "بني هلال" تعطي المرابطين أفقاً أرحب، وطرقاً أعمق في قتال عدوهم، مما يحقق لهم المكاسب التي يصبون إليها.

ويشير الدكتور: إبراهيم بوتشيش إلى هذا المعنى بقوله:"ومن المعلوم أنهم كانوا في تلك الفترة قد أنهوا حروبهم في أفريقية والمغرب الأوسط، فأخذوا يتطلعون نحو مناطق أخرى لإفراغ طاقاتهم القتالية، والبحث عن الغنائم. وبما أن المغرب الأقصى والأندلس كانا أقرب المناطق إليهم، فقد وجدوا الفرصة المواتية، ومن ثم كان مجيئهم إليها يدخل في سياق سلسلة حروبهم بحثاً عن موارد الرزق. والغالب على الظن أنهم لم يكونوا ضمن الجيش المرابطي بصفة رسمية، إنما جاؤوا كجماعات من المتطوعة ، ورغم أنهم كانوا قليلي العدد، فلا يمكن أن نتجاهل وجودهم كشرائح اجتماعية ضمن سكان المغرب والأندلس، خاصةً إذا علمنا أن الدولة

(١) الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، د. جمال طه، ص٦٠.

المرابطية دولة حرب تشجع على قدوم مثل هذه العناصر لاستعمالها في مشروعاتها الحربية"[١]

إن هذا التمازج، والتداخل بين العرب ، والبربر كان من مظاهره الزواج الذي تم بين بربر صنهاجة، والعرب ، ولا شك أن لهذا تأثيره على الأجيال التي جاءت بعد هذه الحقبة ، مما يؤثر في عادات المجتمع المرابطي وثقافاته.

ب – تأثير اللسان العربي، وهذا يتضح في أدب المرابطين بعد ذلك، وظهور عدد من الشعراء، خاصةً عندما توافدت على المغرب مجموعات عربية من الأندلس، والتي اشتهرت بالأدب والشعر، وهذا التأثير للعرب يجعل فهم القرآن أسرع، ولذلك ظهر الحرص على تعليم القرآن، ونشر العلم الشرعي .

" إن العرب لم يكونوا غازين بل فاتحين يعملون لنشر العقيدة الإسلامية فقاموا بالعمل من أول يوم على تعليم الدين وتحفيظ القرآن أو بعض آيات منه . كما شجع المغاربة على الدخول في الإسلام أن الإسلام سوى بين جميع المسلمين ولم يفرق بين عربي وعجمي إلا بالتقوى وخشية الله"[٢] .

وهذا الرافد المهم للثقافة في عصر المرابطين، أورث تعليماً مميزاً "لقد صورت المصادر الإسلامية عصر المرابطين بصورة زاهية، فقد حفل بالحركة والحياة، وفاض بالعلماء الثقات الدارسين لأنواع الثقافات العربية، التي قدمت للدولة المرابطية المعونة والمؤازرة ، حتى صار علماء المغرب والأندلس في مستوى علماء المشرق العربي، وقدموا من العلوم والآداب والفنون الشيء الكثير" [٣] .

---

(١) مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. إبراهيم بوتشيش، ص ٤١.

(٢) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص١١٤.

(٣) المرجع نفسه.ص١١٦.

ثانياً: التكوين الطبقي للمجتمع:

وأعني بالتكوين الطبقي للمجتمع؛ الطبقات التي انقسم إليها المجتمع المرابطي، فهم ليسوا كلهم أهل قتال ، ولا كلهم علماء ، بل تشير كتب التاريخ إلى أن المجتمع المرابطي ينقسم إلى ثلاث طبقات:

١. الطبقة الحاكمة؛ وهم الحكام وقادة الجيش، والمجندون.

٢. طبقة الفقهاء والعلماء والقضاة.

٣. طبقة العامة.

وقد كان لهذا التكوين الطبقي تأثيره من الناحية الاجتماعية على ثقافة الدولة، إذ أصبح لكل طبقة ثقافتها التي تخصها في ما هو من اختصاصها، فبالنسبة للحاكم ورئيس الدولة، فإنه قد اتخذ لنفسه شعاراً ؛ وهو السير على نهج الصالحين من الأئمة وعظماء الدين الأوائل ولم يكن للحاكم حاشية تحرسه، وكان الحاكم مقتصداً زاهداً وربى الجنود على هذا الأمر، وعلقهم بالله تعالى.

وأما الفقهاء والقضاة والعلماء ، فقد كان لهم كل الاحترام، والتقدير ، حتى أن أصحاب الحاجات كانوا يأتون إليهم لطلب الشفاعة عند الحاكم، وقد اعتنت دولة المرابطين بالعلماء عنايةً فائقة، وقد كانت هذه وصية الإمام عبد الله بن ياسين رحمه الله ؛ المؤسس الحقيقي للدولة .

وأما العامة فقد اشتغلوا في الرعي وتجهيز النبال للمقاتلين، والعمل على تأمين الأموال، ونحوها من المصالح العامة التي تحتاجها الدولة، وقد كان لهم الإكرام من الحاكم المسلم إذ كان لا يؤخر عنهم حقوقهم، ويحكم بينهم بالعدل ، ويحرص على الفقراء منهم فيعطيهم الزكاة [1] .

(١) انظر : تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد. من ص١١١ إلى ص١١٤.

المبحث الثاني
روافد دعوية إعلامية

تعتبر فترة المرابطين من الفترات التي زخرت بالعلماء في مختلف الفنون، ولأن الدولة قامت على العقيدة الصحيحة، وبدأت مسيرتها من أجل توحيد الله، فإنها تُعد من الدول التي أحيت المنهج النبوي في بلاد المغرب، ولا عجب أن يزدهر فيها النشاط الدعوي، وقد كان هذا منهج الإمام: عبد الله بن ياسين رحمه الله؛ المؤسس لهذه الدعوة الإصلاحية، " ولا شك أننا أمام حركة تغيير كبرى قامت بها دولة المرابطين واستطاعت أن تعدل من سلوك أتباعها وأن تبني العقول وتكوِّن المفاهيم اللازمة لقيام جماعة مسلمة في وقت قصير وتدرجت معهم الدعوة من جانبها الدعوي بأطوارها الثلاثة: (التنظيم – التمكين والسيطرة – الدولة)"[1]

وعند التأمل في واقع دولة المرابطين ، يتضح أن الدعوة إلى دين الله تعالى كانت هماً كبيراً، بل هي السبب الرئيس في تكوين وانطلاق هذه الدولة، ويمكن القول: إن أهم الروافد الدعوية في عهد المرابطين، هي ما يلي:

أولاً : دعوة الشيخ : عبد الله بن ياسين :

بدأ الشيخ عبد الله بن ياسين دعوته للناس في الصحراء، وقوبل في البداية بالرفض والصد، بل والتهديد بالقتل، وكان ابن ياسين رجلاً عالماً صبوراً يحمل هدفاً كبيراً، وهو إخراج هذه القبائل المتناحرة المتصارعة على الدنيا، والتي غاب عنها نور الإسلام، بل بعضها ارتد عن دين الله ، كان هدفه إخراجها من هذا الظلام

(١) انظر: الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، د.فتحي زغروت، ص٣٢، دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة ، الطبعة الأولى .

إلى نور الإسلام، وعلى الرغم من كل ما واجهه من الصدود والمنع، إلا أنه صبر وصابر، وسلك عدة طرق لإيصال دعوته، ونشر الخير الذي يحمله.

ولأن دعوة بن ياسين رحمه الله كانت هي المنطلق الفعلي لدولة المرابطين، فهي بحاجة لإلقاء الضوء عليها لأنها أعظم دعوةٍ إلى التوحيد في تلك الفترة، وبناء عليه يمكن القول بأن دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين نالت هذه المكانة لأنها اختصت بالخصائص التالية:

١. سلامة المنهج: فقد "درس ابن ياسين على فقيه السوس؛ وجاج بن زلو ، ورحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين ، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية، ثم أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلو "[1]، ووجاج بن زلوا هذا من تلاميذ الإمام أبي عمران الفاسي، وعمران أحد أكبر العلماء في المذهب المالكي، وعلى هذا يكون منهج وفقه ابن ياسين مالكياً من أهل السنة والجماعة، وعليه بنى دعوته رحمه الله ، ولهذا البناء المنهجي السليم أثره الكبير في ثقافة الدولة المرابطية، التي استمدت فقهها وأحكامها من فقيهها عبد الله بن ياسين رحمه الله .

إن كل دعوةٍ تقوم على منهج الدعوة النبوية وتنطلق من المنطلقات ذاتها يُكتب لها بعون الله القبول والتوفيق، لأنها استمدت عقيدتها من كلمة التوحيد الصافية النقية، وإن قوبلت هذه الدعوة بالصدّ والعدوان فهو دليل على حسن منبتها وطيب معدنها، فقد لقي الرسول ﷺ في سبيل نشر الإسلام ما لقي، لم يمنعه ذلك عن المضي قدماً في إيصال رسالته، والذب عنها والصبر في سبيلها، حتى كتب الله لها القبول، وأصبحت دولةً دان لها العرب والعجم، ولهذا فإن دعوة ابن ياسين رحمه الله كُتب لها القبول رغم المواجهات والصد والحرب، وذلك لما تتمتع به من سلامة المنهج وحسن المنبت.

(١) انظر: دولة المرابطين، علي الصلابي، ص ٣٧.

٢. عمق التربية: لم يكن ابن ياسين رحمه الله مربياً عادياً، فقد أدرك شيخه وجاج بن زلوا أنه لا يصلح لهذه المهمة الكبرى التي جاءه فيها الأمير يحيى بن إبراهيم إلا هو، وذلك لما تلقاه ابن ياسين من تربية عميقة تجلت في حبه للدعوة إلى الله ، ورضاه بأقل القوت، وتحمله للمصاعب الكبرى التي واجهت دعوته، كما أنه كان مدركاً لخطورة الإقدام على هذه الخطوة، فهو يعرض نفسه للهلاك، وهو يخوض غمار الدعوة إلى الله ، ومواجهة الباطل الذي تجذر في صحراء المغرب ، وشمال أفريقيا ، وهذه الروح الدافعة إلى مواجهة أقوام غابت عندهم معالم الدين القويم ، وحل محلها عصبية قبلية مقيتة دفعتهم إلى القتل والنهب وجعلتهم يعيشون جاهليةً أشبه ما تكون بتلك التي عاشتها الجزيرة قبل مبعث النبي محمد ﷺ.

ويصور الفيلالي في التاريخ السياسي للمغرب العربي الحالة التي كان عليها ابن ياسين، والأمير يحيى بن إبراهيم فيقول: "وإذا كانت آمال ابن ياسين كبيرة، فإنه صدم لأول وهلة عندما وجد القوم في ضلالة عمياء يجمعون بين العديد من النسوة بلا حصر، وإن كانت تلك بداية التوجيه للقوم، فإنهم صدوا ، ونفروا منه ومن يحيى ، إلى درجة أن بقي ابن ياسين ولا مجيب إلا يحيى وقليل معه"[(١)] .

لكن ابن ياسين ، والأمير يحيى بن إبراهيم ، صبرا واستمرا في العطاء والبذل لهذا الدين، ولهذه الدعوة التي بدآها "وكذا اجتمعوا في مكان شيدوه، وما هي إلا فترة من الزمن كثرت فيها جموعهم، وانضم إليهم العديد من القوم الذين جذبهم إقبال يحيى ، وأصبحت الجموع تتكاثر من قبيلتي لمتونة وكدالة وغيرهما ، وإذا ما كان الإسلام أساساً يعتمد الصلاة وما انطوت عليه من نظام محكم ، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، بصفاء النفس وطهارة الجسم وسمو الروح، فإن قيام القوم بخمس صلوات في اليوم، وما يتبعها من تكوين فكري، بدّل فيهم المفاهيم

(١) انظر: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، عبد الكريم الفيلالي، الجزء ٢ ص ٣١٦، شركة ناس للطباعة بالقاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

وغير فيهم السلوك، ثم طبعهم بطابع التنظيم الشبيه بالعسكري، في صفوف متراصة، وامتثال للأوامر بإمعان وانتباه لما يصدر عن الإمام الذي عرف كيف يشد إليه الألف رجل الذين تكامل جمعهم حوله"[1] .

هذه التربية العميقة على مبادئ الدين، والتي استطاع من خلالها ابن ياسين أن يربي أتباعه على المنهج الصحيح، هي التي أكسبتهم تطلعاً إلى معالي الأمور بعد ذلك، ونشأت في واقعهم المعاش ثقافة التنظيم المنهجي السليم، وثقافة الطاعة في المعروف، وهم يرون نتاج طاعتهم لإمامهم، واستماعهم لتوجيهاته، ويعيشون تجربةً فريدةً من التجديد الثقافي السليم البعيد عن غوائل العصبية، وأعباء الحياة المادية التي لا هدف لها ، ولا شك أن هذه الثقافة التي اكتسبتها هذه العصبة تركت أثراً واضحاً في بناء وتكوين هذه الدولة، مما جعل الهم الأكبر لها هو إنقاذ الناس مما هم فيه من الضلال حتى لو تطلب الأمر القتال من أجل ذلك.

٣. وضوح الهدف: فقد كان واضحاً منذ اللحظة الأولى لعبد الله بن ياسين، الهدف الذي انطلق من أجله، وهذا الذي يفسر صبره على النصب واللأواء والعنت الذي وجده في بادئ الأمر، ولهذا فإن وضوح الهدف والسير نحوه بثبات من أعظم دعائم الدولة المرابطية، ولهذا نجحت هذه الدولة في السيطرة على بلاد المغرب العربي، ومن ثم الأندلس ، لأن الهدف كان هو نشر دين الله ، وتوحيد كلمة المسلمين على التوحيد.

إن المتتبع لسيرة الإمام عبد الله بن ياسين رحمه الله يلمس هذا واضحاً "لقد شهد المؤرخون المسلمون وغيرهم أن ابن ياسين رحمه الله ، كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال، آمن بسمو دعوته، وقدسية فكرته، وعزم أن يعيش لها ويموت في سبيلها، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة؛ فعليه أن يصبر في عزيمة قوية، وإيمان ثابت ويقين لا يدخله تردد ولا شك. فداوم

(١) المرجع السابق. ص٣١٧.

على العمل الجاد وأخذ بقوة وعزم ومثابرة ومصابرة، حتى تحقق إعزاز دين الله في تلك الصحاري القاحلة المقفرة الخالية من العلماء والفقهاء، فأصبحت بفضل الله ثم بجهده وجهاده مليئة بالدعاة والفقهاء والعلماء والمجاهدين"[1]

إن الهدف السامي الذي تحرك من أجله ابن ياسين ، عمّق في أتباعه من بعده، ثقافة السمو والتفاني من أجل الوصول للعلياء بدون تردد، والحصول على أعلى المراتب ، والانتصار على النفس من أجل بناء أمثل لمجتمع مؤمن تقي ينهض بالرسالة السماوية الربانية المستمدة لمنهجها من الكتاب والسنة الصحيحة .

لعل هذه أهم الميزات التي ميزت دعوة الإمام عبد الله بن ياسين رحمه الله ، لهذا كانت هذه الدعوة رافداً دعوياً كبيراً لثقافة أهل المغرب العربي بدليل أن سيرة عبد الله بن ياسين الدعوية تُدرس إلى الآن لأبناء المغرب ، ومنهجه في الدعوة يتربى عليه أبناء المسلمين في بلاد المغرب العربي.

(١) انظر: دولة المرابطين، علي الصلابي، ص ٥٠ ، ٥١.

ثانياً: المسجد:

المسجد هو مهد الانطلاقة الكبرى للدعوة الإسلامية، وأثر المسجد في المسلم واضح، فالمسجد هو المكان الذي لا يخلو منه أي تجمع إسلامي ، ذلك لأن الرسول ﷺ أول ما بدأ به في المدينة لتأسيس دولته؛ بناء المسجد الذي أصبح بعد ذلك منارة إشعاع ومكان هداية، وقام بدوره الريادي الكبير الذي لا يخفى ، وعلى هذا الأساس أدرك المرابطون أهمية المسجد ومكانته لنشر رسالتهم، والدعوة إلى منهجهم، فنجد أن أول استقرار للمرابطين في مدينة لهم كان هو عند بناء مدينة "مراكش" عاصمة الدولة المرابطية، والتي بناها الأمير: يوسف بن تاشفين رحمه الله سنة ٤٥٤هـ ، "وهو الذي بنى فيها المسجد وبيت المال ومستودعات السلاح، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد كان يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدم تواضعاً لله تعالى"[(١)] .

وبناؤه للمسجد واهتمامه به يدل على أنه حرص كل الحرص على أن ينشئ منبراً دعوياً يخاطب من خلاله الأمة التي يقوم عليها، ويربطها بالمسجد اقتداءً بالنبي ﷺ.

لقد كان الاهتمام بالمساجد دأب هذه الدولة المباركة، حيث أولتها عناية ورعاية فريدتين، ومما يُذكر في هذا الأمر اهتمام المرابطين بجامع القرويين[(٢)] في مدينة فاس، والذي اهتم فيه الملوك من قبل المرابطين "ولم تزل الملوك والأمراء يهتمون بالزيادة في الجامع المكرم وإصلاح ما تهدم منه تبركاً به وابتغاء ثواب الله تعالى حتى قام المرابطون بالمغرب وملكوا جميعه، وجاءت دولة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، فكثرت العمارة بالمدينة وتناهت الغبطة، فضاق الجامع بكثرة

---

(١) انظر: انتصارات يوسف بن تاشفين، حامد محمد الخليفة، ص ٧٩، مكتبة الصحابة – الإمارات، ط١.

(٢) جامع القرويين: من أعظم آثار المرابطين ، وقد بني في الأصل سنة: ٢٤٥هـ ، وزيد في بنائه سنة ٣٤٥هـ ، وتمت توسعته والاهتمام به في عهد علي بن يوسف سنة ٥٣٠هـ ، ويعتبر من أهم المساجد الجامعة في المغرب وأكثرها شهرة باعتباره جامعةً إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر في القاهرة. المصدر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، تأليف د.حمدي عبد المنعم محمد، ص ٣٦٤ (بتصرف) .

الناس في أيام الجمعة حتى أنهم يصلون بالأسواق والشوارع والطرق، فاجتمع الفقهاء والأشياخ وتكلموا في ذلك مع قاضي المدينة، فأعلم القاضي أمير المسلمين بما رفع إليه من أمر الجامع المكرم واستأذنه في الزيادة، فأذن له وقال له: يكون الإنفاق في ذلك من بيت المال، فقال له القاضي: نسأل الله أن يغنيه عنه من ماله الذي تجمع من أحباسه بأيدي الوكلاء، فأمره علي بن يوسف بتقوى الله تعالى والتحري في ذلك من الشبهات، والاجتهاد في أمر الجامع وبنائه والزيادة فيه، والنظر في أحباسه وجميع أحواله واستخراجها"[1]

وهكذا أصبح المسجد رافداً أساسياً يغذي ثقافة المرابطين، وينشر العلم والدعوة في بلاد المغرب العربي عندما نال هذا الاهتمام والرعاية من قبل حكام هذه الدولة المباركة.

(١) انظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي، ص٥٩ (بتصرف يسير)

ثالثاً: الرسائل والوثائق:

تُعد رسائل العلماء والقضاة والدعاة الناصحين ، وثائق مهمة تتضمن النصح المحض للحاكم، وفيها بيان الطريقة الشرعية الصحيحة في التعامل مع الأحداث وتسيير أمور الدولة، وعلى هذا الأساس فإن دولة المرابطين العظيمة كانت تحظى باستقبال رسائل مهمة من علماء وأئمة لهم الفضل – بعد الله – في توجيه مسار قادة الدولة إلى الطريق الأصوب، وتثبيتهم على الحق، وتدارك أخطائهم ، وعند الرجوع إلى الوثائق والرسائل التي تلقتها الدولة المرابطية من جهات متعددة ، وجدتُ أن أثرها في ثقافة الدولة كان أثراً بارزاً وواضحاً ، وسأعرض بعضاً منها خلال السطور التالية، ليتبين كيف كان أثرها في توجيه ثقافة المرابطين، وإفادتهم بما تحتاجه دولتهم الفتية، وسأعرض هنا نماذج من الرسائل الواردة إلى الدولة المرابطية من العلماء ومن الولاة، وسأكتفي بنموذجٍ من كل نوع من هذه الرسائل:

أولاً- رسالة الإمام الطرطوشي[1] إلى أمير المسلمين؛ يوسف بن تاشفين:

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي إلى الأمير أبي يعقوب بن تاشفين .

سلام عليك، أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، وأشكره لديك كثيراً كما هو أهله، وأخصك من مواعظه وحكمه ما إن أخذت به نجوت من عظيم

(١) أبوبكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي الفقيه المالكي الزاهد، المعروف بابن أبي رندقة؛ صحب أبا الوليد الباجي بمدينة سرقسطة، واخذ عنه مسائل الخلاف وسمع منه وأجاز له، وقرأ الفرائض والحساب بوطنه، وقرأ الأدب على ابن حزم بأشبيلية، ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦هـ وحج ودخل بغداد والبصرة، وتفقه على بعض علمائها، وسكن الشام مدة ودرس بها، وكان إماماً عالماً عاملاً زاهداً ورعاً ديناً متواضعاً متقشفاً متقللاً من الدنيا راضياً منها باليسير، توفي سنة ٥٢٠هـ في الأسكندرية. المصدر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان،لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان،تحقيق إحسان عباس، المجلد ٤، ص٢٦٢،دار صادر، بيروت، طبعة عام ١٣٩٧هـ .

ما ركبت، إن شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الله سبحانه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [سورة ص: آية ٢٦]. قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: "أتعلمون من الخليفة؟ الخليفة هو الذي يقضي بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله". وقال سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الحج: آية ٤١] فمن مكنه الله في الأرض، وآتاه الله سلطاناً ، ولم يفعل ما أمر الله تعالى به في هذه الآية، خفنا ألا يكون من أهلها ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة، إذا فتح الله عليهم الأرض ، وأهلك عدوهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وروي أن الرسول ﷺ قال: "ما من وال يلي رعيةً من البشر فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة" أخرجه البخاري برقم (٦٦٤٥) .

يا أبا يعقوب، لقد بليت بأمر لو حملته السماوات لانفطرت، ولو حملته النجوم لانكدرت، ولو حملته الجبال لتزلزلت وتدكدكت، إنك حملت الأمانة التي عُرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها ، وإني لأخاف عليك أشد الخوف ، فاتق الله يا أبا يعقوب في أمة محمد ﷺ فإن لك مع الله تعالى موقفاً يسائلك فيه عنهم شخصاً شخصاً ، وذكراً وأنثى، صغيراً وكبيراً ، حراً وعبداً، مسلماً وذمياً ، فأعد لذلك المقام كلاماً ، ولذلك السؤال جواباً ، فو الذي نفسي بيده إن ذلك لحق مثل ما أنكم تنطقون..

واعلم يا أبا يعقوب ، إنه لا يزني فرج في ولايتك ومدى سلطانك، وأول عمرك، إلا كنت المسؤول عنه، والمرتهن بجريرته، وكذلك ما يشرب فيها نقطة مسكر إلا وأنت المسؤول عنها، ولا ينتهك فيها عرض امرئ مسلم إلا وأنت المطالب به، ولا يتعامل فيها بالربا إلا وأنت المأخوذ به، وكذلك سائر المظالم، وكل

حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى، فعدتها عليك، لأنك قادر على تغييرها، فأما ما خفي من ذلك ولم يكن ظاهراً يراه المسلمون فأنت المبرأ منه إن شاء الله تعالى.

ألا ترى إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من إبل الصدقة، فإنما هو بعير للمسلمين، فركب على بعيره، وجعل يطلب بنفسه، ولا عذر لك عند الله تعالى أن تقول: لم يبلغني.. فإنك إذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه؟ قال الله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة المائدة:٧٩ آية]؛ مِن تركِهم الإنكار ، وإنما قاله لقوم سخط عليهم، هذا بين الأكفاء والنظراء، فما ظنك بين الولاة والأمراء؟.

لقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين، واتخذت دونهم حجاباً، وأن طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾ [سورة الفرقان: آية ٧] ، قال الحسن: "لا والله ما كان رسول الله ﷺ تُغلقُ دونه الحُجُب، ولا يُغدى عليه بالجفان، ولا يُراح عليه بها ، ولكنه كان بارزاً، من أراد أن يلقى رسول الله ﷺ لقيه، وكان يجلس بالأرض ، ويوضع طعامه في الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف عليه عبده، ويلعق أصابعه، وكان يقول: "من رغب عن سنتي فليس مني " قال الحسن: "وما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها".

يا أبا يعقوب، إنه قد كبرت السن، وانحلت القوى، واشتعل الرأس شيباً، وارتحلت الدنيا مدبرة، وجاءت الآخرة مقبلة، وحان الفراق، والتفت الساق بالساق، وجاءت سكرة الموت بالحق، فالبدار البدار إلى حياة لا موت فيها، وشباب لا هرم معه، وصحة لا سقم فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة آل عمران: آية ١٦٩]

يا أبا يعقوب: إذا أردت الظفر بالعدو فعليك بالعدل في الرعية، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن وفداً من الوفود قدم عليه بالفتوح، فقال عمر: "

متى لقيتم عدوكم؟" فقال "من أول النهار" قال:" فمتى انهزموا؟" فقال: "من آخر النهار" فقال عمر: "إنا لله وإنا إليه راجعون، وقام الشرك للإيمان من أول النهار حتى اعتدل النهار؟ والله إن كان هذا إلا عن ذنب أحدثتموه بعدي أو أحدثته بعدكم، ولقد استعملت بعلي بن أمية على اليمن، أستنصر لكم بصلاحه".

ومما أتحفك به، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهباً لو أنفقته في سبيل الله، حديثٌ رواه الأئمة الثقات عن رسول الله ﷺ فروى مسلم في كتابه الصحيح نقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ أنه قال: "لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله"[1]، والله أعلم، هل أرادكم رسول الله ﷺ معشر المرابطين، أو أراد بذلك جملة أهل المغرب، وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والإحداث في الدين، والاقتفاء لآثار السلف الصالح رضي الله عنهم؟.

وإنا لنرجو أن تكونوا أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض، ولقد كنا في الأرض المقدسة جبر الله مصابها تترى علينا أخبارك، وما قمت فيه من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه، وإعزاز دينه، وكلمته، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحملة الدين والعباد والزهاد، والمنقطعين إلى الله تعالى، يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يديك.

فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء، حتى قدم علينا الأرض المقدسة الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبدالله، فذكرا من سيرتك في جهاد العدو – أهلكه الله تعالى – في تلك الأندية والمحافل والحلق والمجالس، وصبرك على مكافحة العدو

(١) الحديث بلفظ لَا يَزَالُ أَهْلُ الْغَرْبِ ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، أخرجه مسلم ، بَابُ قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ»، (٣/ ١٥٢٥) برقم (١٩٢٥)

ومصابرته، وإعزازك للدين وأهله، والعلم وحملته، ما زاد المسلمين بصيرة في الدعاء لك، وحسن الاعتقاد فيك، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك، ونكثر سواد المسلمين في جملتك.

نسأل الله تعالى الذي يهب الجزيل من فضله أن يهبنا وإياك الشهادة في سبيله ثم إليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقاً فتتبعه، والباطل باطلاً فتجتنبه، فصلاح الرعية بصلاح الراعي.

والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواماً يدارس العلم ، ويمارسه، بلوناه وخبرناه، وهو ممن جمع العلم ووعاه، ثم تحقق به ورعاه، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه، ثم رحل إلى العراق، فناظر العلماء، وصحب الفقهاء، وجمع من مذاهب العلم عيونها، وكتب من حديث رسول الله ﷺ ، وروى صحيحه وثابته، والله تعالى يؤتي الحكمة من يشاء، وهو وارد عليك بما يسرك، فاشدد عليه يديك، و احفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه ﷺ ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأنعام: آية ٥٤] والحمد لله رب العالمين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وآله الطيبين الطاهرين وسلم ، وشرف وكرم، وأفضل وأنعم).[1]

وهذه الوثيقة المهمة، والتي تعتبر وصيةً من أعز الوصايا وأجلها، وأجمعها، لا شك أنها أثرت في مستوى الثقافة لدى الأمير يوسف بن تاشفين رحمه الله، وعلى دولته ، وعند تحليل مضمون هذه الوصية يتضح أنها تضمنت المفاهيم الثقافية التالية:

---

(١) انظر: الدولة المرابطية (قضايا وظواهر أدبية)، د.حسن جلاب، من ص٥٥ إلى ص ٥٩، المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش . ط١. ١٤١٨هـ.

المفهوم الأول: العدل في الحكم، وهو قطب رحى الملك، وأساس التمكين، وقد بدأت الرسالة به لأهميته، ولذلك بدأ الإمام الطرطوشي بتذكير الأمير يوسف بقول الله تعالى : (يا داوود إنا جعلناك خليفةً في الأرض..) الآية، والتذكير بالاستخلاف في الأرض وعظم هذه المهمة وخطرها موضوع أساس في هذه الرسالة، لأن المقصود منها هو تعزيز دعائم هذا الملك الصالح، ومؤازرته، والأخذ على يده ليكون ملكاً عادلاً،وحاكماً صالحاً ، لأن هذا هو المقصود من الجهاد الذي تبنته الدولة المرابطية، وهو إقامة العدل في بلاد المغرب ، وتخليصها من الظلم الذي غطى أرضها ، وحجب عنها نور الإيمان.

والاهتمام بالعدل ونشره بين الناس كان سمةً بارزةً للمرابطين، فلم يُنقل عنهم أنهم ظلموا أو سفكوا دماً حراماً، بل كانت حروبهم التي يخوضونها متجردةً من حظوظ النفس كما هو واضح في كل معاركهم التي خاضوها.

المفهوم الثاني: التذكير بعظم مسؤولية الملك، وقد جاء هذا في تذكير الإمام الطرطوشي لابن تاشفين عندما قال له:"لقد بليت بأمر لو حملته السماوات لانفطرت .... إلخ" ، واستحضار هذه العظمة من قبل الملك العادل يجعله يخاف الله تعالى ، ويكسبه ثقافة الاستعداد للسؤال من قبل الله تعالى عن هذه الأمانة التي حملها، وهل قام بها على الوجه المطلوب أم لا ؟ ، ولا شك أن من يستحضر هذه المسؤولية، ويجعلها نصب عينيه، فإنه سيسعى جهده لأن يعد للسؤال جواباً، وللجواب صوابا، وهذا ينعكس على الدولة بالخير والبر لأن مبدأ المراقبة يصبح ثقافةً يتربى عليها الأتباع، وهذا يقضي على ظواهر سيئة تظهر عادةً في المجتمعات التي يغيب عنها مفهوم المراقبة لله تعالى، واستحضار الأمانة التي حملتها.

المفهوم الثالث: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يتضح من خلال تذكيره بجملة من كبائر الذنوب، كالزنا، وشرب الخمر، وانتهاك الأعراض، وأكل الربا وغيرها، وأنه إن أهمل وجودها ، ولم يقم بالأمر والنهي للقضاء عليها، فإنه مسؤول عنها بين يدي الله تعالى ، وهذا يجعل الحاكم يهتم للقضاء على هذه الموبقات

التي هي – ولا شك – من أعظم أسباب انهيار الدول، مصداق قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ [الإسراء: آية ١٦]، وإذا اهتم الحاكم المسلم بالقضاء على هذه الموبقات، وتربت الدولة على هذا الأمر، أصبحت ثقافة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، جزءاً من حياة الناس، لأن القيادة تدعوهم إلى هذه الشعيرة، وتحثهم عليها، والله تعالى يقول: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١١٠] .

المفهوم الرابع: المعايشة الاجتماعية، وهو ما أشار إليه بقوله: "ولقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين، واتخذت دونهم حجابا...إلخ" ، وتغليظ الإمام الطرطوشي على ابن تاشفين في هذه المسألة يدل على خطورة انعزال القائد عن الناس، وجعل الحواجز بينه وبينهم، وأن هذا يسبب النفور منه، وربما التفلت عن طاعته، ولهذا استشهد الإمام الطرطوشي بقول الله تعالى : (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق) تأكيداً منه على ربط الأمير بمنهج النبي ﷺ، والذي كان يعيش مع الناس ويخالطهم ليتفقد أمورهم، ويلبي احتياجاتهم، ويواسيهم، وهذه الثقافة العميقة التي يحملها القائد تجاه رعيته، هي التي تجعله يحظى بالقدر الكبير من الطاعة بينهم، ويتحقق الاستقرار الذي يدفع للنماء.

المفهوم الخامس: التعلق بالله تعالى، وكيف أن الإمام الطرطوشي ربط الأمير القائد بالله تعالى عندما قال له: "فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء...إلخ".

إن إكساب القائد هذا المعنى العميق من معاني العقيدة وهو صدق التعلق بالله تعالى، وبيان مدى ضعفه أمام قدرة الله تعالى، ليجعل القائد شديد اللجوء إلى الله تعالى، وقد كان هذا هو حال النبي محمد ﷺ فكان لا يغزو غزوةً إلا ويلح قبلها أو

أثناءها على الله تعالى بالدعاء، وينطرح بين يديه راجياً منه العون والتوفيق والنصر والتأييد، وما أحرى القادة اليوم بأن يتشربوا هذه الثقافة العظيمة التي تجعل التوكل على الله، والالتجاء إليه ملازماً لهم، وحاضراً في أذهانهم، ليتحقق لهم ما يصبون إليه من التمكين.

المفهوم السادس: مكانة العلماء في الأمة، وعظم تأثيرهم، وهو ما أشار إليه الإمام الطرطوشي من تزكية للإمام الفقيه أبي بكر بن العربي رحمه الله ، وحثه لابن تاشفين بأن يلازمه ، ويشدد عليه يده، وهذا المفهوم يبين مدى التأثير الكبير للعلماء الربانيين الناصحين؛ الذين يقومون لله بأمره من النصيحة للحاكم، وتوجيه الناس، والحفاظ على تماسك الأمة، وكيانها، وهو أمر مهم جداً لبقاء الدولة المسلمة، فمتى ما قدرت الأمة علماءها، وأجلت فضلاءها، فهي – ولا شك – منتصرة بأمر الله ، لأنها رعت فيهم العلم الذي يحملونه، والذي هو مكان تزكية الله لهم، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٨]. فأهل العلم هم صمام الأمان لأي مجتمع، ومتى ما رعت الدولة حقهم، تحقق لها النصر والتمكين بإذن الله .

هذه أهم المفاهيم التي اشتمل عليها كتاب الإمام أبي بكر الطرطوشي رحمه الله، إلى أمير المسلمين؛ يوسف بن تاشفين، ولا شك أن هذا الكتاب وغيره، كان له أكبر الأثر في تشكيل الثقافة المرابطية التي سار بها حكام هذه الدولة العظيمة، مما انعكس على تعاملاتهم مع رعاياهم، ومع خصومهم، وأعدائهم.

الرسالة الثانية: من الخليفة العباسي المستظهر بالله، إلى علي بن يوسف بن تاشفين، وهذا نصها:

" من عبد الله العباس المستظهر بالله أمير المؤمنين، إلى مقيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية؛ علي بن يوسف بن تاشفين ، رحم الله جميعهم بمنه، أما بعد:

فالحمد لله مقدماً على كل مقال، وتالياً لكل منال، وهو ذو المن والإفضال، الكبير المتعال، وصلى الله على سيدنا محمد رسوله، المؤيد بتنزيله، الذي كشف به عن الهدى الغمة، واستنقذ من الضلالة الأمة، وحمى به ما كان من المحارم مباحاً، واقتدح من القلوب زناداً أورى بعد أن كان شحاحاً، وألبس الدين – بعد أن كان بالعدى سلبياً – جناحاً، وعلى أصحابه وأزواجه، وخص العباس بن عبد المطلب

صنوة النبوة، ووارث الخلافة وشقيق الأبوة؛ الميمون الطاهر، الظاهر الأوائل والأواخر، بالصلاة المسبلة العهاد، المتجددة الأمداد.

ومواهب الله على أمير المؤمنين حبايس، ومنايحه لديه كوامل نفايس، وجناب الإسلام مريع، وباع الحق وسيع، ورياض العدل أريضة وعيون الجور مغضوضة، ونظره للرعايا يعدل الدنيا إذا مال قصدها، ويفل عنه شيئاً الأيام إذا أرهف حدها. والنصر لرايته أليف، والظفر لجيوشه حليف، وأعداؤه للسيوف حصايد، وللحتوف طرايد، وشكره لله تعالى مؤذن بالمزيد، وشاهد لا ينفد ولا يبيد.وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك الموضح لإخلاص عقيدتك المطبوعة بطابع الدين، المعربة عن تمسك بحبل الله متين، الهاطلة سحابيها من سما سيرتك المضيئة مصابيحها من حميد طريقتك.

فأما ما نهيته من توفرك على الجهاد، ومن في جملتك من الأجناد، ودفع أدناس الكفرة عما يليك من البلاد، فأنت وطايفتك من حزب الله، وحزب الله هم الغالبون.

فاتخذ التقوى عمادك، والحق منارك، وسنة رسوله ﷺ شعارك، والعمل الصالح قصدك، والتوكل على الله أصلك، واجمع من تلى أمرهم على التناصف، واصرفهم عن التظالم، وإذا علا بك الانبساط فطامن جناحك، واردد من طماحك، وأعط من نفسك ما تريد أن يعطيك من فوقك، وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين، وبع أعراض العاجلة بالمغفرة من رب العالمين، وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على ذوايب المنابر ، تكن الظافر بالأعداء ، والظافر.

والسلام عليك وعلى من قبلك من أهل الطاعة، سلاماً يهديهم إلى المقام المجدود، ويظلهم في ظل الرحمة الممدود ، إن شاء الله "[1]

(١) انظر: سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، حسين مؤنس، ص ١٧، مكتبة الثقافة الدينية- بور سعيد، ط١.

هذه الرسالة، والتي وُجهت إلى علي بن يوسف بن تاشفين، تحمل مفاهيم ثقافية مهمة، ذلك أن مصدرها خليفة المسلمين، وهذا يدل على أن الدولة المرابطية لم تكن بمنأىً عن الخلافة العباسية المسلمة، ولهذا فإن هذه الرسالة تحمل عدداً من المفاهيم من أهمها:

المفهوم الأول: نسبة النصر إلى الله تعالى، والاعتراف بفضله، وهذا المعنى يرسخ في فهم القائد أن لا يغتر بنصر الله له، وأن يعلق نفسه بالله تعالى، يتضح ذلك في قوله:"ومواهب الله على أمير المؤمنين حبايس.. إلى أن قال: "والنصر لراياته أليف، والظفر لجيوشه حليف، وأعداؤه للسيوف حصايد، وللحتوف طرايد ، وشكره لله تعالى مؤذن بالمزيد"، فهي رسالة للقائد المرابطي أن يعلق بالله تعالى آماله، وأن يستمد منه نصره وتأييده، وأن لا يركن إلى نفسه، فإن الله تعالى هو الملك ، وبيده الأمر كله، وهذه الثقافة إذا انطلق من خلالها القائد ، فإنها تربي فيه صدق الاعتماد على ربه، مما يجعل النصر حليفه، ولا شك أن هذه الثقافة كانت واضحةً جليةً عند المرابطين الذين ظهر حسن اعتمادهم على الله مما جعل البلاد تدين لهم.

المفهوم الثاني: ارتباط القائد بالطاعة للخليفة، وعدم شق عصا الطاعة، أو الاغترار بالذات، وقد كانت هذه سمة بارزة في حكام الدولة المرابطية، الذين كانوا يعقدون الولاء للخليفة العباسي ، وقد كان يوسف بن تاشفين مستمسكاً بهذه العروة لا ينفك عنها، بدليل أنه لما أراد خلع ملوك الطوائف في الأندلس ، لم يُقدم على هذه الخطوة إلا بعد أن استأذن من الخليفة العباسي، وكتب له كتاباً بهذا، وجاءه الرد بالموافقة، والتأييد، وهذا المعنى العظيم من الولاء للخليفة، وعدم الخروج عليه، يزرع في نفوس الأتباع، والجنود ، معنى الوحدة الإسلامية التي هي السبب في التمكين والنصر، فالدولة التي يجتمع جنودها ، وقادتها على كلمة واحدة، تكون قويةً مكينةً ، لا تُغلب، أما إذا دب الخلاف ، والوهن ، والتنافس على المناصب، وحب الرياسة، فإن هذا مؤذن بالهلاك ، والسقوط، وهو ما حدث في الأندلس، وغيرها من بلاد المسلمين.

المفهوم الثالث: التأييد والتحفيز من الخليفة للقائد المرابطي، وهذا يدفع القائد إلى المزيد من العطاء، ويثبته ويجعله مطمئناً إلى أن هناك من يقف خلفه، خاصةً وأن التأييد أتى من أعلى سلطة، وهو الخليفة، ولا شك أن لهذا التعزيز والتحفيز والتأييد أثره البالغ في نفس القائد الباحث عن النصر.

المبحث الثالث

المؤسسات التعليمية

شهدت الحركة العلمية في بلاد المغرب أثناء عصر المرابطين ازدهاراً علمياً، وانتشاراً واسعاً، وليس هذا بمستغرب لأن الدولة أسست على التعليم أصلاً ، وما رباط الإمام عبد الله بن ياسين رحمه الله ، إلا مثال واضح جلي على الاهتمام بالتعليم في تلك البلاد، فمنه بدأت الحركة العلمية في بلاد المغرب أثناء عصر المرابطين، ولهذا اهتمت الدولة بهذا النوع من المؤسسات التعليمية.

وعند دراسة أحوال التعليم في بلاد المغرب أثناء فترة المرابطين يتضح أن أهم المؤسسات التعليمية هي:

أولاً : الرُبُط.(رباط عبد الله بن ياسين نموذجاً).

والربط جمع رباط، " والرباط حصن حربي يقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عنها، ولعل هذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الأنفال: آية٦٠] ، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة آل عمران: آية٢٠٠] ،وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من هذه الربط لحماية حدود الدولة الإسلامية، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضةً لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها، فأقيمت فيها الربط، وشُحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن القائد عقبة بن نافع الفهري

عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: قربها من البحر ليكون أهلها مرابطين "[1] .

والذي يعني هنا في الربط، هو كونها مؤسسات تعليمية، وهي كذلك، إذ أنها لم تقتصر على الحماية العسكرية فحسب إذ توسع مفهومها بعد ذلك، فهي "إلى جانب المهمة العسكرية، فقد اهتمت الربط بالناحية العلمية، فمع انتشارها أخذت الثقافة العربية تنتشر مع انتشار الإسلام، وقد شهد المغرب التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق، مما دفع بالمقيمين في تلك الربط إلى التفقه في الدين لمواجهة التيارات، خاصةً وقد شرع فقهاء المالكية يثبتون أقدامهم في أفريقيا، وغدت الربط مدارس علمية تدرس الفقه والحديث"[2] وتنشر الثقافة الإسلامية في البلاد التي تهتم بها ، وعلى هذا فقد كان لها الأثر الكبير في تحديد الهوية الثقافية الإسلامية للمغرب العربي، وأولتها دولة المرابطين اهتماماً خاصاً ، بل انطلقت منها، وتسمّت بها ، ولذلك فإن أهم الربط في تاريخ المرابطين، هو الذي انطلقوا منه، وهو:

رباط الإمام عبد الله بن ياسين رحمه الله: وهذا الرباط لجأ إليه ابن ياسين مع الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، بعد أن واجهوا نفوراً وإعراضاً، وتهديداً من قبائل الصحراء، مما دفع ابن ياسين إلى التفكير بالعودة إلى شيخه وجاج بن زلوا ، إلا أن الأمير يحيى بن إبراهيم ، عرض عليه أن ينتقلوا إلى جزيرة في مصب نهر السنغال ، ويجعلوا فيها رباطاً يعبدون الله فيه إلى أن يشاء الله، "بدأت المرابطة في الجزيرة المحددة سنة ٤٣٣ هـ ، بتسعة أشخاص؛ منهم يحيى بن إبراهيم الجدالي، ويحيى بن عمر اللمتوني وأخوه أبوبكر، وكانت حياتهم في الرباط قاسيةً وجادةً إلى حد كبير ، حيث وضع ابن ياسين قواعد للقبول مبدئياً، وفترة مراقبة للتأكد من استعداد

(١) دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، د.سعدون عباس نصر الله، ص٢٣، دار النهضة العربية – بيروت، ط١.

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤.

المنتسب الجديد هذا فضلاً عن إعلان الدخول في الإسلام وإقامة حدود ما اقترفه المعني من ذنوب لتطهيره.

أما عن حاجاتهم الضرورية فكانوا يكتفون بالخشن والقليل والبسيط المتواضع الذي يعدونه بجهدهم الخاص من الصيد البري أو البحري، فظلت هذه المسحة الزهدية طاغية خلال كل تاريخ المرابطين، ولا شك أن النظام الذي فرضه ابن ياسين في رباطه هذا كان قاسياً وغليظاً ، ولعل الدافع إلى ذلك ما تعرض له في محاولته الأولى أثناء دعوته بالحكمة ،والموعظة الحسنة، وبالتالي كانت ردة الفعل هذه على تلك المؤامرة ستمكنه ومنذ البداية من فرز من يصلح لحمل رسالته الإصلاحية من خلال الصبر والإيمان والجلد والانضباط ممن لا يصلح لها، وما هي إلا فترة وجيزة حتى بدأ الوافدون يتوافدون على الرباط ويتسابقون إلى أداء الواجبات والالتزامات المحددة فيه"[1] .

إن هذه الضوابط، وهذا الحزم داخل الرباط في حد ذاته يشكل بيئة تعليمية تربوية ترسخ ثقافة التجرد من حظوظ الدنيا، وأهواء القبيلة، من أجل بناء كيان له خصائصه التي تدفعه مستقبلاً لتحقيق رسالته الرامية إلى إقامة التوحيد، والعدل في هذه القبائل المتناحرة، وتجديد الدين في نفوس من تبقى في قلبه شيء من الإسلام، ولهذا بدأ الرباط قوياً، فهو لم يكن مجرد رباط عسكري ، بل كان بيئة متكاملة. " فحياة الجماعة الإسلامية في الربط كانت تقوم على أساس التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، كان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البري ، والبحري، حسب موقع الرباط، وكذلك كانوا يقومون بإعداد الطعام وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة.

(١) المجتمع والسُّلطة عند المرابطين في الصحراء، صالح ولد محمدو، ص ٦١-٦٢ دار نقوش عربية- تونس، الطبعة غير موضحة، (بتصرف يسير).

أما من ناحية العبادة، فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة، وقد وُضعت عقوبات لمن يتأخر عنها، وفي أوقات السِّلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره، وكل ما يمت إلى الدين بصلة للقيام بالمهمات التي تلي حياة الرباط"[1] .

والمتأمل حياة المرابطين في رباط بن ياسين، يجد أن هذا الرباط كرَّس مجموعةً من الثقافات؛ التي كان لها الأثر في حياة الدولة وتوجيه اهتماماتها فيما بعد، ومن أهم الثقافات التي تربى عليها أهل الرباط ما يلي:

١. العمل: "كان رجال الرباط يقومون بتموين أنفسهم بأنفسهم، عن طريق صيد ما يحتاجون إليه من صيد البر أو البحر، وإعداد الطعام لأنفسهم، وفلح الأرض، وبناء الرباط، وصنع الثياب، مع الاكتفاء في الطعام والثياب بعرف الخشونة المستحبة، وصنع السلاح، وكان العمل وسيلة لتحقيق الاكتفاء الذاتي"[2]، وهذه الثقافة إذا تربى عليها الناس فإنها تكون بإذن الله تعالى حصناً حصيناً ضد التغيرات التي تطرأ على اقتصاديات الدول، وهي استراتيجية مهمة لمواجهة الظروف واستشراف المستقبل المعيشي، ولهذا فإن الشعوب إذا اعتمدت على نفسها في الزراعة، والرعي، ونحوه من الأعمال الحرة ذات المردود الجيد، فإنها لن تكون خاضعةً لأحد من الناس يمن عليها بما يعطي، وربما يمنعه متى شاء ، وهذه نظرةٌ استراتيجية تؤمن مصادر الدخل للدولة، وتحقق لها الاستقرار المالي الذي يدفعها لتحقيق أهدافها، ونشر الخير بين الناس.

٢. العبادة: والرباط مكان لا يأتيه إلا من يريد الله والدار الآخرة، لذلك فإنه مكان مناسب للعبادة، والانقطاع لها ، لأنه يبعد الإنسان عن الدنيا وضجيجها،

(١) دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، د.سعدون عباس نصر الله، ص ٢٥.

(٢) المرابطون (تاريخهم السياسي)، محمد عبد الهادي شعيرة، ص٤٠، مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة، ط١.

وعن مشكلات المجتمع الأخرى، والتي تعيق تقدمه، وحالة الرباط في عصر الإمام بن ياسين "كانت العبادة قاصرةً على الجماعة في الصلوات الخمس، وعلى صلاة القضاء الإجبارية، وقد وُضعت عقوبات على مخالفة المرسوم للصلاة ، فمن فاتته ركعة ضرب خمساً، ومن تخلف ضرب عشرين، وكان الخشوع الصامت إلزامياً، حتى عدو رفع الصوت في المسجد مخالفة"[1] ، وإن كنا نختلف معهم في هذا الأسلوب لأنه يخالف ما أمر الله به نبيه ﷺ حين قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [سورة النحل:آية ١٢٥] ، وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [سورة آل عمران: آية ١٥٩] لكنهم في مرحلة بناء ، و هذا اجتهاد من أجل التمحيص، وقد أعدهم هذا الأمر للقيام بالعبادات، والتفاني فيها، والحرص على أدائها، حتى أحبوها، وألفوها، وكانوا يقومون بالواجبات، والسنن، ولا يتركون منها شيئاً في غالب أحوالهم، وقد استمرت معهم هذه الثقافة ونقلوها للبلاد التي يتم فتحها، حتى عُرفت دولة المرابطين بكثرة العباد وأهل الصلاح ، ليس على مستوى الأفراد، بل على مستوى الحكام ، والقادة والجند أيضا.

٣. الجهاد: أما الجهاد في سبيل الله فهو الأساس الذي ربى عليه ابن ياسين أتباعه من الملثمين، فلم يكن ينضم إليهم في الرباط إلا من كان مستعداً لخوض المعارك ضد كل من يخالف الشريعة التي حرص عليها ابن ياسين. "وجدير بالذكر أن المسلمين في هذه الفترة كانوا يرون في الرباط قيمةً ساميةً تتمثل في الجهاد سواءً تعلق الأمر بجهاد النفس، أو العدو، ولعل ذلك ما يفسر الإقبال الكبير على الرباط الجديد، ويختلف كتاب العهد الوسيط حول مدة الإقامة في الرباط قبل بداية الجهاد،

(١) المرجع السابق.ص٤٠.

وعدد المتوافدين، ولو أن معظم الروايات تورد عدة أيام إلى ثلاثة أشهر، والأكثر منطقيةً أن تكون ثلاثة أشهر حتى تكون تربية الوافدين سليمة، وتعليمهم كافياً بما يوقظ فيهم جذوة الجهاد من علوم الدين، وبعد هذه الفترة المحدودة تجمع على عبد الله بن ياسين من ألف إلى ثلاثة آلاف رجل ، سيبدأ بهم حربه المقدسة"[1] ، والجهاد الذي تربى عليه المرابطون كان جهاداً نزيهاً ، لم يكن لاستعادة أملاك، أو أطماع دنيا، إنما كان من أجل نشر دين الله ، وتجديد الدين في نفوس من خبا نور الإيمان في قلوبهم، " والواقع هو أن إيجاد مجتمع جديد عن طريق نموذج كان هدفاً مشروعاً في ديار بعيدة نائية عن الخلفاء الواجب طاعتهم، فإن المبدأ المالكي يقول بطاعة الأئمة وإن جاروا، ولذلك لم تعتبر الحركة المرابطية حركةً ثورية (بمعنى خارجة عن طاعة إمام المسلمين) خصوصاً وأن الخلافة الأندلسية القريبة كانت قد انقطعت من الأندلس، ولهذا وجدت دولة المرابطين الباب مفتوحاً – فيما بعد – أمام طلب التقليد من الخلافة العباسية."[2] ، وهذا الجهاد الإسلامي المبارك، هو الذي جعل هذه الدولة العظيمة تنطلق بقوة وثبات على المنهج حتى دانت لها كثير من الممالك، بل وُجهت لها الدعوة من الأندلس لإنقاذها من براثن العدو الصليبي، وهو ما جعل المرابطين يتوسعون في ملكهم حتى ضموا الأندلس بعد ذلك إلى حوزة البلاد الإسلامية، وأعادوها تحت راية الخلافة العباسية.

٤. التعليم: أما التعليم فقد كان حجر الأساس لقيام الدولة المرابطية، وقد بدأ به الإمام ابن ياسين ، بدعم من الأمير يحيى بن إبراهيم، وكان هو الهدف الأساس من قدوم ابن ياسين على بلاد الملثمين، " ولا يمكن أن نتصور جماعةً إسلاميةً دون تعليم قائم على تعليم الفرائض، والوعظ، وحفظ القرآن"[3] ، "وبدأ الناس يقصدون الربط ليس للجهاد فحسب، بل لتلقي العلم أيضاً، إذ غدت الرباطات

(١) المجتمع والسُّلطة عند المرابطين في الصحراء، صالح ولد محمدو، ص ٦٢.

(٢) المرابطون (تاريخهم السياسي)، محمد عبد الهادي شعيرة، ص ٤٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠ (بتصرف يسير)

مدارس يدرس فيها الفقه والحديث، يقصدها العلماء من كافة جهات المغرب فينهلون من مواردها ما طاب لهم أن ينهلوا"[1] وإذا كانت الربط بهذه المكانة من العلم والتعليم فليس غريباً أن يخرج منها العلماء والمثقفون، والمفكرون، لأنها بيئة تعليمية مركزة، "وذاع صيت المالكية في هذا المضمار، وانتشر فقهاؤهم في الربط يعمرونها، ويشيعون علمهم فيها، حتى قيل: إن قصور زياد المرابط بساحل إفريقية دار مالك لكثرة من فيه من العلماء والعباد والصالحين من أصحاب مالك."[2] ، والتركيز على العلم في الربط يجعل تناقل الثقافة الإسلامية الأصيلة، المنطلقة من سلامة المنهج لدى المرابطين أمراً متحققاً ، يتنافس فيه الرجال الصادقون، ولهذا كان قيام الدولة المرابطية تعزيزاً للثقافة الإسلامية في بلاد المغرب مما جعلها بعد ذلك مركزاً ثقافياً منتجاً ، يشع بالنور والعلم على البلاد الإسلامية كلها.

(١) قيام دولة المرابطين، الدكتور حسن أحمد محمود، ص ١١٦.

(٢) المرجع السابق.ص١١٧.

ثانياً: المجالس العلمية والكتاتيب:

الحركة العلمية في بلاد المغرب قديمة ، وتبين لنا أن الإمام عبد الله بن ياسين كان أحد ثمرات هذه المجالس العلمية، فقد كان تلميذاً لفقيه السوس وجاج بن زلو؛ والذي هو أحد تلامذة الإمام أبي عمران الفاسي؛ أحد علماء المذهب المالكي، ولا شك أن الإمام ابن ياسين، وهو خريج هذه الحلقات والمجالس العلمية، قد ربى أتباعه من المرابطين على طلب العلم، وعقد هذه اللقاءات العلمية، ومن خلال دراسة تاريخ الدولة المرابطية يتضح لنا انتشار العلم والتعليم من خلال إعمار حلقات العلم، وتشجيعها، وارتيادها من قبل طلبة العلم للنهل منها .

"نشأ التعليم في البلاد المغربية معتمداً على الكتاتيب لتعليم الأطفال منذ القرن الأول الهجري باعتبار أن التعليم شعار من شعائر الإسلام سار عليه المسلمون في أنحاء العالم الإسلامي، مما ساعد على تثبيت العقيدة في القلوب وأولى الخطوات في طريق التعلم هو القرآن. وقد أخذت بلاد المغرب الأقصى بمذهب الاقتصار على تعليم القرآن مع القراءة والكتابة حتى البلوغ، وبلغت الكتاتيب بفاس مائتي كتّاب، ويستعان بألواح خشبية للكتابة ، ويستغرق حفظ القرآن نحو سبع سنوات.

وتُعد المساجد مركز الإشعاع الفكري في سبتة وطنجة وتازة وسجلماسة ، وفي مدينة فاس وصل عدد المساجد إلى ستمائة مسجد؛ بعضها زود بالأعمدة والفسيفساء، والخشب المنقوش وفرشها بالرخام.

كما أن جامع القرويين بفاس يُعد أقدم جامعة علمية في العالم الإسلامي، وقد قامت به نهضة علمية شملت جميع بلدان المغرب الأقصى، وحددت بداية الدروس بعد صلاة الفجر إلى ما بعد الشروق بساعة، كما خُصصت الأوقاف للإنفاق على المعلمين والطلاب ، وفي مدينة فاس أنشأ يوسف بن تاشفين مدرسة الصابرين.

وقد بدأت الحركة العلمية في مدينة فاس تنشط بقوة في عهد المرابطين؛ تلك الحركة التي قادها زعيم المرابطين؛ عبد الله بن ياسين الذي جعل هدفه إنقاذ المغرب

الأقصى من الفئات الضالة من أصحاب المذاهب المعاكسة للحركة المالكية، مثل الصفري في سجلماسة، والمعتزلة وأمثالهم.

ولما اتسعت الدولة المرابطية، وشملت الأندلس، وأخذ علماء الأندلس وطلابه يفدون على البلاد المغربية حتى صارت بلاد الأندلس والمغرب الأقصى دار علم يحج إليها الطلاب والعلماء من جميع الأنحاء.

لقد صورت المصادر الإسلامية عصر المرابطين بصورة زاهية، فقد حفل بالحركة، والحياة، يفيضُ بالعلماء الثقات الدارسين لأنواع الثقافات العربية، التي قدمت للدولة المرابطية المعونة، والمؤازرة، حتى صار علماء المغرب، والأندلس في مستوى علماء المشرق العربي، وقُدم من العلوم والآداب والفنون ؛ الشي الكثير.

فمن مدرسة فاس ومدرسة سبتة وطنجة وأغمات وسجلماسة وتلمسان ومدرسة مراكش العاصمة التي وفد إليها العلماء والطلاب من النواحي المختلفة، وسبتة التي أنجبت عالماً بارزاً من عصر المرابطين؛ وهو القاضي عياض اليحصبي؛ وهو أحد تلامذة العالم النحوي الكبير: الحسن بن علي بن طريف المتوفى سنة ٥٠١هـ"[1] .

هذا الحراك العلمي والاهتمام بالعلوم والعلماء جعل فترة المرابطين فترةً غنية بالثقافة الأصيلة المبنية على العلوم الشرعية والعربية المختلفة، والتي صاغت المجتمع المرابطي ليصبح من أكثر العصور الإسلامية إنتاجاً للعلم والعلماء.

والحقيقة أن المرابطين بعد أن خرجوا من الرباط، وأصبح لهم دولة رأوا "أن رباط حوض السنغال الذي كونه نخبة متوسطة من الدعاة عاجز عن تكوين الإطار الإسلامي العالي فوجب توسيع حركة الرباط الثقافية إلى تأسيس جامعة على أبوب الصحراء – أي في مدينة مراكش – لتقوم مقام الجامعة اليوم بعد الدراسة الثانوية في الرباط، لهذا ظهرت الجامعة اليوسفية سنة ٥١٤هـ على أشهر الأقوال ، فعززت هذه

(١) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص ١١٦ (بتصرف).

الجامعة الجديدة جانب جامعة القرويين الإدريسية بفاس وجامعة سبتة الإدريسية"[1] .

(١) انظر: الربط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، محمد الأمين بلغيث، ص ٢٧٦، رسالة جامعية (جامعة الجزائر) عام ١٤٠٦هـ .

الفصل الثاني

مجالات الثقافة الإسلامية وآثارها في دولة المرابطين

المبحث الأول: مجالات الثقافة الإسلامية.

المبحث الثاني: آثار الثقافة الإسلامية على دولة المرابطين.

المبحث الأول
مجالات الثقافة الإسلامية

مجالات الثقافة الإسلامية، هي النواحي المكونة للدولة ومدى أثر الثقافة الإسلامية فيها وكيف استطاعت الثقافة الإسلامية أن تؤثر فيها لتصبح نموذجاً إسلامياً يُستدل به على عمق الثقافة الإسلامية في بلاد المغرب أثناء دولة المرابطين، وبالنظر إلى أحوال المغرب العربي في تلك الحقبة نجد أن أهم المجالات التي انعكس عليها أثر الثقافة الإسلامية هي :

١. المجال السياسي.

٢. المجال الاجتماعي .

٣. المجال العلمي والأدبي.

١. المجال السياسي:

نشأ المرابطون نشأةً إسلاميةً متمسكةً بالدين في وقت كادت فيه معالم الدين الإسلامي أن تندثر، فانقطعت طلائع المرابطين للعبادة في مكان بعيد عن أنظار المتربصين، وكان الهدف هو تكوين جماعة مؤمنة بالله تعيد للأرض إيمانها بالله " وكذا اجتمعوا في مكان شيدوه، وما هي إلا فترة من الزمن حتى كثرت فيها جموعهم وانضم إليهم العديد من القوم الذين جذبهم إقبال يحيى بن إبراهيم، وأصبحت الجموع تتكاثر من قبيلتي لمتونة وكدالة وغيرهما، وإذا ما كان الإسلام أساساً يعتمد الصلاة وما انطوت عليه من نظام محكم، ومن أمر بالمعروف ونهي عن المنكر، بصفاء النفس وطهارة الجسم وسمو الروح، فإن قيام القوم بخمس صلوات في اليوم، وما يتبعها من تكوين فكري بدل فيهم المفاهيم وغير فيهم السلوك، ثم طبعهم بطابع التنظيم الشبيه بالعسكري في صفوف متراصة، وامتثال للأوامر

بإمعان وانتباه لما يصدر عن الإمام الذي عرف كيف يشد إليه الألف رجل الذين تكامل جمعهم حوله"[1] .

ولهذه التربية على المبادئ الإسلامية العالية الأثر الواضح على التكوين السياسي للدولة فقد نهجت في سياستها على التعامل مع أفرادها من منطلق الإيمان بالله " ناهيك وأن الرئاسة أسندت إلى كبير القوم بلا منازع، والذي هو قيدوم الرباط؛ يحيى بن إبراهيم الكدالي؛ الذي برهن عن حبه وتعلقه بالإسلام بما قدم من تضحية وتجرد، ورغم ما ظهر بين القوم من روح العصبية التي لم تعدمها التربية، ولم تقض عليها في جنبات المعسكر، فإن جاهليتها سرعان ما تلاشت، بل تحولت إلى قوة عندما أخذ القائد يباشر مهمته بروح الأب الذي لم يفرق ولم يميز في حبه بين أبنائه"[2] إلا أن هذا الأمير المبارك لم يعش طويلاً فأدركته المنية في بدايات تكوين الدولة، لكن حُسن التنشئة لأفراد هذه الدولة كان مانعاً – بعد توفيق الله – من أن تتأثر الدولة سلبياً لوفاته "فقد ظهرت اتجاهات متناقضة يوم مات، وجمع ابن ياسين أهل الرباط في مجلس عام لاختيار أمير جديد، ولمواجهة الاختلاف الكامن، واتخذ المجلس بزعامة ابن ياسين قراراً هاماً وهو نقل الإمارة من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة ، واختيار يحيى بن عمر اللمتوني أميراً جديداً ليخلف الأمير المتوفى؛ يحيى بن إبراهيم الكدالي"[3] وهذا التصرف الحكيم من قبل ابن ياسين وموافقة المرابطين عليه، ينبئ عن الروح الإسلامية التي بُنيت عليها سياسة هذه الدولة الفتية.

من جهة أخرى يتضح عدم حرص ابن ياسين على الرياسة، وتبين من موقفه الآنف أنه لم يكن يطمح إليها "فقد جرت عادة الدارسين بالثناء على موقف ابن ياسين من ناحيتين: فهو من ناحية لم يطمع في الرياسة لنفسه، وكان من الممكن أن

(١) التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، عبد الكريم الفيلالي، ص ٣١٧ .

(٢) المرجع السابق.ص٣١٧.

(٣) المرابطون (تاريخهم السياسي)، محمد عبد الهادي شعيرة، ص ٤٧.

يصبح الرئيس الأوحد، ولكنه كبح جماح الطموح، وهو من ناحية أخرى قد أحسن اختيار الرئيس حين اختاره من لمتونة التي هي أقوى قبائل الملثمين والقدوة لها، ويبدو أن ابن ياسين أدرك حقيقة الموقف وهو أن يحيى بن إبراهيم الجدالي لم يصل إلى الملك بقوة قبيلته بل وصل إليه عن طريق لمتونة ومصاهرته لها، فكان من الحكمة الابتعاد عما يشعر بنقل الرياسة عن أصلها خشية الدخول في معركة تنافس على الرياسة، بينما كان الأصلح هو ترك المعارك الجانبية لمواصلة حركة التأسيس الإصلاحي.

ونحن هنا أمام دليل على أن ابن ياسين كان أحرص على تعميق الصبغة الدينية منه على الوصول للرياسة المطلقة، وعلى أنه التزم دوره الديني ولم يفكر قط تجاوزه"[1] وهذا الذي جعل سياسة المرابطين لا تنفك عن التوجه الإسلامي ذو المعتقد الصحيح .

لم يقتصر تأثير الثقافة الإسلامية في سياسة المرابطين على البدايات والتكوين فحسب، بل امتد مع هذه الدولة واستمر حتى نهايتها، فإن كل الأمراء الذين تعاقبوا على إمرة الدولة كانوا أصحاب استقامة ودين ، فبعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، انتقلت الإمارة إلى يحيى بن عمر اللمتوني، ومن بعده إلى أخيه؛ أبي بكر بن عمر اللمتوني ؛ "والذي قطع المرابطون في عهده عدة مراحل حتى استقروا في الشمال المجاور للصحراء، وحتى ظهرت شخصية جديدة على يد أبي بكر بن عمر وهي شخصية يوسف بن تاشفين؛ ابن عمه"[2] .

"استطاعت الثلة المؤمنة هناك أن تصحح المسار وتصلح كل الثغرات، بعد أن بذل عبد الله بن ياسين وإخوانه المرابطون كل ما في وسعهم في هذا السبيل لتوحيد الأمة الإسلامية ورص صفوفها وتطهير معتقداتها ونشر العدل والأمان في ربوعها،

(١) المرجع السابق. ص٤٨.

(٢) المرجع السابق "بتصرف يسير" .ص٤٩.

فارتفعت الراية والتأم الشمل بفضل الجهود والتضحيات التي بذلها المجاهدون الذين كان في مقدمتهم يوسف بن تاشفين؛ الذي قاد المرابطين من نصر إلى نصر، ونظم الجيش ، ونشر الوعي الإسلامي الأصيل، وأعاد المجد المفقود في بلاد المغرب والأندلس"[1] .

يعتبر الأمير يوسف بن تاشفين أقوى أمراء الدولة المرابطية، وعصره من أهم العصور في تاريخ الدولة فهو منذ أن عين أميراً على المغرب فقد وضع نصب عينيه توحيد أقاليمه ولم شعثه في دولة واحدة، ولكنه واجه من الصعوبات في ذلك ما دفعه إلى الإصرار على تحقيق هدفه خاصةً انتشار الدعوات الشاذة عن الإسلام في كثير من المناطق الوعرة، إضافةً إلى ما تملكه هذه الدعوات من القوى والأساطيل، "إلا أن الإيمان إذا تمكن من القلوب فإنه يصنع المستحيل، ويحقق العجائب، وقد كان إيمان المرابطين عميقاً بما فيه الكفاية لمجاهدة كل قوى الكفر والانحلال مجتمعةً ومتفرقةً في كل أنحاء المغرب، وقد تنبه المرابطون لخطورة انتشار المذاهب الهدامة في أرض المغرب فكانوا يرون مجاهدتها حقاً لله تعالى في أعناقهم، فكانوا يغتنمون كل فرصة لاجتثاث هذا الوباء المستعصي، ولما نجم أمير المسلمين في لمتونة أحاطت دولته بالفرق إحاطة القلادة بالعنق، وطفق يتبع آفاق جورهم بالعدل تتبع الديمة آثار المحل، ونظراً لتشعب المهام وتربص الأعداء في أكثر من جهة، رأى أمير المسلمين بثاقب بصره وبنور بصيرته أن أي تهاون أو ضعف سيتيح للأعداء نسج التحالفات وإعداد المقاتلين للوقوف بوجه الدعوة المرابطية، لذلك نهض لمجابهة كل المخاطر المحيطة به في وقت واحد أخذاً بالعزيمة، فقسم جنده بين منقذين لمن يستغيث بهم، وبين مهاجمين لمواطن الشرك والباطنية المنتشرة في أماكن كثيرة من بلاد المغرب"[2]

(١) انتصارات يوسف بن تاشفين، حامد محمد الخليفة، ص ٦٠ .

(٢) المرجع السابق، ص٦١.

عند تتبع أحوال الدولة السياسية في ظل يوسف بن تاشفين يتبين حرصه رحمه الله على إقامة دين الله ومواجهة كل الثقافات التي تتنافى مع ثقافته الإسلامية الصحيحة وقد لخص الدكتور: فتحي زغروت، حركة التغيير السياسي التي قام بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، في النقاط التالية:

"أ – في سنة: ٤٤٨هـ اتجه جيش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين لغزو بلاد "السوس" وتمكن من احتلال "أردوانت" وطهر تلك المدينة من الروافض الخارجين عن الإسلام وأعاد الناس إلى الإسلام الصحيح.

ب- في سنة ٤٤٩هـ افتتح "يوسف بن تاشفين " مدينة "أغمات" وهرب واليها "لقوط بن يوسف بن علي المغراوي" ثم اتخذوا من أغمات قاعدةً عسكريةً لجيوشهم.

ج- ثم سار المرابطون لقتال "برغواطة" وهي قبيلة ملحدة والتي تدين بنبي لهم ادعى النبوة، وهو "صالح بن طريف" الذي استقى تعاليمه من تعاليم اليهودية، وقد تمكن من هزيمة تلك القبيلة وتمزيقها وإعادة الخارجين فيها إلى الإسلام.

د- ثم تمكن بعد ذلك "يوسف بن تاشفين" من فتح بلاد "المغرب الأقصى" سنة: ٤٥٤هـ في مدة تقارب الثلاثين عاماً، استولى فيها على أغلب البلدان التي بأيدي الزناتيين، واستولى على "فاس" ثم على جميع بلاد الريف حتى مدينة "طنجة" سنة ٤٦٠هـ ، ثم مدينة "فاس" سنة ٤٦٢هـ ، ثم جبل "غياثة" ومعظم أحواز "تازة" ، كما سير يوسف بن تاشفين جيشاً سنة ٤٧٠هـ ، وانتصر به على "الحاجب بن سكوت" وتم افتتاح "طنجة" بأكملها.

ثم عاد إلى "مراكش" سنة: ٤٧٥هـ بعد جهاد طويل تمكن به من توحيد "المغرب" والسيطرة عليه"[1]

(١) انظر: الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، د. فتحي زغروت، ص٦٥-٦٦.

إن هذه الرحلة الحافلة بالجهاد والعطاء، كان الهدف الأساس منها نشر العقيدة الصافية التي استقى منها المرابطون منهجهم، وبُنيت عليها ثقافتهم " فلا غرابة إذن أن تكون السياسة والدين صنوين لا يتنازعان في تكوين النموذج لدولة إسلامية كبرى، ولا غرابة أيضاً أن يكون القائد العسكري المسلم فقيهاً وعالماً وأديباً وسياسياً بارعاً إذ كان قدوة لرجاله من ناحية، ونموذجاً إسلامياً رفيعاً أمام عيون البلاد المفتوحة"[1] .

"وهكذا قضى يوسف على كل أثر للفوضى وأصبحت البلاد تسير شؤونها بواسطة القضاة الذين نصبهم يوسف وشد أزرهم بقواد الحرب من المرابطين، فعرفت البلاد الأمن والاستقرار، وفي هذه المرحلة وإذا كان يوسف وقد طعن في الشيخوخة فإنه ولآخر مرة قام بجولته ليستطلع آراء الفقهاء والقضاة والقواد في شأن إسناد ولاية العهد لابنه "علي" المولود سنة: ٤٤٧هـ ، وإذا هو تحقق من الآخرين ما عرف به ولده علي من سمعة طيبة وسلوك حسن، فإن عليه أن ينفذ اقتراح الفقهاء والعلماء والقضاة وما هو واجب شرعاً حتى لا يترك البلاد فوضى إذا هو رحل عن هذه الدنيا، فطلب من كل الذين لا بد من مشاركتهم في البيعة أن يقدموا عليه إلى مراكش، لكتابة البيعة وشروطها، وكان ذلك سنة ٤٩٥هـ"[2] .

إن سياسة نقل السلطة إلى علي بن يوسف كانت تخضع للثقافة الإسلامية التي قامت عليها دولة المرابطين، ولذلك كان حرص ابن تاشفين على أن تكون الإمارة من بعده لمن هو أهل لها "كما يشير مرسوم البيعة إلى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط اشترطها عليه أبوه، ولعل أهمها التمسك بالمبادئ التي دعا إليها الإمام عبد

(١) المرجع نفسه، ص٦٦.

(٢) التاريخ السياسي الكبير للمغرب العربي، عبد الكريم الفيلالي، ص ٣٦٩.(بتصرف يسير)

الله بن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء، والعمل على إقامة العدل بين الرعية"[1] .

استأنف علي بن يوسف بن تاشفين فتوحات والده والأمراء من قبله، وانطلق بكل عزم وثبات على الخطوات المرسومة لهذه الدولة، وعلى الرغم من كل ما كتب من تشويه للحقبة التي حكم فيها علي بن يوسف ، إلا أن الواقع كان عكس ذلك تماماً ، فقد أثبت المحققون أنه كان مجاهداً صابراً شجاعاً[2] .

"ورث علي بن يوسف دولةً مترامية الأطراف، تتمتع بالهدوء والرخاء الاقتصادي، والدليل على ذلك ما وجد في بيت مال المسلمين بعد وفاة والده من أموال طائلة، فكل هذه العوامل شجعته على متابعة خطى أبيه فسار على هديه في جميع أموره، فاقتفى أثر أبيه وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم، وأمن الخائف ، وقمع المظالم، وسد الثغور، ونكاية العدو، فلم يعدم التوفيق في أعماله والتسديد في حسن فعاله، كما تلقب بأمير المسلمين كأبيه.

وبهذه السياسة الحكيمة امتلك ما لم يمتلكه والده، فقد ملك جميع بلاد المغرب من بجاية إلى بلاد السوس الأقصى، وملك جميع بلاد الجنوب من سجلماسة إلى جبل الذهب من بلاد السودان، وملك بلاد الأندلس شرقاً وغرباً، وملك الجزائر الشرقية، وخطب له على ألفي منبر ونيف"[3] .

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د.حمدي عبد المنعم محمد، ص٢٥٠

(٢) انظر: وثائق المرابطين والموحدين، عبد الواحد المراكشي، تحقيق:حسين مؤنس،ص٣٧، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط٢ ١٤٢٧هـ .

(٣) انظر: الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، سلامة محمد الهرفي، ص ٦٧، (رسالة جامعية) جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ.

٢. المجال الاجتماعي :

بدأت حياة المرابطين الاجتماعية من اجتماعهم على كلمة واحدة في رباط عبد الله بن ياسين، والذي استطاع من خلاله تكوين الجماعة المسلمة التي جاءت إليه راغبةً في حياة كريمة يؤمنون فيها بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً إضافةً إلى أنهم يجدون فيه الأمان "فلا بد أن يكون عبد الله قد جعل هذا الرباط حصناً يدفع عن المرابطين خطر أعدائهم، ويتيح لهم لوناً من الحماية يفيئون إلى ظلها، وينصرفون إلى نسكهم وتقشفهم"[١]، " وعبد الله بن ياسين الذي خبر مواطن الضعف في النفس الإنسانية، وثقافته الإسلامية جعلته صاحب نظرية في إصلاح المجتمع، فقد كان داعيةً إلى الله إماماً موهوباً وقائداً حازماً أيقظ الإسلام في رجال لمتونة وحببهم فيه وكشف لهم عن كنز الإيمان في نفوسهم، لقد استطاع أن يجعل من الدعوة الإسلامية تياراً شعبياً في بلاد المغرب؛ هذا التيار الإسلامي جعله من المجددين في المغرب الإسلامي، لهذا جاء على رأس جماعة الرباط بتركيبته الاجتماعية القبلية كأعظم الزعماء الروحيين وجماعة الرباط جعلت القرآن وحي التشريع والسلوك.

هذا المجتمع الصغير الذي تكون في رباط السنغال هو القدوة الحسنة للمجتمع المغربي ، ومن مميزات حركة المرابطين على المجتمع أن سكان المغرب عرفوا ولحقبة طويلة الهدوء والرخاء، ونشر المرابطون الأخلاق الحميدة بين المجتمع"[٢] .

ويصف الأستاذ: إبراهيم حركات الحياة الاجتماعية في ظل المرابطين فيقول: "عرف السكان حقبةً طويلةً من الهدوء والرخاء في عهد المرابطين، وقد وصف الإدريسي الذي لم يكن بعيداً عن عصرهم مدينة مكناس كما شاهدها بنفسه، وكانت في أيام المرابطين تتكون من مجموعة من الأحياء المتقاربة الآهلة ، وتمتاز

(١) قيام دولة المرابطين، د. حسن أحمد محمود، ص١٢٤.

(٢) الربط بالمغرب الإسلامي، محمد الأمين بلغيث، ص٢٥٨، ٢٥٩ (بتصرف) .

بخصوبتها وعيونها الدافقة، وكانت تنتج القمح والعنب والزيتون والفواكه، وغراساتها منتظمة يتصل بعضها ببعض، وكانت تسكنها قبائل من بربر زناتة، وقال ابن غازي عن أحياء مكناس: (كانت هذه المواضع كلها في غاية من الخصب وكثرة المياه والأشجار وكان أهلها مطمئنين في عيش رغد ونعمة تامة، منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين)

ورغم أن المرابطين حافظوا كثيراً على طابعهم الصحراوي إلى نهاية دولتهم، فقد أخذوا من الحضارة قسطاً لا بأس به منذ عهد علي فبنوا بعض الأبنية من المرمر بحدائقها الغناء ونوافيرها البديعة"[1] .

لقد كان المجتمع المغربي في عهد المرابطين يحظى بالاهتمام المتكامل فقد كانت مؤسسات الدولة كلها تخدم المجتمع وتسهم في رعايته والقيام على مصالحه، وهذا الدكتور جمال طه ينقل صورةً من المجتمع المغربي في عهد المرابطين في مدينة فاس فيقول: " أما بخصوص المؤسسات العلمية والدينية في مدينة فاس، فيلاحظ أن نشاطها لم يكن يخلو من أوجه اجتماعية لها دلالتها وأهميتها، فالجوامع والمساجد كانت دائماً مركزاً لنشاط متعدد الألوان، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية في الصلاة وإقامة شعائر الدين، كانت تقام فيها حلقات الدرس، ويلتف داخلها المتعلمون حول الفقهاء والمعلمين، وفيها كان يجلس القضاة وحولهم المتخاصمون للفصل في بينهم، ومن فوق منابرها تذاع أوامر الحكام وتعليماتهم، وعلى أبوابها توزع الزكاة والصدقات، وإليها يتجه الغريب الوافد، مما جعل منها مراكز اجتماعية لها خطرها، وفي هذه المؤسسات كان اليتامى والفقراء والمساكين موضع رعاية من المجتمع الفاسي ، فكان أبناء الفقراء يلقون رعاية من صلحاء وعلماء فاس"[2]

(١) انظر: المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص ٢١٥، ٢١٦.

(٢) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين؛ دراسة سياسية وحضارية، د.جمال أحمد طه، ص١٧٤، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الأسكندرية، ط١.

ينقسم المجتمع المرابطي إلى الفئات التالية:

أ - المجاهدون:

إحدى شرائح طبقة السادة في مجتمع المرابطين، ويتمثل دورها الجديد في نشر الإسلام من خلال الفتوحات التي تمت في كل الاتجاهات، إضافةً على مهمتها التقليدية المتمثلة في القيادة السياسية والعسكرية، ولا يعني هذا أن هؤلاء كانوا مقتصرين في اهتماماتهم على شؤون الحرب والسياسة ، بل تذكر المصادر العديدة تطلعهم مع بداية قيام الدعوة إلى المعرفة، فحملوا السيف في يد والقلم في الأخرى[1] .

لقد أثبت المجاهدون في مجتمع المرابطين أنهم حملة رسالة، وأنهم بالإضافة إلى دورهم الرئيس في حماية الدولة، والجهاد في سبيل الله، فهم طلبة علم ، ودعاة هدى، يؤكد ذلك ما ثبت من اجتماعهم للقتال في سبيل الله على الرغم من اختلاف قبائلهم، "والواقع أن زعامة عبد الله بن ياسين الروحية للملثمين قد عملت على إقصاء الروح القبلية من الاعتبارات السياسية والاجتماعية، فاشتركت عناصر مختلفة من لمتونة ومسوفة وكدالة وغيرها من قبائل الملثمين في توطيد أركان الإسلام، سواءً بالصحراء أو في شمال المغرب، ولكن العناصر المحاربة انضافت إليها جماعات من مختلف القبائل بعد أن تسلم المرابطون زمام الحكم، فكنتَ تشاهد المصمودي والزناتي والعربي واللمتوني والكدالي وغيرهم، يحارب بعضهم إلى جانب بعض، دفاعاً عن قطعة من الأرض اغتصبها عدو، أو حمايةً للدين أو توطيداً لأسباب الأمن والسلم"[2] .

(١) انظر: المجتمع والسلطة عند المرابطين، صالح ولد محمدو، ص٨٦.

(٢) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، إبراهيم حركات، ص١٤٦، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء-المغرب.

ب _ المتعلمون والفقهاء:

المتعلمون في المجتمع المرابطي ركيزة أساسية، ذلك أن الدولة نشأت من رباط علمي في الأصل، فقد "كانت النواة الأولى لهذه الفئة قد تشكلت في رباط ابن ياسين حيث أخذ العلم والوعظ الدور الأهم في بناء وتكوين الرعيل الأول من المرابطين"(١) .

"منذ بداية دولة المرابطين ظهر للعلماء نفوذ في مجريات الأمور حيث تحالف الفقهاء المالكية مع المرابطين منذ قيام دولتهم، ذلك فضلاً عن الاحترام والتقدير من جانب أمراء المرابطين، فيوسف بن تاشفين كان مؤثراً لأهل العلم والدين، كثير المشورة لهم، مصرفاً الأمور إليهم، آخذاً فيها برأيهم، قاضياً على نفسه بفتواهم، محباً ومقرباً ومكرماً لهم، مجرياً عليهم الأرزاق من بيت المال على طول أيامه، واتبع الأمير علي بن يوسف نفس هذه السياسة"(٢).

إن وجود الفقهاء وأهل العلم في دولة المرابطين كان وجوداً بارزاً له أثره العميق في الدولة، فالفقهاء كانوا شركاء في إدارة الدولة، وهم في الوقت نفسه جزء من المجتمع المرابطي ، وقد وصف الدكتور حسن محمود أثر الفقهاء في الدولة قائلاً: "وقد تمخض قيام الدولة أيضاً عن ظهور طبقة جديدة أصبحت ذات حول وطول ونفوذ، ونعني بها طبقة الفقهاء والقضاة ورجال الدين، وليس من شك في أن الفقهاء والقضاة موجودون في كل عصر، وفي كل زمان، ولكنهم في عهد حكومة المرابطين ظفروا بنفوذ وسلطان لم يكن لهم من قبل، وقد رأينا كيف احترم أمراء المسلمين القضاة والفقهاء، وأنزلوهم من نفوسهم منزلةً رفيعةً؛ أشركوهم في مجالس الشورى، واتخذوا بعضهم وزراء، وشاوروهم في كل صغيرة وكبيرة من شؤون البلاد، قربوهم وأغدقوا عليهم، ولم يكن يوسف بن تاشفين أو ولده يجلسان

(١) المجتمع والسلطة عند المرابطين، صالح ولد محمدو، ص٨٦، ٨٧.

(٢) الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى، د. جمال طه ، ص٩٩.

إلا والفقهاء والقضاة يحفون بهم، ويسيرون في ركابهم. وقد سما قدر القضاة وتمتعوا بسلطان عظيم ، حين أعطاهم يوسف بن تاشفين سلطةً مطلقةً، وأصبح حكم القاضي نافذاً لا يرد، وإذا كان ولي الأمر قد عامل القضاة على هذا النحو، فلا عجب إن رأيناهم يتمتعون في الحياة الاجتماعية في المغرب والأندلس بمكان مرموق"[1].

لقد كان الفقهاء والمتعلمون في الدولة المرابطية جزءاً مهماً من تركيبتها الاجتماعية "وقد رأينا ما قام به الفقهاء على المستوى السياسي والعقدي، بالإضافة إلى إسهامهم في تأسيس الدولة، وهكذا يجب أن نفهم أن تلك المكانة التي كان يتمتع بها الفقهاء لم تكن تكرماً من يوسف أو علي ، بل كانت نتيجةً طبيعيةً لطبيعة العلاقات التي ربطت بين الطرفين منذ أول لقاء تم بينهما، أي منذ لقاء أبي عمران بيحيى الكدالي بالقيروان، فالدولة المرابطية قامت على ازدواجيةٍ أحد طرفيها الفقهاء، والطرف الآخر القبائل الصحراوية، وهي ازدواجية تجلت في علاقة عبد الله بن ياسين بيحيى بن إبراهيم الكدالي، ثم سار عليها فيما بعد أمراء المرابطين وفقهاؤهم"[2].

إن مما يميز عهد الدولة المرابطية هو أن الفقهاء والمتعلمون جزء من المجتمع مما جعل لوجودهم بين الناس قوةً للدولة، "بل كان قاعدةً ثابتةً، لهذا نجد علماء المرابطين يحسون بعد وفاة الإمام عبد الله بن ياسين أن ما رسخه في الأذهان من مبادئ قد يندثر وينسى بعد وفاة الجيل الأول من أهل الدولة، ونتيجة لذلك فقد ألّفوا في سياسة الحكم ليسير عليها الكبير وينشأ عليها الصغير"[3].

---

(١) قيام دولة المرابطين، د. حسن أحمد محمود، ص ٣٦١، ٣٦٢. (بتصرف يسير).

(٢) القاضي عياض الأديب، عبد السلام شقور، ص٢٤، دار الفكر المغربي، ط١ سنة ١٩٨٣.

(٣) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، محمد محمود عبدالله بن بية، دار ابن حزم، الرياض، طبعة ٢٠٠٠م.

ج _ عامة الناس:

عامة الناس هم بقية المجتمع المرابطي ، وهم –بلا شك– دعامة أساسية من دعامات الدولة، فهم يشكلون السواد الأعظم، ولكون الدولة قامت على التوحيد والعقيدة وسلامة المنهج، فإن عامة الشعب المرابطي كان متديناً ، محباً للخير مقبلاً عليه.

"في الحقيقة كان للعوام دور طلائعي في بناء مجتمع المغرب الأقصى منذ بدايات الدولة المرابطية، ولا غرو فإن بناء "مراكش" ذاتها لم يكن ليتم لولا تضافر طاقاتهم العضلية، وكدهم الدءوب، حتى اعتبرت مساهمة الأمير المرابطي: يوسف بن تاشفين، في العمل في الطين مع الخدمة والبنائين حسنة من حسناته التي سجلها بفخر واعتزاز.

وعلى أكتاف طبقة العامة امتدت الدولة المرابطية ليتفيأ بظلالها المغرب والأندلس حيث كانت الحملات التوحيدية والجهادية تنطلق من مراكش وغيرها من مدن المغرب التي وجدت بها أعداد هائلة من الجنود المتطوعة"[1].

إن هؤلاء العامة لم يكونوا مجرد شعوب تعيش لنفسها، بل كانوا يسهمون بجهدهم وعطائهم للنهوض بدولتهم، لذلك تعتبر التجارة من أهم ما كان يعمل فيه العامة، حيث كانت التجارة من أهم المهن التي مارسها العامة في المدن المغربية "فقد زخرت مدينة فاس بالمشتغلين بها سواء منهم تجار الجملة أم تجار التجزئة الذين يبيعون بضائعهم في متاجرهم، أو عن طريق التجول لسد حاجة السكان، وكوّن هؤلاء الأفراد طبقةً اجتماعيةً كانت همزة الوصل بين الإنتاج والاستهلاك، فعن طريقهم يتم البيع والشراء، ويجد السكان حاجاتهم عندهم، ويضاف إلى هؤلاء

(١) الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى، د. جمال طه ، ص١٠٦، ١٠٧ "(بتصرف) .

التجار باعة الطعام والجزارين وباعة الدقيق؛ الذين يبيعون ما يحتاجه الناس من اللحوم والقمح وغير ذلك"[1].

(١) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، د.جمال أحمد طه، ص١٦٤ (بتصرف يسير).

٣. المجال العلمي والأدبي:

ارتبط اسم المغرب الأقصى بالعلم والأدب، وزخرت المكتبات العربية والإسلامية بالعديد من الكتب التي ألفها علماء من بلاد المغرب، وعصر المرابطين كان عصراً زاخراً بالعلوم، وليس هذا بمستغرب فالدولة المرابطية قامت على التعليم ابتداءً ، فمهمة عبد الله بن ياسين الأولى كانت هي التعليم، وعلى هذا سارت الدولة، فقد شهد عصر المرابطين اهتماماً بالعلم والتعليم، ونشر المدارس، والكتاتيب، "وقد أدى هذا التشجيع للحركة العلمية أن توفرت البلاد على عدد كبير من المدارس، وتقدمت حركة التأليف والتدريس تقدماً مدهشاً رفع المغاربة إلى مصاف رجال الفكر في العالم الإسلامي، وأبانوا عن ذكائهم وتفننهم في سائر الفنون والمعاريف من فلسفة وطب وعلوم لسانية ودينية، كما شجعوا الدراسة في بلادهم"[١].

" نشأ التعليم في البلاد المغربية معتمداً على الكتاتيب لتعليم الأطفال منذ القرن الأول الهجري باعتبار أن التعليم شعار من شعائر الإسلام، سار عليه المسلمون في أنحاء العالم الإسلامي، مما ساعد على تثبيت العقيدة في القلوب، وأول الخطوات في طريق التعليم هو القرآن. وأخذت بلاد المغرب الأقصى بمذهب الاقتصار على تعليم القرآن مع القراءة والكتابة حتى البلوغ، وبلغت الكتاتيب بفاس مائتي كتّاب، ويُستعان بألواح خشبية للكتّاب، ويستغرق حفظ القرآن نحو سبع سنوات، ويقدم الأب للمعلم هدية خلال فترة تعليم الابن، وفي ختام المرحلة تُقام وليمة من الأب لكل زملاء ابنه في الكتّاب، ويقدم كسوة جديدة لمعلمه"[٢].

---

(١) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص١٧٦، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط٢ ١٤٠٦هـ.

(٢) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص١١٥.

إن اهتمام المرابطين بتعليم القرآن ابتداءً ليدل دلالةً أكيدة على اهتمامهم بالتنشئة الصحيحة السليمة، التي تنتج جيلاً صالحاً يدعو إلى مبادئ الدين السليم، ويسهم في نشر الثقافة الإسلامية الأصيلة، وقد توسع التعليم في عهد المرابطين وانتشرت مدارس العلم حتى "ضاقت رحاب القرويين بمن يؤمها من الطلاب ورجال العلم"[1]، وقد "شهدت مدينة فاس منذ قيام دولة المرابطين وفي عصر الموحدين نهضةً علمية نظراً لما تضمنته تلك الفترة من القيام بدعوتين دينيتين[2] وما صحبهما من صراع فكري واتجاهات دينية، ولم يتجه التعليم في هذين العصرين وجهة دينية فحسب، بل ازدهرت الحياة العلمية في شتى الميادين"[3] وهذا الازدهار للحركة العلمية يعكس مدى اهتمام حكام المرابطين بهذا الأمر، إذ جعلوه من أولى اهتماماتهم "ومن المعروف أن يوسف بن تاشفين المرابطي أسس بفاس مدرسة (الصابرين) في أوائل القرن الخامس الذي شهد انتصارات يوسف بن تاشفين المرابطي. ومن أبرز مدارس المغرب في عهد المرابطين، كلية القرويين بفاس، ومدارس سبتة، ومدارس أخرى كانت بطنجة وأغمات وسجلماسة وتلمسان ومراكش، وكانت هذه المدارس تأوي علم القيروان، وثقافة الأندلس المشهورة، حيث نبغ فيها أعلام كبار"[4].

لقد حرص المرابطون في دولتهم على تنشئة أطفالهم على العقيدة الصافية منذ الصغر، وجعلوا هذا الأمر ركيزة التعليم عندهم، واستمر المرابطون في دعم العلم والتعليم، واهتم أمراء المرابطين بذلك، وهذا عبد السلام شقور يصور لنا هذا الاهتمام فيقول: "وإلى جانب الاستقرار السياسي، وما كان له من أثر في تنشيط الحركة الثقافية، والاتصال بما جد في المشرق، أقول إلى جانب هذا كله، فإن هناك

(١) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص١٧٥.

(٢) المراد بهما: دعوة الإمام عبد الله بن ياسين؛ مؤسس الدولة المرابطية، ودعوة ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين.

(٣) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، د. جمال أحمد طه، ص٢٦٧.

(٤) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص١٧٧ (بتصرف).

عاملاً آخر، كان له أثره الكبير في ازدهار الحياة الثقافية في ظل المرابطين، أعني به تشجيع المرابطين بكل طبقاتهم؛ أمراء وفقهاء، لطلاب العلم والعلماء، وهذا أمر طبيعي فالدولة المرابطية انطلقت –كما هو معلوم– من رباط؛ وهو مكان للتربية والتعليم بكل ما تعنيه كلمة (التربية) ولذلك عمل المرابطون على تشجيع الأدباء ورعاية العلماء، وقد حرص أمراء المرابطين أنفسهم على الحصول على الإجازات العلمية "[1] ، "ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"[2] .

وتعكس الكتابات التاريخية والوثائق المرابطية مدى اهتمام المرابطين بالعلم والكتابة، فهذا علي بن يوسف بن تاشفين أثناء ولايته كان مهتماً غاية الاهتمام بالعلم والكتابة، قال عنه صاحب المعجب: "ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته إلى ذلك، حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك"[3] ، "وتعدى الأمر إلى اشتغال أمير المسلمين علي بن يوسف، بالعلم حتى غدا عالماً مشهوراً بصدق روايته"[4] ، "وكان كل أمير أو قائد يقلد أمير المسلمين في تشجيعه للعلم والعلماء، اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء، وقربوا الفقهاء والعلماء والفلاسفة، وأغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة، وعملوا على استقدام جلة العلماء من أهل الأندلس"[5] ، ويضيف الدكتور حسن محمود نقلاً عن ابن خلدون: "وقد صور ابن خلدون ذلك كله أصدق تصوير حين قال: وأما

(١) القاضي عياض الأديب، عبد السلام شقور، ص ٤٠، ٤١ (بتصرف) .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص ٢٢٧، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٣٨٣هـ .

(٣) انظر: المرجع السابق، الصفحة نفسها.

(٤) الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري، سلامة محمد الهرفي، ص٣٤٩.

(٥) قيام دولة المرابطين، د. حسن أحمد محمود، ص٣٧٤.

إقامتهم لمراسم الشريعة وأخذهم بأحكام الملة ونصرهم لدين الله فقد نقل عنهم من اتخاذ المعلمين كتاب الله لصبيانهم والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتناء الأئمة للصلوات في بواديهم ، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم، وصاغيتهم إلى أهل الخير والدين من أهل مصرهم، وما يدل على رسوخ إيمانهم، وصحة معتقداتهم، ومتين ديانتهم التي كانت ملاكاً لعزهم ومقاماً إلى سلطانهم وملكهم"[1].

لقد كان للعلماء والفقهاء في دولة المرابطين الأثر البالغ في نشر العلم الشرعي، وتعليم الناس أمور دينهم، ومحاربة البدع بأشكالها، "وكان للمرابطين الفضل في المزج بين ثقافة وحضارة الأندلس، مع ثقافة المغرب والسودان، وأياديهم البيضاء وجهادهم في نشر الإسلام والثقافة العربية جنوب الصحراء لا ينكره إلا جاحد لا يقر الحقيقة. وبرغم النقد الشديد الذي وجه لأمراء المرابطين بسبب ما أتاحوه للفقهاء من سلطة وسلطان، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم في غيرها من الدول، ويرجع للغالبية من هؤلاء الفقهاء الفضل في نشر العلوم الدينية في مجتمع لم يكن يجيد العربية، وحفل عصر المرابطين بأسماء عديدة لامعة في الفقه والتفسير والأصول وعلم الكلام والفلسفة والطب والهندسة والتاريخ والجغرافيا، وعصرهم هو العصر الذهبي للنثر الفني وكتابة الرسائل والشعر، وفن الزجل والموشحات"[2].

لقد بلغ اهتمام المرابطين بالعلم والكتابة مبلغاً عظيماً، وعظم شان الكتابة في عصرهم، وفي هذا ينقل الدكتور محمد البركة في مقدمة كتابه:"الدولة المرابطية" ما نصه: "إن البحث في نظام الكتابة المرابطي هو بحث في الدوافع السياسية

(١) المرجع السابق، ص٣٧٤.

(٢) انظر: أضواء جديدة على المرابطين، دكتورة: عصمت دندش، ص ٣٤-٣٥، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١ ، ١٩٩١.

والعسكرية التي دعت الدولة اللمتونية إلى إحداث مثل هذا النظام دعماً للمشروع وتثبيتاً للمبادئ، ناهيك عن الدوافع العلمية والثقافية والدينية التي كانت قبل وأثناء المرابطين. وهو بحث في أحد المظاهر التي جسدت حسن تقدير المرابطين واستشعارهم لأهمية الكتابة، حيث اعتبروها أسمى المهن مكانةً وأرفع الصنائع رتبةً، وهذا من شانه أن يدحض أي نعت بجفاء وخشونة الأمراء المرابطين اتجاه الأدب والأدباء، إذ أن تعيينهم للعديد من أصحاب القلم في وظيفة الكاتب دليل على تقديرهم للقلم؛ الذي علموا أنه يهز العروش ويهزم الجيوش، ويثبت الدول، وينصر الكتائب، ويرفع الشأن ويخفضه.

إن نشأة نظام الكتابة والاهتمام به سواءً تطوراً وتنظيماً أم رجالاً وآثاراً، هو استجابة طبيعية لحاجة ملحة فرضتها تطورات عرفتها الدولة والمجتمع المرابطيين، كانت خلالهما الرسائل الأداة الفاعلة لتحقيق التواصل المطلوب، تطورات فرضتها طبيعة الأحداث والوقائع السياسية والعسكرية بين الدولة والقوى الداخلية والخارجية، مما أسهم في إبراز دور هذا النظام من جهة، والتأكيد على أهمية المرابطين في تاريخ الحضارة المغربية الإسلامية من جهة ثانية"[1].

ومما نشط في هذا المجال أيضاً؛ فن التأليف، فقد ألفت كتبٌ كثيرة في عصر المرابطين، وتشمل كتب الحديث والتفسير والدراسات القرآنية كالتجويد ومعرفة الناسخ والمنسوخ، أما كتب الفقه فكثيرة، إضافةً إلى علوم اللغة والأدب والتي زخرت بها المكتبة المرابطية[2].

"ولتتم الصورة العامة للحياة الثقافية عند المرابطين، لابد من الوقوف عند الجانب الأدبي خاصة، والأدب مظهر من مظاهر الحياة الفكرية، فإن ما هو أساسي

(١) الدولة المرابطية(ملامح نظام الكتابة الديوانية)، د.محمد البركة، ص١٢- ١٣، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١ ٢٠٠٨، "بتصرف".

(٢) انظر: القاضي عياض الأديب، عبد السلام شقور، ص٤٢ وما بعدها.

في الحضارات يثبت في الأدب، وذلك على أساس أن في كل حضارة ثوابت ومتغيرات"[1].

"إذا كان الأمراء المرابطون قد شجعوا الأدب في الأندلس بإقامة الندوات والمجالس وإعطاء المنح والهبات للشعراء بسخاء، فإن ابن تاشفين وابنه علي لم يهملا أمره في المغرب"[2]، وعند الوقوف على ما قدمه المرابطون للأدب فإنه يظهر ما يلي:

أ) إنشاء المراكز الثقافية في مختلف أنحاء البلاد بمراكش، وفاس وسبتة وطنجة وأمليلة والنكور وتلمسان، وملحقاتها كمدرسة الصابرين بفاس لسكنى الطلبة"[3]

ومدرسة الصابرين بناها يوسف بن تاشفين بعد دخوله فاس حوالي سنة ٤٦٢هـ "وقد ظلت المدرسة المذكورة تقوم بمهمتها في إيواء طلبة العلم وتثقيفهم طيلة أيام المرابطين، كما أن الوصايا الوقفية القديمة تدل دلالةً واضحةً على أن هذه المدرسة كانت ملاذاً للواردين عليها من سائر الجهات لتلقي العلم بها على نفقة الأحباس "[4].

ب) إرسال بعثات علمية طلابية إلى الأندلس لاستكمال الدراسة بها[5]، ويظهر أثر هذا واضحاً في قصائد بعض الشعراء المغاربة وتأثرهم بالبيئة الأندلسية.

"إن الشعر الأندلسي لم يمت في عصر المرابطين، وكل ما حدث أنه كيّف نفسه بما يلائم الظروف الجديدة التي أحاطت به، بيد أنه من الإنصاف أن نقرر أن خلفاء

(١) المرجع السابق، ص٤٥.

(٢) الدولة المرابطية؛ قضايا وظواهر أدبية، د.حسن جلاب، ص١٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٦.

(٤) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين؛ دراسة سياسية وحضارية، د. جمال أحمد طه، ص٢٧٦.

(٥) انظر: الدولة المرابطية؛ قضايا وظواهر أدبية، د.حسن جلاب.ص١٢٧.

يوسف بن تاشفين لم يلبثوا أن استسلموا لسلطان الثقافة الأندلسية القاهرة، وأصبحوا أقرب إلى الأندلسية منهم إلى الأفارقة"[١].

ج) استقدمت الدولة المرابطية الكتاب والأدباء من الأندلس، لنشر الثقافة الأدبية والكتابة ، "وكان يوسف بن تاشفين يفتح الباب لكتاب الأندلس وشعرائه لمن يبدي رغبة في العمل في كتابة الدولة، دون أن يتخذ لنفسه مجلساً رسمياً للشعر"[٢] مما يؤكد أن اهتمام الدولة بالشعر كان موجوداً، لكن لم يكن بالإفراط الموجود في بعض الأمصار، كدول الطوائف وغيرها. "ولم تكن عناية علي بن يوسف بالأدب أقل من عناية والده، فقد سار على نهجه في استكتاب أدباء الأندلس"[٣] "وقد ازدحم بلاط أمير المسلمين علي بن يوسف بنخبة من أعظم شعراء الأندلس نذكر منهم الشاعر الكبير أبا العباس؛ أحمد بن عبد الله القيسي؛ المعروف بالأعمى التطيلي"[٤] .

إن الأدب والشعر في عهد هذه الدولة الإسلامية لم يكن بضاعتها الأولى ، ولم تولِهِ الدولة اهتماماً كبيراً، ولذلك فإن تأثير الثقافة الإسلامية على الأدب المرابطي كان واضحاً في الأغراض التي تناولها الشعراء آنذاك، "فجدية الدولة وميولها الديني الزهدي جعل الشعراء يقلعون عن تناول أشعار المجون والتهتك فغلب لذلك شعر المدح عليهم، اللهم ما كان من مقطوعات قليلة لابن بياع والقاضي عياض في وصف الطبيعة، وهذا مظهر من مظاهر تأثر الشاعرين بشعر الطبيعة بالأندلس التي قضيا فيها ردحاً غير قصير من حياتهما"[٥] ، وفي الحقيقة إن وصف الطبيعة لم يكن

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د.حمدي عبد المنعم محمد، ص٣٨٣.

(٢) الدولة المرابطية؛ قضايا وظواهر أدبية، د.حسن جلاب، ص١٢٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٤) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د.حمدي عبد المنعم محمد، ص٣٨٣.

(٥) الدولة المرابطية؛ قضايا وظواهر أدبية، د.حسن جلاب، ص١٣٠.

يتعارض مع ثقافة الدولة الإسلامية، بل كان دافعاً إلى التفكر في عظيم صنع الله تعالى .

"ويأتي شعر الطبيعة في الدرجة الثانية من حيث الأهمية، وقد برز فيه قاضي طنجة؛ أبو الحسن بن بياع بقصيدته المشهورة:

أبدت لنا الأيام زهرة طيبها وتسربلت بنظيرها وقشيبها

واهتز عِطف الأرض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها

وتطلعت في عنفوان شبابها من بعد ما بلغت عتي مشيبها "[1]

إن اهتمام المرابطين بالأدب لم يكن ليجعلهم كملوك الطوائف من اتخاذ شعراء رسميين، بل كان الأدب والشعر يجري به من كان مجيداً قادراً ، "وقد نتج عن هذا تركيز الشعراء جميعاً على جهاد المرابطين في سبيل نصرة الإسلام وحمايتهم للمسلمين بالأندلس، فشبهوا عملهم هذا بعمل السلف الصالح في عهد الفتوحات الإسلامية، قال أبو الحسن بن الجد في يوسف:

انظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك في الله من جنده التأييد والظفر

يرعى الرعايا بطرف ساهر يقظ كما رعاها بطرف ساهر عمرُ"[2]

" أما فيما يتعلق بالنثر، فقد كان مرتبطاً بالشعر ارتباطاً وثيقاً، إذ كان الشعراء يجيدون الكتابة نثراً كما كانوا يجيدون النظم شعراً، ويتمثل النثر في الرسائل الديوانية، وفي الرسائل الإخوانية، وفي الرسائل العلمية ذات الصبغة الأدبية، ويتميز هذا النوع من الكتابة بالإسراف في استخدام المحسنات البديعية كالسجع والجناس "[3].

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٣٠.

(٢) انظر: المرجع نفسه.ص١٣١.

(٣) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د.حمدي عبد المنعم محمد، ص٣٨٩.

ومن أمثلة ما كُتب نثراً تلك الرسالة البديعة التي كتبها ابن عبدون، على إثر فتح مدينة شنترين[1]، ووجهها إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، ويتضح من خلال قراءتها مدى أثر الثقافة الإسلامية على مضمون الكتابة في هذا العهد المبارك، وهذا بعض ما جاء فيها:

"أدام الله أمر أمير المسلمين، وناصر الدين؛ أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين ، خافقة بنصرة الدين أعلامه، نافذة في السبعة الأقاليم أقلامه، من داخل مدينة شنترين ، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك، ويمن نقيبتك على المسلمين، والحمد لله رب العالمين، حمداً يستغرق الألفاظ الشارحة معناه، ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه، لا يرد وجهه نكوص، ولا يحد كنهه تخصيص ، ولا يحرزه بقبض ولا ببسط مثال ولا تخمين، ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين، ولا يسعه أمد يحويه، ولا يقطعه أبد يستوفيه ، ولا يجمعه عدد يحصيه، إذا سبقت هواديه، لحقت تواليه، وعلى محمد عبده وأمين وحيه، الصادع بأمره ونهيه؛ نظام الأمة، وإمام الأئمة، سر آدم من بنيه، وفخر العالم ومن فيه، صلاةً تامةً نقضيها، وتحيةً عامة نؤديها، ترفضُّ ارفضاض الزهر من كمامه، وتنفض انفضاض المسك من ختامه، فقد صدع بتوحيده، وجمع على وعده ووعيده، وأوضح الحق وجلاه، ونصح الخلق وهداه، إلا من حقت عليه كلمة العذاب، وسبقت له الشقوة في أم الكتاب، وأظهر العزيز عزت اسماؤه، وجلت كبرياؤه دينه على جميع الأديان، على رغم من الصلبان، ووقم من الأوثان، وأنجز لنا تعالى وعده، ونصرنا معه ﷺ وبعده، وجمع في هذه الجزيرة شمل الإسلام بعد انصرامه وانبتاته، وقطع غيل الإشراك بعد انتصابه وثباته..

(١) مدينة بالأندلس في الشمال الشرقي من أشبونة، على الشاطئ الأيمن من نهر تاجة. انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص٢٢٨.

إلى أن قال: ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع، المنيفة المناصب على القاع، قد استشرى داؤها، وأعيا دواؤها، استخرنا الله تعالى ععلى صمدها، وضرعنا إليه في تسهيل قصدها، وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا، وإن كانت في صيانة ديانته مبذولة، وعلى المكروه والمحبوب في ذاته محمولة، فقدنا إليها ، وهجمنا هجوم الردى عليها، في وقت انسدت فيه أبواب السبل، وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل، والدهر قد كشر عن أنيابه العصل ، وقام من الوحول والسيول على أثبت رجل، فنزلنا بساحة القوم، فساء صباحهم ذلك اليوم"[1] .

هذا النص يبين مدى أثر الثقافة الإسلامية على كتابات أدباء الدولة المرابطية، وكيف هو أثر اعتمادهم على الله تعالى، وتبجيله، وتوكيل الأمور إليه، مع الاعتراف بفضله سبحانه وتعالى ، وهذا يدل دلالةً أكيدة على أن هذه الدولة المجيدة استطاعت تطويع الأدب وفق ثقافتها الإسلامية، فكانت رسائلهم تحمل هذه الروح العالية .

(١) انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص٢٣٠،٢٢٩ (بتصرف) .

المبحث الثاني
آثار الثقافة الإسلامية على دولة المرابطين

"إن قيام هذه الدولة يختلف عن قيام دول البربر التي سبقتها، فقد قامت دولة الأدارسة مثلاً على أساس البيعة لعلوي فرّ بنفسه، وآوى إلى المغرب معتصماً به من بطش العباسيين وانتقامهم، وقامت دولة بني زيري بعد أن حالفت صنهاجة كتامة، وآزرت الدعوة الإسماعيلية بالمغرب، وظلت تدين للفاطميين بالتبعية والولاء دهراً طويلاً، أما دولة المرابطين فقد قامت على أسس مختلفة كل الاختلاف، فقد قامت على أساس نشر مذهب مالك في صحراء المغرب، ومحاولة بعث القوى الإسلامية والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى عهد السلف الصالح، ورسمت لنفسها طريق الإصلاح واضحاً جلياً، واعتمدت في سبيل التمكين لنفسها على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأعلنت على البدع والمنكرات التي شاعت في البلاد في أواخر القرن الخامس الهجري حرباً لا رحمة فيها ولا هوادة، حطمت دنان الخمر، وكسرت آلات الطرب، وفرضت صلاة الجماعة على الناس فرضاً، وعممت الزكاة، واقتصرت في فرض الضرائب على ما أوجبه الشرع، فلقيت ترحيباً أينما حلت، وكانت المدن تفتح أبوابها لهؤلاء القوم المخلصين في جهادهم وفي إصلاحهم"[1].

يقول الدكتور: إبراهيم حركات: "لا أظن أن نظاماً سياسياً يقوم على أساس ديني قوي، يماثل نظام المرابطين، فإذا كان الفاطميون والأدارسة وغيرهم من الدول الشيعية والعلوية قد أقاموا دولهم على أساس أنهم أحق الناس بالملك لمجرد كونهم من سلالة النبي ﷺ، وإذا كان السلاجقة والطولونيون والإخشيديون وآخرون، قد أقاموا دولتهم على أساس الغصب والدواعي السياسية، فإن الأثر الديني في تكوين دولة المرابطين كان أقوى من أي أثر آخر، وأكثر من ذلك، فقد كان هذا الأثر

(١) قيام دولة المرابطين، د. حسن أحمد محمود، ص٢٨٥.

بالغاً في صبغة الجهاز السياسي نفسه، فالملك مجاهد أو عابد، والمجلس الاستشاري يكونه مجموعة من الشخصيات أهمهم الفقهاء، والكاتب لا يستطيع أن يستغل أدبه في المجون والفحش مادام في خدمة الدولة"[1].

من هذا يتبين أن هذه الدولة عندما ألقت بثقافتها على بلاد المغرب العربي كان الأثر بالغاً في الحياة العامة للناس، ويمكن تلخيص آثار الثقافة المرابطية على المغرب العربي في النقاط التالية:

١. وحدة المنهج:

لملم المرابطون أطراف الأقاليم المتفرقة في المغرب العرب تحت راية واحدة ، " ذلك أن الدولة الجديدة استطاعت لأول مرة أن توحد في المغرب الأقصى بين المنطقتين؛ الساحلية التي تسود فيها المؤثرات الحضارية الأندلسية، والتي ينزل بها قوم يشتغلون بالزراعة، وبين المنطقة الأخرى الهضبية والجبلية التي كانت في الواقع بربرية لحماً ودماً لم تنفذ إليها المؤثرات الثقافية الأجنبية، ويحيى أهلها حياة النقلة والترحال. كان يحدث أن تبسط الدول التي قامت بإفريقية سلطانها حتى ساحل المحيط الأطلسي، ولكنها كانت تتوغل في المنطقة الساحلية، أما المناطق الداخلية فقد بقيت في معزل عما كان يجري من الحوادث، حتى قامت دولة المرابطين فأخرجتها من عزلتها ، ووصلت تاريخها بتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس، وقد وحدت الدولة لأول مرة بين إقليم السودان والمغرب الأقصى، فقد كانت الأقاليم السودانية تكاد تعيش بمعزل عن حوادث المغرب، حتى أخرجها المرابطون من هذه العزلة، ومكنوا للثقافة الإسلامية من أن تتسرب إليها، وتنتشر بين ربوعها"[2].

إن تاريخ المرابطين يثبت أن وحدة المنهج، وجمع الناس تحت راية واحدة كان سمةً بارزة لهذا العهد الإسلامي فقد "قام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب

(١) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، إبراهيم حركات، ص ١١٤.

(٢) المرجع نفسه. ص١١٨.

الأقصى تحت راية الخلافة الإسلامية واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب المشروعة سواءً بإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من استعصى عن الإجابة، وكان يسعى سعياً حثيثاً للقضاء على الشرور في بلاده، ويعمل على إغلاقها أولاً بأول"[1]، وهذا المنهج هو الذي تربت عليه دولة المرابطين، فإن منهج توحيد الناس تحت راية واحدة، وإعادة الناس إلى حضيرة الإسلام هو الهدف الأساس من دعوة عبد الله بن ياسين، وهو ما ربى عليه أصحابه المرابطين، "وبهذا يكون يوسف بن تاشفين قد حول حلم عبد الله بن ياسين إلى حقيقة، فتحررت قبائل صنهاجة، وبلاد المغرب من البدع والخرافات، وأخذوا ينهلون من منهل الإسلام الصافي تحت راية دولة تمتد حدودها من تونس شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن البحر الأبيض المتوسط شمالاً، حتى حدود السودان جنوباً، تنتشر في ربوعها الطمانينة والسكينة بفضل السياسة الحكيمة التي انتهجها يوسف بن تاشفين"[2].

(١) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد ،ص ١٤٦.

(٢) الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف ، سلامة محمد الهرفي، ص٥٩.

٢. تجريد مفهوم الجهاد في سبيل الله .

لا شك أن الدولة الإسلامية التي تريد تحقيق التوحيد في الأرض، وتسعى لنشر دين الله وإحياء ما اندرس من معالم الدين، لا بد لها من المواجهة والنضال من أجل تحقيق أهدافها، ولهذا فإن الله شرع لعباده الجهاد في سبيله وذلك لإقامة الدين، فقد قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾[سورة البقرة:آية ١٩٣] ، ومن هذا المنطلق كان جهاد المرابطين، "فلم يكوِّن المرابطون دولة ملك وسلطان واستمتاع وتدهور سياسي واقتصادي واجتماعي كما هو الحال مع الدول التي تقوم عليها الثورات، بل كانت دولة جهاد وإصلاح وتقويم وإنقاذ"(١).

لقد كانت تربية ابن ياسين للمرابطين على الجهاد في سبيل الله واضحةً جلية، فقد غرس فيهم مفهوم الجهاد الصحيح الذي يهدف إلى غرس العقيدة الصحيحة، وكان التوجيه الذي أعلنه واضحاً وهو: دعوة القبائل القريبة النسب إلى الانضواء في ظل دعوة الحق، فقال: " قد أصلحكم الله وهداكم إلى صراط مستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده. اخرجوا على بركة الله تعالى، وأنذروا قومكم، فإن تابوا وأنابوا ورجعوا إلى الحق فخلوا سبيلهم، وإن تمادوا في غيهم استعنا بالله وجاهدناهم"(٢) ، فهذا هو المنهج الذي تربت عليه الدولة في جهادها، وقد كان يوسف بن تاشفين يخاطب من يغير عليهم ويبين لهم مراده من قتالهم، حتى في مواجهته مع النصارى في معركة الزلاقة المشهورة "وقبل المواجهة أرسل يوسف إلى ألفونسو يخيره في واحدة من ثلاث حسبما تقتضيه الشريعة: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب"(٣).

---

(١) أضواء جديدة على المرابطين، دكتورة: عصمت دندش، ص ٣٣ .

(٢) المرابطون (تاريخهم السياسي)، محمد عبد الهادي شعيرة، ص٥٠.

(٣) التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، عبد الكريم الفيلالي، ص٣٤٦.

٣. اختيار الأصلح من الرجال:

بُنيت دولة المرابطين على اختيار الأصلح والأكفأ من الرجال، ولم تكن تخضع لتوريث القيادة، ذلك أن هدفها الأسمى هو إقامة الخلافة في الأرض، ولهذا لم يكن رجالها يتطلعون للمناصب، بل كانوا يعملون معاً بروح الجماعة، وهذا ما رباهم عليه إمامهم عبد الله بن ياسين فقد "كان للأسس التي قامت عليها الدعوة ومن ثم الدولة والمتمثلة في إحياء السنة ، وبعث التقاليد الإسلامية الصحيحة حسب الأثر ومحاربة العقائد القاصرة والضالة في عصر تفشت فيه ضروب الفساد والانحلال والفرقة الدور الكبير في الموقع الذي أخذته المرجعية الدينية، فهذا الفقيه المتأجج حماساً وضع أسس المجتمع الجديد دون أن يطمع في ملك أو سلطان، بل كان حريصاً كل الحرص على أن تبقى السلطة السياسية في يد الأمير وهو الذي يقول دائماً: إنما أنا معلمكم دينكم"[١].

"ورغم الطابع العصبي لزعامة الدولة وإمارتها فلم يغفل القائمون عليها جانب الكفاءة والورع والزهد والإخلاص للدعوة داخل البيت الأميري بعد أن خرجت الإمارة عن قبيلة جدالة، بل لم يكن خروجها من جدالة إلا انطلاقاً من هذه المعايير، وانطلاقاً أيضاً من كون العنصر اللمتوني كان دائماً قائداً للحلف الصنهاجي بالإضافة إلى شدته في القتال، لكن انقياد يحيى بن عمر لعبد الله بن ياسين بشكل مطلق قد يكون السبب الأكثر أهمية في انتقال الزعامة من جدالة إلى لمتونة"[٢].

وإذا نظرنا إلى وصول يوسف بن تاشفين إلى القيادة نجد أن وصوله كان خاضعاً لهذه المعايير التي بُنيت عليها دولة المرابطين، " فبعد أن ابتعد المرابطون عن موطنهم الأول، فرضت الظروف الجديدة عليهم بأن يكون للصحراء جندها وللحضر جنده، إنها فكرة اقتضت العمل بها أخبار ترامت من أرض الأصول

(١) المجتمع والسلطة عند المرابطين، صالح ولد محمدو، ص٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٨٠.

لأرومة المرابطين تشير إلى اختلال أمر الصحراء، إلى اختلاف جدالة ولمتونة، وهما مجمع أجناد الدولة، وهو خلاف كان بإمكانه تشتيت شمل المرابطين والعودة بهم إلى ديارهم، فتنعكس آثاره على البلاد المفتوحة،وكذلك إلى تحرك السودان ضدهم، فاختار أبو بكر حلاً لهذه المشكلة، وخص نفسه بالمجال الصحراوي، وترك الشمال لابن عمه يوسف بن تاشفين، فأنابه عنه وأمره بمتابعة الجهاد بعد أن ترك له ثلث الجيش المرابطي.

وباستلام يوسف الأمر في المغرب ، نجد قيادة جديدة لا تختلف عن القديمة، إنما هي استمرار لها واستيحاء من مصدر واحد وأصل مشترك. كان يوسف أفتح أفقاً لجو الحضر من الأمير أبي بكر المتمسك بالصحراء، ومع ذلك فقد كان قائداً من نمط صحراوي كامل مالكي شديد التدين والتقشف، كان ملكاً أشبه بالأولياء يتوخى أن يكون زخرفه في عمله لا في مأكله وملبسه"[1].

حتى انتقال السلطة إلى علي بن يوسف بن تاشفين كان خاضعاً لمعايير الحكم في دولة المرابطين، وإن كان والده الأمير قد أخذ له البيعة حال حياته إلا أنه لم يكن السبب في ذلك كونه ولده، بل لما كان يتميز به من خصال وخصائص جعلته أهلاً لهذه المهمة، يقول الدكتور عبد الكريم الفيلالي: "كان ليوسف من الأولاد خمسة، ومن البنات اثنتين، فالأولاد هم: علي، وتميم، وأبو بكر، والمعز ، وإبراهيم، والبنات: كونة، ورقية، ومع أن علياً كان سنه ٢٣ سنة فهو ابن المستولدة: قمر "أم الحسن" الأسبانية الأصل؟ وقد فضله على تميم ابن صاحبة الفضل زينب النفزاوية، ولعل هذا الاختيار ناتج عن امتحان وتجربة أثمرت في حياة علي الذي أسند إليه ديوان المظالم، وهو ابن ثمانية عشر، والنيابة عنه في حكم الأندلس، فكان مثالاً للخلق، والنزاهة، والسلوك الحسن والاستقامة والدين"[2].

(١) دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين، د.سعدون عباس نصر الله، ص٤١ (بتصرف).

(٢) التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير. ص٣٧١.

٤. تعزيز مبدأ الشورى:

الشورى قامت عليه الدولة الإسلامية، وامتدح الله المؤمنين لأخذهم بالشورى فقال تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [سورة الشورى: آية ٣٨]. وقد وعى حكام الدولة المرابطية أهمية الشورى في استقرار الحكم واستمرار الدولة فجعلوا الشورى ركيزةً أساسيةً من أسس سياستهم .

"لم يعرف ولاة الأمر الاستبداد، بل كان أمرهم على الشورى في تدبير شؤون الدولة، لا يمضون أمراً دون أن يكون لأهل العلم رأي فيه، حرصاً على سعادة الأمة وطيب عيشها، فقد كانوا يعقدون في أوقات مختلفة مجالس للمشاورة والنظر في شؤون الدولة يحضرها الأعيان من نواب القبائل وعرفاء النواحي النائية، بمشاركة أهل العلم والفضل فقد كان للمغرب أشياخ من أعيانهم لا عدة لهم ولا جند، بل المرء منهم بنفسه فقط، وإنما أعيان الجماعة ممن يحضر عند سلطانهم للرأي والمشورة"(١).

إن تاريخ يوسف بن تاشفين يشهد بأنه كان يولي الشورى جل اهتمامه فقد "كان لأمير المسلمين في دولة المرابطين ونائبه مجلس حربي يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية، وتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورى فيما بينهم، فقد كان قرار الجهاد ضد النصارى في الأندلس بعد شورى شارك فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء، وكان قرار ضم ممالك

(١) تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، د.عبد الحميد السامرائي، ص١٤٦، دار شموع الثقافة،ط١ ٢٠٠٢م .

الطوائف بعد شورى كذلك واشتهر الأمير يوسف بمشاورة ذي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة فيما يعرض له من أمور"[1] .

(١)تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، د.علي الصلابي، ص١٩١، دار المعرفة – لبنان، ط٣.

٥. الاستقرار الاقتصادي:

المرابطون خرجوا من الصحراء، وقد كانوا مجموعة قبائل يتميزون بالغلظة والبعد عن معاني التحضر، وكان اهتمامهم بتربية المواشي والأنعام، ولذلك كان يغلب عليهم التقشف، كما كان يكفيهم القليل من الزاد، ولم يكن لهم أي نشاط اقتصادي بحكم حياة الصحراء وعدم الاستقرار، إلا أنه وبعد أن أصبح لهم دولة، وبعد خروجهم من الصحراء واستقرارهم في مدن المغرب، أصبحت لهم اهتماماتهم الاقتصادية "وقد بدأ المرابطون عصرهم بتطهير بيت المال من الضرائب غير الشرعية، فاكتفى عبد الله بن ياسين بالزكوات والأعشار، وأسقط كل ما عدا ذلك من جبايات ومغارم، وسار على خطته المرابطون من بعده، وعندما فتح المرابطون مدينة فاس سنة ٤٦٢هـ، طوروا اقتصادها، وبنوا الحمامات والفنادق. وعمل المرابطون على التكامل بين الاقتصاد الأندلسي والاقتصاد المغربي، وقد طبع يوسف بن تاشفين نقوداً ذهبية عثر على نوع منها بأغمات، وهي مربعة الشكل مكتوب على الوجه الأول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وعلى الوجه الآخر اسم الخليفة"[(١)].

ويصف الفاسي فترة حكم الأمير يوسف بن تاشفين، فيقول: "ولم يوجد في بلد من بلاده ولا في عمل من أعماله على طول أيامه رسم مكس ولا معونة ولا خراج في حاضرة ولا بادية، إلا ما أمر الله تعالى به، وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين، وجبا في ذلك من المال على وجهه ما لم يجبه أحد قبله، فيقال أنهم وجدوا في بيت المال بعد وفاته ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من دنانير الذهب المطبوعة"[(٢)].

إن هذا المنهج الاقتصادي في تسيير شؤون الدولة، والذي اتخذته دولة

---

(١) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص١٩٦. (بتصرف)

(٢) الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي، ص١٣٦.

المرابطين، هو عنوان تمسكهم بتعاليم الإسلام، وحرصهم على أن لا يدخل مال حرام على هذه الدولة المؤمنة، فيفسد عليها حياتها، وقد اتخذت الدولة هذا منهجاً لها في جميع تعاملاتها، مما أدى إلى ازدهار الاقتصاد في عهد المرابطين، خاصةً بعد ضم الأندلس ذات الحضارة الأقدم، "إذ أن سيطرة المرابطين على الأندلس وموانيها سهلت الطريق لتجارة السودان للوصول إلى الأسواق الأوروبية والشرق، ونتج عن ذلك قيام أسواق عالمية للتجارة في العهد المرابطي، كما نهضت مدينة (المرية) في الثغر الأندلسي حيث قدمت إليها السفن التجارية من الشرق؛ من مصر والشام، وازدهرت فيها الصناعة والتجارة ، وأخذ النفوذ البحري للأسطول المرابطي يعطي دوره في انطلاق التجارة البحرية الإسلامية، بسبب الشعور بالأمان في الطرق البحرية المتوسطية، كما أن سياسة الدولة المرابطية في الاعتدال في فرض الضرائب على التجارة ومناطق عبورها ساعد على إقبال التجار وزاد نشاطهم، فازدهرت البلاد، وعم الرخاء في مجالات أخرى من الزراعة والصناعة في السهول والهضاب وفي الصحاري في جنوب المغرب.

وكما أنشأ المرابطون القلاع والحصون لحماية البلاد في المغرب والأندلس عسكرياً، فقد أقاموا الرقابة على عمالهم المكلفين بتحصيل الضرائب في حياتهم وحتى بعد وفاتهم حيث كان الورثة لهؤلاء العاملين يُراقَبون هم أيضاً من قبل الدولة، إذ ربما جمع أولئك المحصلون أموالاً وادخروها لينتفع بها أولادهم من بعدهم، فكان لاستمرار المراقبة من الدولة على ما بعد وفاة عمالها دور في الحد من الانحراف لدى القائمين بتحصيل الأموال، فاستقامت الأحوال الاقتصادية للدولة ولأفراد الشعب على السواء، كما عملت الدولة المرابطية على نشر ألوية الأمن ومحاربة المفسدين وقطاع الطرق، كما ألغت الحكومة الضرائب التي تفوق طاقة التجار في كافة أنحاء بلاد المغرب والأندلس، وحلت محلها فريضة الزكاة التي جاءت بها الشريعة المحمدية، فشجع ذلك من حركة التجار في الأسواق وعم الاستقرار وارتفع مستوى الإنتاج العام في البلاد وراجت التجارة، فاستقرت

الأحوال الاقتصادية، وعم البلاد الرخاء".[1]

"وبدأت مدينة فاس تشهد فترة من الاستقرار على عهد المرابطين، فازدهر النشاط الاقتصادي، حيث حرص أمراء المرابطين على نشر الأمن، والنهوض بالمنطقة في شتى المجالات، فعم الرخاء، وارتفع الدخل المالي للبلاد، فالأمن والاستقرار الذي عاشته البلاد في ظل المرابطين أسهم في تنشيط اقتصاديات المدينة، إذ جعل الأهالي ينصرفون إلى العمل والإنتاج، وبدأت الجيوش المرابطية تعتمد في بعض ميرتها على اقتصاديات مدينة فاس"[2].

إن هذا الحرص على إخضاع الاقتصاد لتعاليم الإسلام، ونشر هذه الثقافة بين الناس، وتبني الدولة لها، جعل الناس يعيشون حياة الرخاء والاستقرار الاقتصادي، مما أعطى للدولة قوتها ومكانتها، وازدهار التجارة في هذه الدولة مكن لها إيصال رسالتها عن طريق تنقل التجار بين الأمصار، وقد كان غالب هؤلاء التجار من أهل الصلاح والتقى، فقد نقل الدكتور جمال طه صورةً للتجار المرابطين، فقال: "وكانت شريحة التجار من أفضل الشرائح ، فهم من الذين يحيزون الدنيا والأخرة، حيث يكسبون أقواتهم، ويصلون صلاتهم، ولا يؤذون أحداً"[3]، وكان لهؤلاء التجار دورهم البارز في دعم الدولة المرابطية والشد من أزرها لما كانوا يتمتعون به من ولاء لها "وتشير المصادر إلى انهم قاموا في بعض الأحيان بدور إيجابي في تعضيد السلطة المرابطية، فقد أشار التادلي في ترجمته لحمود بن سمعون اللخمي؛ الذي كان من تجار الصحراء، ولما أسنّ ترك التجارة، فوضع بيده أحباس جامع تلمسان، فقام بإقراض الأمير: تميم بن يوسف من مال الأحباس خمسمائة دينار، ولم يكن لدى الأمير مال يقضي منه مال الحبس، فجعل التاجر حمود بن سمعون الأمير المرابطي في حل من

(١) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص١١٠، ١١١ (بتصرف).

(٢) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين؛ دراسة سياسية وحضارية، د. جمال أحمد طه، ص١٩٧.

(٣) الحياة الاجتماعية في المغرب الأقصى، د. جمال طه ، ص١٠٨.

هذا المال، وقام بوضع خمسمائة دينار من ماله الخاص في أموال أحباس المسجد.

كما عمل بالتجارة فئة من المثقفين والعلماء أيضاً، حيث ضمنت لهم التجارة سبل العيش المطمئنة، فعتيق بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللخمي، كان محدثاً فاضلاً يعيش من بضاعة كانت بيده في تجارة له بمدينة سبتة ، كما كان من بين الفقهاء تجار أمثال أبي يعقوب؛ يوسف المؤذن ، الذي كان إذا رأى الناس تكاثروا على حانوته للشراء منه أرسل الشبكة عليه، وقال: سبحان الله، سوق الدنيا عامرة، وسوق الآخرة خالية؟! ودخل المسجد ليصلي فيه"[1].

(١) انظر: المرجع السابق،ص١٠٩ ، ١١٠ .

الفصل الثالث

الواقع الثقافي الإسلامي في دولة المرابطين بين المؤثرات الإيجابية والسلبية.

المبحث الأول: الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات الإيجابية.

المبحث الثاني: الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات السلبية.

المبحث الأول
الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات الإيجابية

بما أن دولة المرابطين تكونت من تجمع عدد من أصحاب الأهداف المشتركة، والتوجهات الموحدة، ولم تكن نتيجةً لصراع فكري معين أو متولدةً عن دولةٍ قبلها، فإنها ولا شك تتأثر بمجموعةٍ من المؤثرات التي أسهمت في تكوين منظومتها الثقافية ، والمؤثرات الثقافية التي أثرت في الواقع الثقافي الإسلامي لدولة المرابطين هي تلك العوامل التي أثرت في تعزيز أهداف هذه الدولة، وساعدت على تحقيقها، وكانت سبباً في تقدمها وازدهارها، وأهم هذه المؤثرات:

- **التمسك بالمذهب المالكي.**
- **الجهاد في سبيل الله.**
- **هجرة العلماء إلى المغرب.**

أولاً: التمسك بالمذهب المالكي:

"من المعلوم أن سياسة المرابطين قامت على تعاليم مذهب الإمام مالك ، ومؤسسو الدولة الأولون هم تلاميذ لأبي عمران الفاسي وعبد الله بن ياسين، والأول كان على رأس المالكية بالقيروان، والثاني درس على المالكية بقرطبة وأتم دراسته على وجاج بن زلو، فلا غرابة أن يتشبع ملوك المرابطين بتعاليم المذهب المالكي، وأن يحترموا فقهاء هذا المذهب حتى لا يصدروا إلا عن رأيهم"[1]

ويعتبر عبد الله بن ياسين تلميذاً للمدرسة المالكية فقد "أخذ ابن ياسين في أمور دعوته في الأغلب الأعم بأحكام المذهب المالكي السائد في المغرب آنذاك، وقد عمل بها في كثير من القضايا المتعلقة بأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

(١) المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات، ص ١٦٩.

والجهاد في سبيل الله، وقد أفرد لهذه المسائل فقهاء المالكية في المغرب أحكاماً خاصةً في كتبهم ، هذا بالإضافة إلى استنباطات "ابن ياسين" نفسه واجتهاداته في بعض المسائل والتجارب وخاصة مع مريديه داخل الرباط أو التعامل الخارجي حين نشر الدعوة بين قبائل المغرب خارج الرباط، وقد حرص ابن ياسين في ذلك على التمسك بالنهج الصحيح في الوسائل والأساليب التي اتبعها في نشر دعوته فقد كان صارماً مع مريديه"[(١)].

يقول الأستاذ: إبراهيم حركات: "وأما مذهب الدولة فكان مالكياً، فنشأ جميع ملوك الدولة تنشئةً مالكيةً وجميع المستشارين والكتاب ممن تشبعوا بمذهب مالك، إذ لم يكن في نظام الدولة محل لغير من يعتنق هذا المذهب"[(٢)].

ولأن المرابطين بدأوا حياتهم العلمية على المذهب المالكي فقد كان هو المذهب الأساس لدرجة التعصب "فكانت نتائج حركة المرابطين الإصلاحية بعد استقرارهم قد قامت على عدم السماح بتعدد المذاهب الدينية التي انتشرت بشكل ملحوظ في المغرب كالخوارج والشيعة والمعتزلة والحنفية والمالكية ، مما جعل البلاد عرضةً للفتن والخلافات المذهبية ، لهذا حرص المرابطون على الاكتفاء بسياسة المذهب الواحد؛ وهو المذهب المالكي الذي قامت عليه الدولة واتخذته أساساً في كل ما يرجعون إليه في أمور الدين والدنيا، حتى غدوا يمثلون الإسلام على مذهب أهل السنة والجماعة، وتمكنوا من إعطاء المغرب وحدةً مذهبيةً خلال وجودهم قلما حضي بها المغرب، وهي تجربة رسخت هذا المذهب الذي أصبح روح الوحدة المغربية الأندلسية فيما بعد"[(٣)].

---

(١) الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، د. فتحي زغروت، ص٢٥.

(٢) النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، إبراهيم حركات، ص ١١٦.

(٣) الرُّبُط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين، محمد الأمين بلغيث، ص ٢١١.

إن اعتماد المذهب المالكي ، وجعله المذهب الوحيد للدولة لا شك أنه يرسخ مفهوم الوحدة المذهبية ، ويبعد الناس عن الخلاف المذموم، خاصةً وأن البلاد تتنازعها تيارات عقدية وسياسية قد يضيع الناس فيها بين المذاهب المتعددة مما يؤدي بهم إلى ترك الدين أو الابتداع فيه، ولهذا فقد كان أثر المذهب المالكي على المغرب العربي واضحاً من حيث انتشار مدارسه، وبروز طلاب العلم في تلك الفترة، وكذلك بروز العلماء المعتبرين ، ولعل السبب في انتشار هذا المذهب يعود إلى تأثر أهل المغرب برحلاتهم إلى دار الهجرة؛ المدينة النبوية حيث المدرسة المالكية، قال الدكتور جمال أحمد طه: "أما أهل المغرب فقد اختصوا بمذهب الإمام مالك، ولم يتخذوا غيره مذهباً إلا في القليل، لأن رحلاتهم كانت غالباً إلى الحجاز، لذا اقتصروا على الأخذ عن علماء المدينة، وشيخهم يومئذٍ الإمام مالك وشيوخه من قبله، وتلاميذه من بعده، لذا كان المذهب المالكي غضاً عندهم، وقد اتجهت المادة الفقهية نتيجةً لتأثر أهل فاس بالمذهب المالكي اتجاهاً خاصاً، وأصبحت المؤلفات التي دونها رفاق الإمام مالك هي التي تحتل المكانة الأولى في الدراسة بالقرويين، ومساجد فاس الأخرى، واستمر الفقه المالكي في ازدهار طيلة أيام المرابطين"[1] .

ويعتبر انتشار المذهب المالكي وتمسك الدولة به مؤثراً إيجابياً في الثقافة الإسلامية المغربية في فترة المرابطين إذ أنه حافظ على أصول أهل السنة والجماعة، وحمى الثقافة الإسلامية من نزعات المذاهب المنحرفة فـ "منذ بداية دولة المرابطين ظهر للعلماء نفوذ في مجريات الأمور حيث تحالف الفقهاء المالكية مع المرابطين منذ قيام دولتهم، ذلك فضلاً عن الاحترام والتقدير من جانب أمراء المرابطين فيوسف بن تاشفين كان مؤثراً لأهل العلم والدين كثير المشورة لهم، مجرياً لهم الأرزاق من بيت المال على طول أيامه واتبع الأمير علي بن يوسف نفس هذه السياسة.

(١) انظر: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين؛ دراسة سياسية وحضارية، د. جمال أحمد طه، ص٢٨٣.

فهذه المكانة الخاصة التي أولاها أمراء المرابطين للفقهاء والعلماء جعلت منهم طبقةً مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة، وأصبح لهم دور بارز في السياسة العامة للدولة المرابطية"[1].

لقد "وحد المرابطون هذا المغرب الأقصى سياسياً ثم دينياً، فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة من فرغواطية وغمارية وما إليها، وقضوا على آثار المذهبين الإباضي والصفري في ما سادوه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة. وإلى المرابطين يرجع الفضل في الوحدة العقائدية السنية التي تميز المغرب الأقصى طوال تاريخه بعد ذلك.

وأتم المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية أيضاً؛ فقد كان رافع لواء الحركة المرابطية فقيهاً مغربياً استعرب بيته من زمن طويل، هو عبد الله بن ياسين، وقد قام بحركته الدينية كفقيه عربي يعمل على نشر الإسلام والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة، وبعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية على يد بني عمر بن إبراهيم بن طرغوت ظل الاتجاه الثقافي العربي للحركة كلها مستمراً. ويتمثل هذا في ما يسمى بسيادة الفقهاء في دولة المرابطين، فقد كان لهم دائماً مكان ممتاز في تلك الدولة، وفي بعض الأحيان أخذ هذا المكان الذي وصل إليه الفقهاء في دولة المرابطين صورةً سياسية، وقد وُجه نقدٌ كثير إلى المرابطين وخصوصاً إلى علي بن يوسف، بسبب سلطان الفقهاء في الدولة ولكن هذا الاتهام مفتعل ومبالغ فيه، فلم يكن للفقهاء في دولة المرابطين من السلطان أكثر مما كان لهم في غيرها من الدول، ولكن الذي لا شك فيه هو أن أولئك الفقهاء قاموا بعمل تعريبي واسع المدى في أنحاء دولة المرابطين"[2].

---

(١) الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، د. جمال طه ، ص٩٩ (بتصرف)

(٢) وثائق المرابطين والموحدين، عبد الواحد المراكشي، ص١٠٤.

ثانياً: الجهاد في سبيل الله :

انطلق المرابطون للجهاد في سبيل الله منذ قيام دولتهم ، فغادروا الرباط للجهاد، ناشرين دين الله تعالى كما تقدم ، وقد لخص الدكتور فتحي زغروت جهاد المرابطين إذ قال: "لقد كان الجهاد هدفاً أساسياً للرباط لأنه هو الوسيلة الوحيدة لتقويم الاعوجاج والمتمردين على وسائل الدعوة، فإذا ما فشلت الدعوة بالحسنى ولم يفلح الوعظ والحجة كان لا بد من القوة لهدم الباطل ولإقامة الحق فإن الدعوة لا تحيا إلا بالجهاد، فلا غرو إن كان الجهاد سبيل المرابطين لتحقيق أهدافهم العليا.

وخلاصة القول: أن دولة المرابطين قد استوعبت الفكرة الإسلامية استيعاباً جيداً ثم انطلقت حركة نشطة توجه وتهدي وعلى رأسها قيادة قوية حازمة، وقد شملت تلك الحركة جميع المستويات في دولة المرابطين حكومةً ودعاةً وقواداً وعمالاً، وقد كانت تلك القيادة بصيرة بأهدافها واعية لما ترمي إليه، لذا نجحت حركة التغيير وكفلت لأصحابها قيام دولة إسلامية عظمى"[1].

وهذا الجهاد لم يكن قتالاً لمجرد السيطرة على الأرض ونهب الأموال بل كان جهاداً إسلامياً لنشر دين الله ، وقتال كل من يقف في طريق الدعوة إلى الله ، بدليل أنهم كانوا يبسطون حكم الله على الأرض التي يفتحونها "واتبع المرابطون سياسة ناجحةً في جذب المغاربة إليهم، فخففوا الضرائب على الناس، ولم يبقوا من الضرائب إلا ما أقره الشرع كالزكاة والعشر، وكان دستورهم في الحكم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ، ولم يتعود المغاربة على حكم يتمشى مع تعاليم الإسلام من قبل، لذلك التفوا حول المرابطين، وكانوا يوزعون خمس الغنائم على الفقهاء والعلماء، وكانوا في ذلك العصر زعماء الشعب الروحيين، يمثلون الشعب في تأييد نظام الحكم أو رفضه، فلما أيد رجال الدين المرابطين أيدهم الشعب كذلك، وبدا واضحاً

(١) الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، د. فتحي زغروت، ص٣٣.

لكافة الناس أن المرابطين جاءوا لا للفتح ، ولكن لإحياء الدين، لذلك كانت المدن والقرى تستقبلهم بالحفاوة والترحاب. والواقع أن المغاربة كانوا في حاجة إلى حكم يخلصهم من نير وظلم زناته، وبالفعل وجدوا في المرابطين خير عون لهم على أعدائهم زناته الظالمين المستبدين"[1].

لقد كان للغاية النبيلة التي يقاتل من أجلها المرابطون أكبر الأثر في تقبل المجتمع المغربي لهذا الفتح القائم على نشر الكتاب والسنة ، ولهذا كان من السهل على المرابطين بعد انتصارهم في كل معركة ، واستيلائهم على الأرض، أن يقيموا فيها شريعة الله لأن الناس تيقنوا أن جهادهم هذا إنما هو دعامةٌ أساسيةٌ لنشر ثقافتهم الإسلامية التي جاءوا بها " فالمرابطون كانوا قبل كل شيء أصحاب رسالة دينية يريدون تحقيقها، وهذا هو السبب الأساسي في خروجهم من الصحراء شمالاً نحو المغرب وجنوباً نحو السودان"[2].

ويتضح هدف المرابطين من الجهاد في الأثر الذي يعقب انتصاراتهم دائماً فهم يقومون بتطهير كل مدينة يستولون عليها من المنكرات ، وينشرون فيها دين الله، يؤيد هذا ما ذكره عبد الواحد شعيب إذ قال:"ثم دخل ابن ياسين مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة وأقام بها حتى هدَّنها وأصلح أحوالها، وغيّر ما وجد بها من المنكرات، فأحرق الديار التي كانت تُباع بها الخمور، وأزال المكوس، وأسقط المغارم وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه، وهكذا طهر سجلماسة مما فيها من المنكرات ثم قفل عائداً إلى الصحراء بعد أن ولى عليها عاملاً من المرابطين"[3].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين الفقي، ص ٢٥٢، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ط١ .

(٢) دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، عبد الواحد شعيب، ص١٧، دار اقرأ للطباعة والترجمة والنشر، ليبيا، ط١ .

(٣) المرجع نفسه، ص١٧.

إن هذه الروح الجهادية هي التي ربى عليها ابن ياسين رحمه الله من معه من المرابطين ، ليغرس فيهم حب الجهاد الذي يقام به شرع الله ، وتُنقذ به البشرية من غلواء الشرك، وتُحرر من أغلال الجهل والهوى، ولهذا كان ابن ياسين رحمه الله في مقدمة المجاهدين قائداً وقدوةً لهم، فقد وافته منيته وهو يجاهد في سبيل الله، وقد كان ذلك أثناء قتاله قبائل برغواطة، "فمنذ أن وصل المرابطون على تامسنا، لم يعد يفصل بينهم وبين برغواطة أي حاجز، فرأى ابن ياسين تقديم جهادهم على غيرهم، فسار إليهم في جيش المرابطين، فأخلص فيهم الجهاد، ورام التقرب إلى الله باستئصال كلمتهم"(١).

وقد أبلى في القتال بلاءً حسناً وأصابته جراح كثيرة أثقلته فحمل إلى معسكره وبه رمق، فجمع أشياخ المرابطين وأدلى لهم بوصيته التالية: "يا معشر المرابطين إني ميت في يومي هذا وأنتم في بلاد أعدائكم، فإياكم أن تجبنوا فتفشلوا وتذهب ريحكم، وكونوا ألفةً وأعواناً على الحق، وإخواناً في ذات الله تعالى، وإياكم والمخالفة والتحاسد على طلب الرئاسة، فإن الله تعالى يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف في أرضه من أحب من عباده، وإني ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم، ويغزو أعدائكم ويقسم فيكم زكاتكم وأعشاركم"(٢).

بهذه الروح العالية، والهمة السامقة يودع ابن ياسين الدنيا تاركاً هذا الأثر الكبير لدعوته، متحرراً من الدنيا وزخرفها، وقد ربى أتباعه على هذا المنهج، ووصاهم بالثبات عليه حتى آخر لحظة من حياته، وهذا يعكس التربية التي عاش عليها، وربى عليها، ومات عليها، رحمه الله ، ولهذا فإن الجهاد في سبيل الله تعالى كان منهجاً عاش عليه المرابطون لإقامة دين الله، ونشر الخير بين الناس.

---

(١) انتصارات يوسف بن تاشفين، حامد محمد الخليفة، ص ٣٧ "بتصرف" .

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

ويلخص الدكتور علي الصلابي حركة المرابطين الجهادية فيقول: "إن حركة المرابطين كانت موفقةً، حيث استطاعت أن تنسق مع علماء وفقهاء سجلماسة لإسقاط الدولة الزناتية التي تفشى فيها الظلم والجور والعسف، فعندما رأوا من أنفسهم الاستطاعة والمقدرة على إزالة الظلم، ورأوا أن تحقق المصلحة كان أرجح، سارع الفقهاء والعلماء بالموافقة على مقترح ابن ياسين، وتدفقت جيوش المرابطين، وتعاونت مع المستضعفين، وطهرت البلاد من هيمنة العابثين، ونشرت العدل بين المسلمين، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين" إلى أن قال: "أما قتالهم لبرغواطة، وغمارة، ذات المعتقدات الكفرية والانحرافات العقدية، فهذا يعتبر من أعظم أعمالهم الجهادية عندما وقفوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها، وبدلت بأصول سنية زكية بهية"[1].

إن الجهاد في سبيل الله، ومن أجل إعلاء كلمة الله، كان السمة البارزة في مسيرة المرابطين، وعليه أجمعوا أمرهم، وجمعوا كلمتهم، وبه انطلقوا في بلاد المغرب العربي، ينشرون من خلاله منهج الله في الأرض، ويبنون به صرح الدين المتين، يقدمون أرواحهم في سبيل الله، ويمضون بكل عزم نحو غايتهم الكبرى، وهي تحقيق الاستخلاف في الأرض كما أراد الله منهم.

(١) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، د. علي الصلابي، ص٦٥ ، ٦٦ .

ثالثاً: هجرة العلماء إلى المغرب العربي:

عندما استقر الأمر للمرابطين في المغرب أصبحت مهاجراً للعلماء والدعاة لنشر العلم الشرعي ، والأدب، وسائر العلوم الأخرى فبدأوا يتوافدون إليها من الأندلس والقيروان وغيرها.

"لم يكد المرابطون يمسكون بزمام قيادة البلاد المغربية حتى سعوا إلى توحيد أفريقيا الشمالية، فعلاً وفقوا في تنظيم البلاد وإعطائها مدداً روحياً جديداً، واستعانوا لتحقيق أهدافهم التربوية بجماعة من العلماء الواردين عليهم من الأندلس والقيروان، إذ أن اشتغال ملوك الطوائف بتوافه الأمور أضعف ثقة العلماء بهم، فتوجهوا إلى المغرب لتدعيم الدولة الفتية كما أعانهم على ذلك وفود من علماء القيروان الذين أموا المغرب الأقصى بعد أن قضى بنو هلال على القيروان وهدموا معالمها وخربوا مملكة بني زيري الصنهاجية فهاجر العلماء إلى المغرب الأقصى ناجين بأنفسهم"[(١)].

ويذكر المراكشي في المعجب شيئاً من خبر وفود أهل الأندلس على الدولة المرابطية فقال: "فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة[(٢)] من أهل كل علم فحوله، حتى أشبهت حضرته حضرةَ بني العباس في صدر دولتهم، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار"[(٣)].

" ولم يحفل المرابطون بالعلماء والأدباء والفلاسفة والكتاب فحسب، بل استقدموا الفنانين والصناع من الأندلس"[(٤)] ولا شك أن هذا الحراك العلمي الواسع في المغرب العربي على إثر هذه الهجرة للعلماء ، ووفودهم إليها، شكّل

(١) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص١٧٤.

(٢) يعني بها جزيرة الأندلس.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشى، ص٢٢٧ .

(٤) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح.ص١٧٥.

منظومةً ثقافيةً تتبناها الدولة المسلمة " وقد أدى هذا التشجيع للحركة العلمية أن توفرت البلاد على عدد كبير من المدارس وتقدمت حركة التأليف والتدريس تقدماً مدهشاً رفع المغاربة إلى مصاف رجال الفكر في العالم الإسلامي، وأبانوا عن ذكائهم وتفننهم في سائر الفنون والمعارف من فلسفة وطب وعلوم لسانية ودينية، كما شجعوا الدراسة في بلادهم"(١).

وتعتبر الأندلس قلعةً من قلاع العلم والثقافة ، وانضمامها تحت لواء المرابطين كان له الأثر البالغ في تعزيز الثقافة الإسلامية للمرابطين، يوضح هذا المعنى الدكتور جمال طه فيقول: "على الرغم من أن الصلات الثقافية لم تنقطع بين المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي للمنطقة، إلا أن هذه الصلات ازدادت رسوخاً وازدهاراً بعد أن أصبحت الأندلس إقليماً تابعاً للمغرب الأقصى في عهدي المرابطين والموحدين، فكانت هناك هجرات كثيرة من علماء الأندلس خلال هذه الفترة فراراً من المعارك الطاحنة التي شهدتها منطقة الأندلس ضد نصارى أسبانيا مما دفع العلماء إلى الانتقال إلى مدن المغرب، ومنها إلى فاس لينعموا بالاستقرار فضلاً عن التكريم والترحيب من ولاة الأمر والشعب المغربي، وكان لهذا الاحتكاك أثره في توجيه أنظار أهل البلاد إلى الأخذ بأسباب العلوم، يقتبسون من علماء الأندلس ويأخذون بأدواتهم، وما لبثوا أن شاركوهم في جميع العلوم، ونبغ من أهل المدينة أفراد كثيرون كان لهم قيام حسن على فنون من العلم،كما شهدت مدينة فاس هجرات كثيرة من مختلف المدن المغربية وكان أغلب هذه الهجرات من أجل طلب العلم بالمدينة، حيث صارت فاس نجماً يتألق بما فيها من تيارات ثقافية"(٢).

وهذا يظهر مدى تأثر الثقافة الإسلامية في المغرب العربي في ظل حكومة المرابطين الإسلامية بهجرة العلماء والمفكرين والمثقفين من بلاد الأندلس وغيرها

(١) المرجع السابق.ص١٧٧.

(٢) مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، د. جمال أحمد طه، ص ٢٦٨.

فازدهرت الحركة العلمية وأنشئت الجامعات، "كما أن جامع القرويين بفاس يعد أقدم جامعة علمية في العالم الإسلامي، وقد قامت به نهضة علمية شملت جميع بلدان المغرب الأقصى"[1]

(١) انظر: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص١١٥.

المبحث الثاني
الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات السلبية

لا شك أن ثقافة كل مجتمع ودولة تتأثر سلباً بالعديد من المؤثرات التي تضعف قوتها، وتوهن عزمها، ومن بين أهم المؤثرات السلبية على الثقافة الإسلامية في عهد المرابطين ما يلي:

أولاً: ظهور التصوف وعلم الكلام.

ثانياً: الميل نحو الترف والبذخ.

ثالثاً: الاضطراب السياسي .

أولاً : ظهور التصوف وعلم الكلام :

"التصوف المغربي صورة حية ناطقة للتصوف الإسلامي عامة ولما تركته نظريات التصوف المغربية من آثار عميقة في الفكر الصوفي الشرقي، وتاريخ الحركة الصوفية لا يشمل الجانب الثقافي والروحي فحسب، بل يتجاوز إلى الجانب السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، وكذلك كان للتصوف المغربي أثر كبير في توجيه وتغيير كافة أوجه الحياة .

وعلى الرغم من ظهور التصوف في القرن الثاني الهجري وانتشاره في الشرق العربي إلا أن المجتمع المغربي كان بمعزل عنه ولم يعرفه أهله كما عرفه إخوانهم المشارقة حتى أوائل القرن الخامس الهجري أو قبله بقليل، وذلك في عهد المرابطين ، وقد نشأ التصوف في المغرب مبنياً على الزهد والتقشف والنسك وحمل النفس على المجاهدة في الطاعة والوقوف مع ظاهر الشرع دون تغلغل في علوم المكاشفات والحقائق، لذلك لم يحتدم في المغرب في ذلك العصر صراع بين المتفقهة والمتصوفة كما حدث في الشرق من قبل، لبعد التصوف المغربي عما يخالف ظاهر الشريعة من منظور الفقهاء، وفي منتصف القرن الخامس الهجري دخلت بعض كتب التصوف

للمغرب وفوجئ العلماء في أواخر هذا القرن بكتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، ووجدوا فيه الكثير مما لم يألفوه فثاروا عليه وأمروا بإحراقه وتحريم قراءته وكان الحادث من أهم عوامل تدهور واضطراب وانحلال دولة المرابطين"[1].

أن التمسك بالعقيدة السليمة والخوف عليها من لوثات الفكر الصوفي بما يحمله من شوائب، جعل المرابطين يقومون بالدفاع عن عقيدتهم، بما يعكس حرص حكام الدولة على بقاء ثقافة البلاد سليمة من المؤثرات التي قد تبعدها عن منهجها الإسلامي الصافي.

"لقد كانت حركة التصوف في الشرق تتجاوب أصداؤها في المغرب والأندلس، وكان الفقهاء ينكرون هذه البدعة فيتصدون لمهاجمتها ورد المبتدعين، وقد كان لعلي بن يوسف بن تاشفين موقف من الصوفية البارزين في عصره ، وكان يتضايق من دعاوى المتصوفة، لذلك قرر سجن المتصوف الأندلسي "اللخمي" بمراكش، حيث كتب هذا بسجنه مجموعاً في التصوف، ولا بدع أن نرى علي بن يوسف يأمر بإحراق كتب الغزالي، ولذلك تصدى المتصوفة لحربه"[2].

إن إحراق كتب الغزالي، وفي مقدمتها كتابه المشهور: إحياء علوم الدين، يُعتبر موقفاً قوياً من دولة المرابطين لحماية ثقافتها التي تقوم على العقيدة الصحيحة الصافية، وإن كان هذا الموقف قد يسبب تفريقاً وشقاً في بعض الصفوف.

"وإذا عدنا إلى الحالة الدينية التي كان عليها المغرب قبل المرابطين، أدركنا السر في موقف الفقهاء من الإحياء، فالمغرب كان موزعاً بين مذاهب شتى، وهذا من أسباب عدم الاستقرار طوال الحقبة التي سبقت قيام الدولة المرابطية، ولا يخفى ما قدمه المرابطون – فقهاء وساسة– في سبيل توحيد المغرب سياسياً ومذهبياً، محاربين

(١) التصوف في مصر والمغرب، د.منال عبد المنعم جاد الله، ص١٢٥-١٢٦، نشر منشأة المعارف بالأسكندرية، سنة الطبعة مجهولة.

(٢) الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص ١٨٩ (بتصرف) .

من أجل هذه الغاية كل المذاهب لفسح المجال للمذهب المالكي، فلم يكن إذن من المعقول أن يُسمح بالخلاف في الرأي من جديد بعد أن اتفق"[1].

إن الموقف الصارم الذي اتخذه المرابطون ضد حركة التصوف وعلم الكلام والفلسفة لم يكن ليمنع ظهور هذا النوع من العلم ، "وعلى الرغم من الموقف العدائي الذي أظهره المرابطون نحو المتصوفة بإيعاز من الفقهاء الذين كان الحفاظ على وحدة المغرب في ظل المذهب المالكي يدفعهم إلى ذلك، أقول: على الرغم من ذلك فإن المرابطين شجعوا الحركة الصوفية بما أشاعوه في البلاد من ورع وزهد وتقوى فلم ينقل عن أحد أمرائهم خروج عن الشريعة، لا في قول ولا في عمل ، وطبيعي أن يعتبر العصر المرابطي، العصر الذي نشأ فيه التصوف المغربي"[2].

لقد وقف المرابطون ضد التصوف وعلم الكلام إلا أن هذه العلوم قد وجدت حظها من ثقافة المرابطين خاصةً بعد ضم الأندلس إلى المغرب، وفي عهد علي بن يوسف بن تاشفين " وبدخول المرابطين الأندلس تمتعت نواحيه بتسامح عظيم فتكلم أصحاب كل الآراء بما أرادوا من دون أن يخشوا شيئاً، وحظيت العلوم العقلية بالتشجيع ووصلت إلى درجة كبيرة من التخصيص والتجويد، فنجد أنفسنا أمام عدد كبير من العلماء انقطعوا انقطاعاً تاماً إلى الفلسفة والطب وعلم الكلام وغيرها من العلوم، ووصلوا بها نتيجة هذا الانقطاع إلى ذروتها العليا، فألفت المصنفات في الفلسفة والمنطق، وكانت هذه الكتب معروفة ومتداولة بين المثقفين، وكثر أنصار الفلسفة العقلية الذين يقولون بدين واحد للبشر جميعاً، وانتشرت رسائل إخوان الصفاء، ودخلت أفلاطونية حديثة بالإضافة إلى ما تكلم به ابن مسرة منها، وظهرت نتيجة ذلك مدرسة جديدة بدأت بأبي الصلت أمية بن عبد

(١) القاضي عياض الأديب، عبد السلام شقور، ص٤٦ "بتصرف" .

(٢) المرجع السابق، ص٥٠.

العزيز الداني؛ الذي ألف كتاباً في المنطق يوجز فيه آراء أرسطو بعنوان:"تقويم الذهن" ، ثم ابن السيد البطليوسي[١]، ومالك بن وهيب[٢]، وابن باجّة[٣].

وترجع أهمية كتاب"الحدائق" الذي ألفه ابن السيد البطليوسي ليس لأنه كتاب سهل العبارة يعين غير المتخصصين في الفلسفة على فهم المبادئ الفلسفية، بل لأنه يعرض لنا صورة صادقة وواضحة إلى حد كبير لما آلت إليه المعارف الفلسفية خلال الفترة التي ألف فيها، فقد كتب في نفس الوقت الذي كان ابن باجّة يؤلف فيها كتبه، وقبل أن يفكر ابن طفيل وابن رشد في شرح مؤلفات أرسطو، ومما يزيد في أهمية الكتاب ما يثيره من مشاكل متعددة تتعلق بالمراجع الخاصة بدراسة أفلاطون وهي مشاكل جديرة بأن يناقشها المتخصصون في الفلسفة، كما يعتبر أول محاولة للتوفيق بين الشريعة الإسلامية والفكر اليوناني، ويعتبر مالك بن وهيب

(١) أبو محمد؛ عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي؛ كان عالماً بالآداب واللغات مقدماً في معرفتهما وإتقانهما، سكن مدينة بلنسية، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون عليه ويقتبسون منه، وُلد في سنة أربع وأربعين وأربعمائة بمدينة بطليوس، وتوفي في منتصف رجب سنة إحدى وعشرين وخمسمائة بمدينة بلنسية. المصدر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، المجلد الثالث، ص٩٦.

(٢) مالك بن يحيى بن وهيب بن أحمد بن عامر بن أيمن بن سعد الأزدي؛ من أهل أشبيلية، يكنى أبا عبد الله، وهو أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها، وأنواعها، توفي بمراكش سنة خمس وعشرين وخمسمائة، وكان مولده بإشبيلية سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة. المصدر:الصلة، لابن بشكوال، المجلد الثالث، ص٨٩٧ .

(٣) أبو بكر محمد بن باجة التجيبي الأندلسي السرقسطي، المعروف بابن الصائغ؛ الفيلسوف الشاعر المشهور. توفي في رمضان سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وقيل سنة خمس وعشرين وخمسمائة مسموماً في باذنجان بمدينة فاس، وباجة: بالباء الموحدة وبعد الألف جيم مشددة ثم هاء ساكنة، وهي الفضة بلغة فرنج المغرب. المصدر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، المجلد الرابع، ص٤٢٩.

جليس ومستشار ووزير أمير المسلمين علي بن يوسف من أهم فلاسفة ذلك العصر "[1].

مما سبق يتبين التحول الفكري في ثقافة الدولة المرابطية ، وكيف حدث التأثر بعلوم الفلسفة والتصوف ، ويعود هذا في المقام الأول للتماز ج الثقافي بين رجال المغرب ورجال الأندلس والمشرق ، خاصةً بعد أن أصبحت دولة المرابطين دولةً كبيرةً لها صيتها الذائع، وذكرها الشائع، وأسهمت سياستها العادلة الآمنة في استقطاب الناس باختلاف أطيافهم وتنوع مشاربهم إليها ، مما أحدث انفتاحاً فكرياً كان له أثره الواضح في الثقافة الإسلامية .

(١) أضواء جديدة على المرابطين، دكتورة: عصمت دندش، ص٨٥ – ٨٦ "بتصرف يسير"

ثانياً: الميل نحو الترف والبذخ:

"المرابطون عاشوا في صحراء المغرب الأقصى بين جنوبي المغرب الأقصى والمناطق المدارية حتى السنغال إلى بلاد السودان، يعيشون على الأنعام، يركبونها في تنقلاتهم، ويتغذون من ألبانها ولحومها"[1].

وبقيت هذه الحياة البدوية المصبوغة بصبغة الصحراء سمةً للمرابطين، خاصةً وان شيخهم الأول؛ عبد الله بن ياسين قد رباهم على الزهد والتقشف والورع ، وعلى هذا سار الأمراء منهم كيوسف بن تاشفين ، وأبو بكر بن عمر اللمتوني، وغيرهم، إلا أنه وبعد توسع ملك المرابطين وانفتاحهم على حضارة الأندلس وازدهار الاقتصاد في عهدهم حول حياة بعض الأمراء ليعيشوا حياة الترف والدعة، يصور هذا الدكتور محمد السيد فيقول:"إن سيطرة المرابطين على الأندلس وموانيها سهلت الطريق لتجارة السودان للوصول إلى الأسواق الأوروبية والشرق ونتج عن ذلك قيام سوق عالمية للتجارة في العهد المرابطي؛ في سجلماسة وأوداغشت عند الطرف الجنوبي من الصحراء المغربية ونول، وازدهرت صناعة ورق اللمط ونسيج الكتان والصوف كما أنشئت دار لسك النقود في أوداغشت لقربها من بلاد السودان حيث يرد إليها التبر بوفرة مع القوافل الآتية من السودان .

كما نهضت مدينة المرية؛ الثغر الأندلسي حيث قدمت إليها السفن التجارية من الشرق من مصر والشام، وازدهرت فيها ونمت صناعة الحرير والآلات النحاسية والحديد، وغمرتها الفواكه من كل النواحي، وأخذ النفوذ البحري للأسطول المرابطي يعطي دورة في انطلاق التجارة البحرية الإسلامية بسبب الشعور بالأمان في الطرق البحرية المتوسطية.

كما أن سياسة الدولة المرابطية في الاعتدال في فرض الضرائب على التجارة ومناطق عبورها ساعد على إقبال التجار وازداد نشاطهم فازدهرت البلاد وعم

(١) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد ، ص٢٣ .

الرخاء في مجالات أخرى من الزراعة والصناعة في السهول والهضاب وفي الصحارى في جنوب المغرب"[1].

لا شك أن هذا التطور الاقتصادي عاد بأثره البالغ على الحياة الثقافية في دولة المرابطين وتأثر الناس بحياة الرخاء ، خاصة بعد تمازجهم مع أهل الأندلس أعقاب ضمها إلى لواء المرابطين، هذا التأثير لم يقتصر على أهل المغرب فقط، بل أصاب أمراء الدولة، يصف هذا الوضع الدكتور الصلابي فيقول:" من أسباب سقوط دولة المرابطين؛ ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حكام المرابطين في أواخر عصر علي بن يوسف، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقق قول الله تعالى:(وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا) [سورة الإسراء: ١٦]"[2].

ولعل موقف الأمير علي بن يوسف كان مختلفاً لتأثره بالدعة والراحة التي نال منها حظاً وافراً حيث أثرت فيه "البيئة الحضارية التي نشأ فيها علي بن يوسف، إذ كان لوالدته الرومية "قمر" ، ولابتعاده عن الصحراء باستقراره ونشأته في سبتة التي ولد بها عام ٤٧٧هـ ، وتعلمه على أيدي مؤدبين أندلسيين، الأهميةَ في إزالة جفوة البداوة التي كانت لوالده يوسف بن تاشفين قبل عبوره إلى الأندلس، أو حتى بعد عبوره إليها، كما أن إقباله على الثقافة الأندلسية، ووجوده في الأندلس والياً عليها أسهم في بصمه ببعض المؤثرات الأندلسية التي كانت على عهد ملوك الطوائف، وتجلت في مظاهر مدنية راقية جداً، ولعل هذا ما يفسر حرص الأمير على إحاطة نفسه بكبار العلماء والأدباء من أهل الأندلس"[3].

(١) المرجع السابق. ص ١٠٩.

(٢) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد ، ص ٢٣٣.

(٣) الدولة المرابطية، د.حسن جلاب، ص ١٠٤.

" إن أبناء المرابطين الذين ألفوا حياة الشظف والبداوة في الصحراء المغربية قد أفسدهم انتقالهم فجأة إلى ربوع الترف في فاس وأشبيلية وقرطبة وغيرها من المدن الأندلسية، في زمن انصرف فيه الأندلسيون عن حب الحرب والمغامرات، وازداد تعلقهم باللذائذ الفكرية من شعر وموسيقى زرياب وتلامذته، وغناء القيان وسماع صنوج الراقصات البارعات، فأصابتهم عدوى الترف الأندلسي فانغمسوا فيه فعاموا على سطح الملذات والرذائل المدنية"[1] ،، "وانعكس ثراء الدولة في عهد علي بن يوسف على حياة الحكام والرعية على حد سواء، فغلبت حياة الترف والبذخ على سلوك الناس، ومن مظاهر ثراء الرعية في عهد علي بن يوسف استخدامها للرخام الفاخر والزخارف ذات التكاليف الباهضة في عمائرها"[2].

إن هذا الانسياق خلف اللذائذ والمغريات ، هو نتيجة طبيعية لحياة الترف ، فالترف يشغل عن طلب العلم ، ويصد عادةً عن تقبل الخير والاستجابة لأمر الله ولهذا نجد الفرق واضحاً في حياة المرابطين بين عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وعهد ابنه علي؛ الذي جاء في رخاء الدولة وانتعاش اقتصادها.

(١) الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب، الجزء ٢، ص ٣٠١، دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، ط ١ ١٤١٥هـ .

(٢) الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، سلامة محمد الهرفي ، ص٣١١ .

ثالثاً: الاضطرابات السياسية:

كأي دولة يكون لها هذا النفوذ إما على أنقاض دويلات أخرى أو بجوار دول ودويلات لا يعجبها الحال، فسيكون لها أعداء ومتربصون، ودولة المرابطين التي تمددت في المغرب الأقصى من جنوبه إلى شماله ودخلت الأندلس فاستولت عليه، لا شك أنها ستكون عرضةً لتقلبات سياسية كثيرة وخطيرة أثرت سلباً في ثقافتها الإسلامية لما تحمله هذه التقلبات السياسية من فتن وشبه، وقد تحدث الدكتور حسين مؤنس عن الحراك السياسي لدولة المرابطين لتوحيد المغرب فقال: "فأما في المغرب فإن المرابطين هم الذين صنعوا وحدة المغرب الأقصى على النحو الذي ثبتت به في التاريخ، فقد ظل المغرب من ذلك الحين إلى الآن يشمل البلاد الممتدة من ساحل البحر المتوسط إلى وادي درعة، وامتد شرقاً من المحيط الأطلسي إلى شريط من الأرض شرقي نهر المولوية، أما ما يلي هذه الحدود جنوباً وشرقاً، فقد دخلت في المغرب الأقصى حيناً وخرجت عن سلطانه حيناً آخر، ففي العصر المرابطي مثلاً كان الجناح الجنوبي من المرابطين يعمل بنشاط في أفريقية الغربية المدارية، ولكنه كان قد انفصل عن كتلة المرابطين العاملة في الشمال وأصبح دولةً أخرى ذات طابع آخر واتجاه تاريخي آخر، فقد كان هذا الجناح أفريقياً في طبيعته وروحه، وإن كان إسلامياً مغربياً في طراز حضارته، ولم يعد المغرب إلى الامتداد جنوباً إلا أيام سلاطين الشرفاء السعديين ، ولكن ذلك كان اتساعاً سياسياً وليس تغييراً للحدود التاريخية للمغرب، ونقصد بذلك بلاد السنغال وما يليها جنوباً .

وحد المرابطون هذا المغرب الأقصى سياسياً ثم دينياً ، فقد قضوا على بقايا المذاهب المنحرفة من برغواطية وغمارية وما إليها ، وقطعوا دابر المذهب الإباضي والشيعي فيما سادوه من بلاد المغرب الأوسط وإقليم سجلماسة، وإلى المرابطين يرجع الفضل –بعد الله – في الوحدة العقائدية السنية التي تميز المغرب الأقصى، وأتم المرابطون وحدة المغرب الأقصى الثقافية أيضاً ، فقد كان رافع لواء حركة التصحيح الديني فيه فقيه مغربي استعرب من زمن طويل هو عبد الله بن ياسين،

وقد قام بحركته الدينية بصفته فقيهاً عربياً مصلحاً يعمل على نشر الإسلام السني والقرآن ولغة القرآن وثقافة هذه اللغة، وبعد أن تحولت الحركة إلى حركة سياسية على يد يحيى بن عمر بن إبراهيم بن ترغوت ظل الاتجاه الثقافي العربي للحركة كلها مستمراً، ويتمثل هذا فيما يسمى بسيادة الفقهاء في دولة المرابطين، فقد كان لهم دائماً مكان ممتاز في هذه الدولة، وفي بعض الأحيان أخذ سلطان الفقهاء الصورة السياسية"[1] وهذا ما يؤكد أن السياسة المرابطية قامت على منهج واضح ، ولهذا بمجرد أن حدث الاضطراب السياسي للدولة بدأت الثقافة التي حملها المرابطون للمغرب تتأثر سلباً ، ذلك لأن الخلل السياسي حمل معه ثقافةً مضادةً تخالف المنهج الذي عليه ثقافة المرابطين الإسلامية ذات الطابع العقدي الصحيح.

إن هذا الاضطراب السياسي لم يأت إلا بعد أن توسعت رقعة المرابطين فقد "تميز عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بتثبيت أركان دولة المرابطين في المغرب الأقصى، ومن ثم عبور المرابطين إلى الأندلس لنجدتها أولاً، وتحويل الأندلس إلى ولاية مرابطية ثانياً، وبذلك تحملت القوات المرابطية مهمة الجهاد ضد الممالك الإسبانية مما أثقل كاهل هذه القوات والتي فقدت خيرة رجالها"[2] وهذا يعني غياب كثير من حملة الثقافة الإسلامية الذين كان لهم أبلغ الأثر في حياة الدولة، ويتبين لنا من خلال قراءة التاريخ أن الاضطراب بدأ بعد عهد يوسف بن تاشفين ، حيث يقول الدكتور خليل السامرائي: "تميز عهد أمير المرابطين علي بن يوسف والأمراء الثلاثة الذين حكموا بعده بالاضطراب، متمثلاً في قيام حركة المهدي بن تومرت في عدوة المغرب، وبقيام ثورات أهل الأندلس ضد المرابطين، بالإضافة إلى

(١) معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، ص٢١٤، ٢١٥.

(٢) انظر: تاريخ المغرب العربي، عبدالواحد ذنون طه، ص٣٢٢،٣٢٣.

ضعف الأمراء المتأخرين، فتظافرت الأسباب التي عملت على سقوط دولة المرابطين في المغرب والأندلس"[1].

ويصور الفيلالي الحالة السياسية في عهد المرابطين بعد تولي علي بن يوسف مبيناً ما آلت إليه الأمور من اختلاف عما كانت عليه زمن يوسق بن تاشفين فيقول:"لقد خلف ابن تاشفين لعلي قوات برية وبحرية، تمكنت من حفظ أطراف المملكة ثم ضيقت على الأسبان بحراً إلى درجة أنهم لم يعرفوا مع وجودها منفذاً للبحر الأبيض المتوسط إلا ما كان من جهة قطلونية، فإنهم بذلوا جهد طاقتهم في الحصول على منفذ، ومن أجل ذلك استنجدوا بالدول النصرانية من صقليين وإيطاليين ونورمان وفرنسيين، لكن محاولاتهم باءت بالفشل وأعيدت جزيرة ميورقة التي استولى عليها أهل قطالونيا سنة ٥٠٩هـ ، لكن ذلك لم يجعل حداً لمحاولات الأسبان التي استمرت شمال شرق الأندلس، فاشتدت المعارك مع ألفونصو ملك أراغون إلى جانب المعارك التي كان على جيوش المرابطين أن يخوضوها ضد غير الأسبان من قراصنة الإنجليز والألمان في أشتوريش وجليقية؛ طريق جيوش الحروب الصليبية في الشرق.

وهكذا فإن علي بن يوسف الذي واجه أصعب مرحلة من أوليات ملكه لم يجد قواد ورجالات المرابطين وقد بدأوا يتحضرون ما كان لأبيه فيهم من السلطان، قوةً وحزماً ، لأنهم أخذوا يتعرضون للتحول المفاجئ من جهة، ولأن علياً نفسه لم يكن في مستوى والده قوةً ومضاءً وحزماً، الأمر الذي جعله يشتغل بجوانب لم تشغل والده من قبل"[2].

(١) انظر: المرجع نفسه .ص٣٢٣.

(٢) التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، عبد الكريم الفيلالي، ص ٣٧٧.

الفصل الرابع

تحديات الواقع الثقافي الإسلامي في عصر المرابطين، وسبل مواجهتها

المبحث الأول: التحديات الداخلية وسبل مواجهتها.

المبحث الثاني: التحديات الخارجية، وسبل مواجهتها.

المبحث الأول
التحديات الداخلية وسبل مواجهتها

أ – فتنة ابن تومرت وقيام دولة الموحدين:

دولة المرابطين التي قامت على مبدأ تغيير الواقع البئيس الذي عاشه المغرب العربي قبلها، عبرت من أجل هذا التغيير جسراً من المشقة والتعب، وقدم رجالها الأوائل أرواحهم من أجل هذا المبدأ ، ومضت جحافل المرابطين تفتح البلدان وتحررها من ظلامها الذي عاشته إبان فترة البعد عن العقيدة الصحيحة، وقد تطلب هذا الأمر من رجال المرابطين أن يواجهوا قبائل وأحزاباً كانت ضاربةً بجذورها في العمق المغربي، إلا أن المرابطين بتوفيق الله ثم بصبرهم وجهادهم تمكنوا من القضاء على تلك الأفكار والمعتقدات، وأدخلوا الناس في دين الله ، ونشروا العقيدة الصحيحة المبنية على الكتاب والسنة، وعملوا على فعل الخيرات، والنهي عن المنكرات.

ولكن هذه الأفكار والمعتقدات الباطلة، والتي تجذرت في كثير من بلدان المغرب تتفاوت قوتها من مدينة لأخرى، ولهذا بقيت لها في بعض الأمصار جذور وأساسات، وإن كانت قد خضعت هذه الأمصار في الظاهر للمرابطين، إلا أنه ما زال خلف الرماد وميض جمر، ينتظر من يضرم فيه النار من جديد ليقوم فيحرق، وهذا ما حصل مع المرابطين إذ أن بقاء بعض جذور المذاهب المنحرفة، والمخالفة كانت باقية في بعض الأمصار ، فلما سنحت لها الفرصة ، قامت تشتعل من جديد لتشكل تحدياً صارخاً في وجه الدولة المرابطية، ومن هنا بدأ الخلل فيها ، وأصبحت دولة المرابطين عرضةً للانهيار والسقوط.

وعلى الرغم من كل هذا إلا أنه لم يكن هناك تحد أقوى وانكى من قيام دولة الموحدين على يد رجل اسمه: محمد بن تومرت ، فقد "قوض الموحدون دولة

المرابطين، حيث اتهموهم بالانحراف والجمود، والتجسيم، والانحلال، والعجز عن تحرير الأندلس من هجمات المسيحيين، فجاءوا يحملون روحاً ثائرةً ضد الصوفية والمدارس الفقهية، والمذهبية المالكية، التي جاء بها عبد الله بن ياسين، وذلك ليدعموا مذهباً جديداً فيه آراء حزمية[1]، وصوفية غزالية[2]، ونزعة شيعية، وثورة إصلاحية شاملة تأخذ من كل المذاهب الإسلامية المعروفة آنذاك"[3].

إن قيام دولة الموحدين كان في بدايته ثورةً منظمةً تبناها رجلٌ من أخطر رجالات المغرب، ذلكم هو محمد بن تومرت، والذي اشتهر بلقب "المهدي" فمن هو هذا الرجل ، وما ثقافته؟.

المهدي بن تومرت ؛ مؤسس دولة الموحدين:

"لما كانت سنة ٥١٥هـ قام بسوس محمد بن عبد الله بن تومرت في صورة آمر بالمعروف ناه عن المنكر، ومحمد هذا رجل من أهل سوس، مولده بها بضيعة منها تعرف بإيجلي أن وارغن، وهو من قبيلة تسمى: هَرْغَة ، من قوم بإيسرغينَن؛ وهم الشرفاء بلسان المصامدة، ولمحمد بن تومرت نسبة متصلة بالحسن بن الحسين بن علي بن ابي طالب وُجدت بخطِّه؛ وكان قد رحل إلى المشرق في شهور سنة ٥٠١هـ في طلب العلم، وانتهى إلى بغداد ، ولقي أبا بكر الشاشي فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين، وقيل أنه لقي أبا حامد الغزالي بالشام أيام تزهده، فالله أعلم .

وحكي أنه ذُكر للغزالي ما فعل أمير المسلمين بكتبه التي وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها، وابن تومرت حاضر ذلك المجلس، فقال الغزالي حين بلغه ذلك: "ليذهبنّ عن قليل ملكه، وليُقتلن ولدُه، وما احسب المتولي لذلك إلا حاضراً

(١) نسبة لابن حزم رحمه الله، مؤسس المذهب الظاهري.

(٢) نسبةً لأبي حامد الغزالي رحمه الله .

(٣) انظر: الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص٢٠٥.

مجلسَنا" ، وكان ابن تومرت يحدث نفسه بالقيام عليهم، فقوي طمعه، وكرّ راجعاً إلى الإسكندرية، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه، وجرت له بها وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضت إلى أن نفاه متولي الإسكندرية عن البلاد، فركب البحر، فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، على أن ألقاه أهل السفينة في البحر، فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة لم يصبه شيء، فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر، وعظم في صدورهم، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية، فأظهر بها تدريس العلم والوعظ، واجتمع عليه الناس، ومالت إليه القلوب، فأمره صاحب بجاية بالخروج عنها حين خاف عاديته، فخرج منها متوجهاً إلى المغرب، فنزل بضيعةٍ يقال لها ملالة، على فرسخ من بجاية، وبها لقيه عبد المؤمن بن علي، وهو إذ ذاك متوجهاً إلى المشرق في طلب العلم، فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التي كانت عنده.

وخرج ابن تومرت متوجهاً إلى المغرب، حتى أتى مدينة تلمسان ، فأقام بمسجدٍ بظاهرها يعرف بالعباد، جارياً على عادته، وكان قد وضع له في النفوس هيبة وفي الصدور عظمة، فلا يراه أحد إلا هابه، وعظم أمره، وكان شديد الصمت كثير الانقباض،إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة.

ولم يزل مقيماً بتلمسان وكل من بها يعظمه من أمير ومأمور، إلى أن انفصل عنها بعد أن استمال وجوه أهلها وملك قلوبها، فخرج قاصداً مدينة فاس، فلما وصل إليها أظهر ما كان يظمره، وتحدث فيما كان يتحدث به من العلم، وكان جل ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشعرية، وكان أهل المغرب ينافرون هذه العلوم، ويعادون من ظهرت عليه، فجمع والي المدينة الفقهاء وأحضره معهم، فجرت له مناظرة كان له فيها الظهور، فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام، فأمره والي البلد بالخروج، فخرج متوجهاً إلى مراكش.

فلما وصل مراكش، أحضر بين يدي أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وجمع له الفقهاء للمناظرة، ففطن له رجل من أهل الأندلس اسمه مالك بن وهيب، فلما سمع كلام محمد بن تومرت، استشعر حدة نفسه وذكاء خاطره واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله، إلا أن أمير المسلمين توقف في أمر القتل بغير حق، فلما يئس مالك مما أراده من قتل ابن تومرت، أشار عليه بسجنه حتى يموت، فقال أمير المسلمين: علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل؟ ولكن نامره أن يخرج عنا من البلد، ويمضي حيث شاء، فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى سوس ، فنزل بموضع منها يُقال له : تينمل"[1].

هذه سيرة محمد بن تومرت؛ هذا الرجل الذي أسس دولة الموحدين فيما بعد ويبدو واضحاً انه يحمل فكراً وثقافةً جديدة ، وقد ساعده في نشر فكره وبناء دولته ما يحمله من ذكاء خارق، وقدرات هائلة، جعلت حركته هذه تشكل تحدياً واضحاً "فحركة المهدي بن تومرت حركة مغربية مستقلة، وكانت تستند إلى فكرة المهدي المنتظر، كما امتازت بصيغتها المحلية البربرية العميقة، وهي فوق ذلك تمثل معركة قبلية داخلية قامت بين فريقين من القبائل البربرية وهما قبيلة لمتونة (المرابطين) وقبيلة هرغة من مصمودة (الموحدين) ، إضافةً إلى هذا العامل القومي لعب العامل الديني دوراً مهماً في النزاع، فقد كان الجهاد في سبيل الله وإحياء السنة، ومحاربة البدع من أهم شعارات المرابطين، بينما كان شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أبرز شعارات الموحدين"[2].

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، من ص٢٤٥ إلى ٢٥٣ "بتصرف".

(٢) تاريخ المغرب العربي، عبدالواحد ذنون طه، ص٣٣٤.

ثورة ابن تومرت، وقيام دولة الموحدين:

يُعد ظهور محمد بن تومرت، شرارة الانطلاق لدولة الموحدين، والتي بدأت تتكون لتشكل تحدياً واضحاً للمرابطين، حيث تحمل فكراً مختلفاً وثقافةً جديدة على المجتمع المغربي، يقول ابن خلدون واصفاً بداية هذا التكون:

"ولما كملت لابن تومرت بيعته لقبوه بالمهدي، وكان لقبه قبلها: الإمام، وكان يسمي أصحابه الطلبة، وأهل دعوته: الموحدين، ولما تم له خمسون من أصحابه سماهم: آيت الخمسين.

وزحف إليهم عامل السوس؛ أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرْغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتانة، وتينملل فاجتمعوا إليهم وأوقعوا بعسكر لمتونة فكانت مقدمة الفتح، وكان الإمام يعدهم بذلك فاستبصروا في أمره، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وترددت عساكر لمتونة إليهم مرة بعد أخرى ففضوهم، وانتقل لثلاث سنين من بيعته إلى جبل تينملل فأوطنه، وبنى داره ومسجده بينهم حوالي منبع وادي نفيس.

وقاتل من تخلف عن بيعته من المصامدة حتى استقاموا فقاتل أولاً هَزْرَجَة واوقع بهم مراراً، ودانوا بالطاعة، ثم قاتل هسكورة ومعهم أبو دوقة اللمتوني فغلبهم وقفل فاتبعه بنو واسكيت فأوقع بهم الموحدون، وأثخنوا فيهم قتلاً وأسراً، ثم غزا بلد عجرامة ، وكان قد افتتحه وترك فيه الشيخ أبا محمد عطية؛ من أصحابه فغدروا به، وقتلوه فغزاهم واستباحهم"[1] واستمر الموحدون بقيادة ابن تومرت في غزو القرى والبلدان، ودعوة الناس إلى بيعتهم وقتال من يعاندهم حتى نزلوا قريباً من مراكش "فنزلوا البحيرة في زهاء أربعين ألفاً كلهم راجلين إلا أربعمائة فارس،

(١) تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، ص٣٠٣ ، ٣٠٤ (بتصرف يسير).

واحتفل علي بن يوسف الاحتشاد، وبرز إليهم لأربعين من نزولهم؛ خرج عليهم من باب إيلان، فهزمهم وأثخن فيهم قتلاً وسلباً"[1].

كانت هذه البدايات بهذا التنظيم وهذه القوة هي بدايات دولة الموحدين، التي كانت أكبر تحد واجه المرابطين، وأربك دولتهم، وقد تصدى لهم المرابطون في مراكش وأوقعوا بهم إلا أن ابن تومرت كان مصراً على موقفه، وقد قيل له: "إن الموحدين قد هلكوا فقال لهم: ما فعل عبد المؤمن؟ قالوا: هو على جواده الأدهم قد احسن البلاء، فقال: ما بقي عبد المؤمن فلم يهلك أحد"[2].

إن هذا الثبات من ابن تومرت وعنايته برجال دولته المؤثرين رغم هلاك عدد كبير من أتباعه، ليدل دلالةً واضحةً على طموحه الكبير، ورؤيته المستقبلية التي يستشرف من خلالها قيام دولته، وتقويض ملك المرابطين، على الرغم من أن "وقعة البحيرة بمراكش قد استأصلت الكثير من أصحابه إلا أنه ما وهن ولا ضعف ولا تراجع بل كان يقول:"مثل هذا الأمر كالفجر يتقدمه الفجر الكاذب، وبعده ينبلج الصبح ويستعلي الضوء"[3].

(١) المرجع نفسه،ص٣٠٥.

(٢) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس بن أحمد الناصري، الجزء الثاني ص٨١، دار الكتاب، الدار البيضاء، طبعة سنة:١٩٥٤.

(٣) رقم الحلل في نظم الدول، أبوعبدالله بن الخطيب السلماني، ص٥٧، المطبعة العمومية بحاضرة تونس، سنة١٢١٦هـ.

جوانب التحدي عند محمد بن تومرت:

محمد بن تومرت، والذي كان يلقب نفسه بالمهدي كان رجلاً يملك من المقومات ما جعله يشكل تحدياً خطيراً لثقافة المرابطين، خاصةً وانه يعيش بينهم في بلاد المغرب، فقد "كان يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والإلهام وينكر كتب الرأي والتقليد، وله باع في علم الكلام، وغلبت عليه نزعة خارجية، وكان ينتحل الاستقبالية، ويشير إلى الكوائن الآتية، ورتب قومه ترتيباً غريباً ؛ فمهم اهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين، وأهل سبعين، والطلبة، والحفاظ، وأهل القبائل.

فأهل الدار للامتهان والخدمة، وأهل الجماعة للتفاوض والمشورة، وأهل الساقة للمباهاة، وأهل خمسين وسبعين والحفاظ والطلبة لحمل العلم والتلقي، وسائر القبائل لمدافعة العدو"[1] ، وهكذا استمر ابن تومرت في تأسيس دولة الموحدين بهذه الخلفية المخالفة للعقيدة الصحيحة التي عليها بلاد المغرب في ظل حكم المرابطين، ويمكن حصر جوانب التحدي عن ابن تومرت في النقاط التالية:

١. التأثر بالمذهب الرافضي:

من خلال دراسة تاريخ محمد بن تومرت تبين انه يعتنق المذهب الشيعي، وينتصر له بدليل أنه ادعى المهدية، وكان بما حباه الله من العلم والفصاحة، وحفظ الحديث والفقه، والمقدرة على المناظرة والمحاجّة، يعتبر نادراً في زمانه، فاستغل هذه المواهب وادعى المهدية، فأشاع عند الناس أنه الإمام المهدي المنتظر[2]، وقد تبعه كثير من الناس معتقداً بأنه المهدي، وكثر أتباعه في ذلك، وأصبح يشرع لهم من الشرائع ما جعلهم ينقادون له ويأتمرون بأمره.

---

(١) نظم الحلل ، للسلماني، ص٥٧.

(٢) الأنيس المطرب، علي بن أبي زرع الفاسي، ص١٧٣ وما بعدها.

إن هذا الأمر ليؤكد وجود المذهب الرافضي في بلاد المغرب، قال في الأنيس المطرب: " وكان برودانة قوم من الروافض يقال لهم البجلية؛ منسوبين إلى عبد الله البجلي الرافضي؛ كان قدم إلى السوس حين قدم عبيد الله الشيعي إلى أفريقية، فأشاع هنالك مذهبه، فورثه بعده جيلاً بعد جيل، وقرناً بعد قرن لا يرون الحق إلا ما في أيديهم، فقاتلهم الأمير أبو بكر بن عمر، وعبد الله بن ياسين حتى فتح مدينتهم عنوة، وقتل بها من الروافض خلق كثير، فرجع من بقي منهم إلى السنة، وأخذ أموال من قُتل منهم فجعلها فيئاً للمرابطين، وأظهر الله المرابطين وأعلى كلمتهم، ففتحوا معاقل بلاد السوس، وأطاعتهم جميع قبائلها"[1] .

ولكن المعروف ان الرافضة الشيعة يأخذون بالتقية، مما يجعل القضاء عليهم بالكلية أمراً مستبعداً ، "فإن هذه المذاهب خصوصاً الرافضة التي دخلت المنطقة في المائة الثالثة للهجرة، وتوارثته الأجيال ليس من السهل أن نتوقع أن يقضي المرابطون عليها تماماً بهذه المعركة، لكن من المحتمل أن هذه القبائل أعلنت تخليها عن مذهب الروافض، واعتنقت المذهب المالكي تقيةً لها، وفي نفس الوقت تورث أبناءها مذهبها خفيةً"[2] ، والدليل على ذلك ما ذكره الإدريسي، وهو معاصر لآخر عهد المرابطين، وبداية الموحدين، إذ يقول: "وأهل السوس فرقتان؛ فأهل مدينة تارودنت يتمذهبون بمذهب المالكية من المسلمين، وهم حشوية، وأهل بلد تويوين يقولون بمذهب موسى بن جعفر، وبينهم أبداً القتال والفتنة وسفك الدماء وطلب الثأر"[3].

ولا شك أن المذهب الشيعي الرافضي من أكبر التحديات التي تواجه أي دولة تقوم على نشر السنة والانتصار لها، ذلك لما يحمله هذا المذهب من بدع

(١) المرجع السابق. ص٢٩.

(٢) أضواء جديدة على المرابطين، دكتورة: عصمت دندش، ص١٤

(٣) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، ص٢٢٨، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

وخرافات، أملتها أهواء بشر، وجعلوا التقديس فيها للأشخاص، والله تعالى قد ذمّ كل من يسلك هذا المسلك فقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾[سورة الشورى:آية ٢١]

٢. ادعاؤه المهدية:

والمقصود أنه ادعى انه هو المهدي الذي أخبر النبي ﷺ عن خروجه آخر الزمان، وهو من علامات قيام الساعة الكبرى، وادعاء ابن تومرت المهدية جاء صريحاً في خطبته أثناء مبايعته، والتي قال فيها:"الحمد لله الفعال لما يريد، القاضي بما يشاء، لا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدي الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً، يبعثه الله إذا نُسخ الحق بالباطل، وأزيل العدل بالجور، مكانه المغرب الأقصى، وزمنه آخر الزمان، واسمه اسم للنبي عليه الصلاة والسلام، ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم، وقد ظهر جور الأمراء، وامتلأت الأرض بالفساد، وهذا آخر الزمان، والاسم الاسم، والنسب النسب، والفعل الفعل"[(١)].

وقد أورد ابن تومرت بنفسه في كتابه: أعز ما يُطلب ما يؤكد هذا المعنى، فقال:" يُعرف المهدي رضي الله عنه بستة أشياء: الحسَب والنسب والزمان والمكان والقول والفعل ، فأما الحسب، فحسب حزب الموحدي، واما النسب فإنه من ذرية فاطمة، وأما الزمان فيأتي في آخر الزمان، وأما المكان فالمكان الذي قام منه، وأما القول فإنه قال: أنا المهدي (وهو صادق) في قوله، وأما الفعل فإنه يفتح الدنيا

(١) نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان، ابن القطان المراكشي، تحقيق محمد مكي، ص١٢٤-١٢٥، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٩٩٠م .

شرقها وغربها"[1] ، فيتضح من كلامه هذا أنه يتحدث عن نفسه، وأنه تشبع بهذه الفكرة، وبدأ ينتصر لها، ولهذه الفكرة وتبنيها من التبعات ما يدفعه للنضال دونها، ونشرها بين الناس وتجميع الأتباع لها ، "ولقد جعل ابن تومرت من المهدية عقيدة ألزم بها أتباعه، وأضاف إلى هذا المعتقد الذي ادعاه لنفسه أمر العصمة"[2] ، وانتصار ابن تومرت لفكرة المهدية، وتبنيه لها كان طمعاً سياسياً أكثر من كونه انتصاراً مذهبياً، خاصةً وأنه كان يكيل التهم على ملوك المرابطين زاعماً أنهم رؤساء جهال استولوا على الدنيا، ووصفهم بالدجل، مما يؤكد أنه كان يخطط لانقلاب جذري على مرحلة من مراحل المغرب العربي المهمة[3] ، وقد حشد رجاله على ضوء هذه الفكرة التي غرسها فيهم وأقنعهم بها، حتى عظموه، ونصروه بكل ما أوتوا من قوة، وانساقوا خلفه متبعين لما يقول حاملين منهجه، داعين لفكرته ومذهبه، مما جعلهم تياراً قوياً يمثل خطراً وتحدياً صارخاً للمرابطين، والذي ضاعف من خطورة هذا التيار أنه نشأ بينهم ، وخرج من داخلهم.

"لقد كان ابن تومرت يشعر بشعور قبيلته الأم "مصمودة"، التي كانت تعاني من ضنك حكم المرابطين، ولعله فكر في أقصر طريق يمكن ان يخلص بواسطته قومه من سلطان المرابطين، ومن المرجح أنه أخذ يتفحص أحوال دولة المرابطين ليجد له منفذاً ينفذ من خلاله ليعمل على الإطاحة بها، فوجدها ما زالت في أوج مجدها السياسي، والعسكري، والحضاري، وتقوم بتحكيم الشرع، عندها أدرك أن أي ثورة ستقوم ضدها سيكون مصيرها الفشل إذا لم يكن لديها مبررات أقوى من الأسس التي قامت عليها دولة المرابطين، وأخذ ابن تومرت يبحث عن السبيل الذي يوصله إلى تحقيق طموحاته، وبالتالي طموحات قومه، فوجد ضالته من طريق

(١) أعز ما يطلب، محمد بن تومرت، تحقيق د.عبدالغني أبو العزم، ص٤٠٠، مؤسسة الغني للنشر، الرباط،ط ١٩٩٧م.

(٢) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص٢٨١.

(٣) انظر: أعز ما يطلب، محمد بن تومرت، ص٢٠ "مقدمة التحقيق".

ادعاء المهدية"[1] ، وقد سبق هذا الادعاء سعي حثيث في الأرض لطلب العلم، ومجالسة أهله، فقد جلس إلى الإمام الغزالي، وغيره من فقهاء بلاد المغرب كما سبق.

٣. خروجه على أمير المسلمين:

فكرة الخروج على ملك المرابطين وحكمهم كانت تراود ابن تومرت منذ أن تبنى أفكاره المخالفة لهم، وقد كانت الروح الثورية لدى ابن تومرت تجعله يتحين الفرص ويستغل الأحداث للخروج على أمير المسلمين، وحشد الجماهير لذلك، بل ربّى خاصة تلاميذه على ذلك، وجعل فكرة الخروج وتكوين دولة مستقلة باقية في أصحابه، وقد تولاها من بعده تلميذه وأقرب الناس إليه؛ عبد المؤمن بن علي.

إن التنظيم المحكم الذي بدأ به ابن تومرت لأصحابه والتابعين له، ليؤكد أنه كان يرتب للخروج على سلطان المرابطين، ولا أدل على ذلك من تصدره في كثير من المواقف باسم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل وصل به الأمر إلى أن تقدم في إحدى المرات وجلس في المسجد الجامع بمراكش حيث يجلس أمير المسلمين علي بن يوسف، ولما نُهي عن ذلك، قرأ قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [سورة الجن:آية ١٨] ، ثم بعد صلاة الجمعة قام ووجه الخطاب إلى الأمير علي بن يوسف وأغلظ عليه وطلب منه أن يغير المنكر الذي في بلاده[2].

لقد استغل ابن تومرت ما يتمتع به من علوم ومعارف وفصاحة وبيان للطعن في حكم المرابطين، "وكان المهدي أوحد عصره في علم الكلام وعلوم الاعتقاد، حافظاً للحديث والفقه، له لسان وفصاحة، فأخذ يشيع عند الناس أنه الإمام المهدي المنتظر، وأخذ يستنقص المرابطين ملوك المغرب ويطعن فيهم، وينسبهم إلى الكفر والتجسيم، ويدعو إلى خلع طاعتهم"[3].

---

(١) الأحوال السياسية لدولة المرابطين، سلامة محمد الهرفي ، ص١٠٠.

(٢) انظر: التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، عبد الكريم الفيلالي، ص٣٩٥ وما بعدها.

(٣) الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي، ص١٧٣ (بتصرف يسير).

إن الخروج على ولي الأمر الشرعي ، والحاكم الذي ولاه الله بلاداً يحكم فيها بشرع الله، ويقيم فيها دين الله، بل ويجاهد في سبيل ذلك، يعتبر شقاً مؤذناً بخراب الديار، وتقسيم الناس، وقد وردت الأدلة الشرعية من كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ تحذر من مخالفة ولي الأمر، وتوجب طاعته في غير معصية الله تعالى، وقد قال الله تعالى في كتابه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء:آية ٥٩].

وفي الحديث عن العرباض بن سارية ﷺ قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ، قال : (أوصيكم بتقوى الله ، والسمع والطاعة ، وإن تأمر عليكم عبد ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافا كثيرا ، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، عضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة) .[1]

ولم يكتف ابن تومرت بشق عصا الطاعة، بل حشد الجنود وجيش الجيوش لحرب المرابطين وقتالهم، بعد أن أقنع أتباعه بأنه لا بيعة للمرابطين لما وقعوا فيه من المنكرات بحسب زعمه، وحين انتقل إلى تينملل عمد إلى الجبل منها وسكنه ليكوِّن أتباعه "ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول المهدي إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره، فجاءوه من كل فج عميق، وتبركوا بزيارته، وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على السلطان، فإن أجابه أضافه إلى خواصه، وإن خالفه

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣)، برقم ١٧١٤٤، وأبو داود، باب في لزوم السنة، (٤/ ٣٠٠)، برقم ٤٦٠٧، والترمذي ، باب ما جاء بالأخذ بالسنة، (٥/ ٤٤)، برقم ٢٦٧٦.

أعرض عنه، وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة"[1] ، وكان يجلس إليهم يحدثهم "وجعل يعظهم ويذكرهم بأيام الله ويذكر لهم شرائع الإسلام وما غيّر منها، وما حدث من الظلم والفساد، وأنه لا يجب طاعة دولة من هذه الدول لاتباعهم الباطل بل الواجب قتالهم ومنعهم عما هم فيه"[2].

تمكن ابن تومرت من استمالة قلوب القوم، وكوّن جيشاً ليسقط به ملك المرابطين، ولا شك ان هذا التحدي الكبير الذي يواجه المرابطين سيكون خطراً كبيراً على ثقافة بلاد المغرب التي حكمها المرابطون بعقيدة سنية ومذهب مالكي.

انتقل ابن تومرت إلى مرحلة الهجوم والمواجهة "ولما كانت سنة ٥١٧هـ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة، جلّهم من أهل تينمل، مع من انضاف إليهم من أهل سوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم لهم ما لكم ، وعليهم ما عليكم ، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم فقد أباحت لكم السنة قتالهم"[3].

بهذه التعبئة المستمرة تمكن ابن تومرت من شق الصف المرابطي وإحداث فتنة عظيمة في بلاد المغرب كان من نتائجها تقويض ملك المرابطين، وإفساد ثقافة أهل المغرب بما يحمله من هذه الأفكار المختلفة التي بنى عليها دولة الموحدين.

(١) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، ، أبو العباس بن أحمد الناصري، ص٧٨.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، ص١٩٧، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢ ١٤١٥هـ.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص٢٥٩، ٢٦٠ .

تصدي المرابطين لفتنة محمد بن تومرت:

أدرك المرابطون أن التحديات التي تواجههم بعد استقرار أمرهم في المغرب، تحتاج لمواقف حازمة وعاقلة، وإن كانت مواقفهم أحياناً يشوبها الضعف، وينقصها حُسن التقدير لمآلات الأمور، كموقف الأمير علي بن يوسف من محمد بن تومرت عندما عُرض عليه في بادئ أمره، فلما كلمه فيما جاء به من الإنكار ومخالفة الفقهاء، قام ابن تومرت بوعظ الأمير وتذكيره ببعض المنكرات الموجودة في بلاده فرق الأمير وبكى لذلك، وقد كان هذا دهاءً من ابن تومرت حمى نفسه به من القتل، ولما عُرض على الأمير قتله أبى تورعاً، وقال بأن الأمر لا يحتمل القتل، ثم عرض عليه مالك بن وهيب أن يسجنه، وينفق عليه، فوافق، لكن وزيره[1] اعترض على ذلك، وقال: يقبح بالأمير أن يبكي من وعظه، ثم يسيء إليه في مجلسه، وكيف تُظهر ضعفك وأنت سلطان، من رجل ضعيف؟ ، فأخذته نخوته، وأمر بإطلاقه.[2]

لقد كان هذا التصرف من أمير المرابطين مأخذاً عليه في الواقع، لكن لما استفحل أمر ابن تومرت، وأدرك المرابطون أنه يشكل خطراً حقيقياً على ثقافتهم ومبادئهم، قاموا بالتصدي له بكل ما استطاعوا، وقد سلك المرابطون في سبيل ذلك السبل التالية:

١ . الاستدعاء والمناظرة:

"كان المهدي وأصحابه مقيمين في مسجد خراب خارج البلد، فطلبوهم فلما ضمهم المجلس قال الملك لعلماء بلده: "سلوا هذا الرجل مايبغي منا؟" فانتدب له قاضي المرية؛ واسمه محمد بن أسود، فقال: ما هذا الذي يُذكر عنك من الأقوال في حق الملك؛ العادل؛ الحليم؛ المنقاد إلى الحق؛ المؤثر طاعة الله تعالى على هواه؟ . فقال له المهدي: أما ما نُقل عني فقد قلته، ولي من ورائه أقوال، وأما قولك: أنه يؤثر طاعة

(١) هذا الوزير هو: ابن ينتان كما ذكر ذلك ابن أبي زرع في روض القرطاس.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي، ص ٥٤٣ ، ٥٤٤.

الله على هواه، وينقاد إلى الحق فقد حضر اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم بتعريه عن هذه الصفة أنه مغرور بما تقولون له، وتضرونه به، مع علمكم أن الحجة متوجهةٌ عليه، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع جهاراً؟! وتمشي الخنازير بين المسلمين؟! وتؤخذ أموال اليتامى؟! وعدّد من ذلك شيئاً كثيراً . فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه وأطرق حياءً، ففهم الحاضرون من فحوى كلامه أنه طامع في المملكة لنفسه، ولما رأوا سكوت الملك وانخداعه لكلامه لم يتكلم أحد منهم، فقال مالك بن وهيب، وكان كثير الاجتراء على الملك: أيها الملك، إن عندي لنصيحة، إن قبلتها حمدت عاقبتها، وإن تركتها لم تأمن غائلتها، فقال الملك: ما هي؟ قال: إني خائف عليك من هذا الرجل، وأرى أن تعتقله وأصحابه، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكتفي شره، وإن لم تفعل ذلك لتنفقن عليه خزائنك كلها، ثم لا ينفعك ذلك، فوافقه الملك على ذلك، فقال له وزيره: يقبح منك أن تبكي من موعظة هذا الرجل ثم تسيء إليه في مجلس واحد، وأن يظهر منك الخوف منه مع عظم ملكك، وهو رجل فقير لا يملك سد جوعه، فلما سمع الملك كلامه أخذته عزة النفس، واستهون أمره وصرفه، وسأله الدعاء"[1].

يظهر من هذا أن ثمة مقاومة لهذا الفكر الدخيل على ثقافة أهل المغرب، فطن لذلك فقهاء الدولة وعلماؤها، وإن كان موقف الأمير في هذا الوضع بالذات لم يكن بالصورة التي تجب عليه، وربما منعه ورعه من الاستجابة لما أشار به عليه ابن وهيب، أو لأنه لم يستوعب بعد خطر ابن تومرت، والذي أدركه ابن وهيب وغيره، لكن هذا النقاش وهذه الآراء من فقهاء الدولة المرابطية كانت تشكل مقاومةً استشعرها ابن تومرت نفسه، وخشي منها، لذا آثر الخروج من مراكش والبعد عن الفقهاء الذين تنبهوا له، دفعه لذلك ما يتمتع به من ذكاء خارق، واستشراف للمستقبل،"فلما خرج محمد وأصحابه من عند الملك قال لهم: لا مقام لنا بمراكش

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلكان، المجلد الخامس.ص٤٩، ٥٠ .

مع وجود مالك بن وهيب، فما نأمن من أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه، وإن لنا بمدينة أغمات أخاً في الله، فنقصد المرور به فلن نعدم منه رأياً ودعاءً صالحاً"[1] .

هكذا كان ابن تومرت حذراً لأنه استشعر من خلال موقف ابن وهيب أن ثمة خطراً عليه وعلى دعوته، ولا شك أن هذا الموقف من مالك بن وهيب لم يكن موقفاً فردياً، وإلا لما خاف ابن تومرت وخرج من مراكش، ويؤكد هذا قوله الآنف: فما نأمن من أن يعاود الملك في أمرنا فينالنا منه مكروه.

ثم إن انطلاقه إلى أغمات ولجوءه إلى شخصٍ يعرفه وتربطه به علاقة وثيقة يؤكد أيضاً شدة الخوف الذي كان يشعر به، واستشعاره مقاومة أهل المغرب لفكره الخارج عن ثقافة الدولة المرابطية.

حتى بعد أن خرج من مراكش إلى أغمات نصحه صديقه بأن يذهب إلى تينملل،حيث قال لهم:"هذا الموضع لا يحميكم، وإن أحصن المواضع المجاورة لهذا البلد تين مل[2]، وبيننا وبينها مسافة يوم في هذا الجبل، فانقطعوا فيه برهة ريثما يُنسى ذكركم"[3] .

وهناك في الجبل بدأ ابن تومرت ينشر دعوته،"ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد إليهم، وكان قد سار فيهم ذكره، فجاءوا من كل فج عميق، وتبركوا بزيارته، وكان كل من أتاه استدناه وعرض عليه ما في نفسه من الخروج على الملك، فإن أجابه أضافه إلى خواصه، وإن خالفه أعرض عنه، وكان يستميل الأحداث وذوي الغرة"[4] ويجمع له الأتباع، لكن المقاومة من أهل العلم والرأي ما زالت

(١) المرجع السابق، ص٥٠.

(٢) هكذا حكاها ابن خلكان في الوفيات.

(٣) المرجع السابق، ص٥١.

(٤) المرجع السابق.ص٥١.

موجودة، "وكان ذوو العقول والعلم والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من اتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك، فكان لا يتم له مع ذلك حال، وطالت المدة وخاف محمد"(١).

هكذا يتبين مقاومة أهل الرأي والعلم، والعقلاء من الناس لهذا الفكر الدخيل، وهذه الثقافة الجديدة التي بدأت تظهر، وهذا يؤكد ضرورة نشر الثقافة السليمة الصحيحة التي تحفظ للمجتمع تماسكه، فكلما انتشر العلم والفكر الصحيح كلما كان الداعي إلى نبذ الفكر الدخيل، والثقافة المسمومة أقوى.

٢ . المواجهة المسلحة:

بدأت مرحلة المواجهة لابن تومرت بمجرد أن غادر مجلس الأمير علي بن تاشفين، إذ أن الأمير، وعلى الرغم من إظهاره التهاون بأمر ابن تومرت إلا أنه كان متوجساً من حركته، خاصةً بعد أن أمره بالخروج من مراكش حيث خرج منها "فبنى خيمةً بالجبانة بين القبور بقرب المدينة، وقعد بها، فكان يأتيه بعض الطلبة فيقرأون عليه ويأخذون عنه حتى كثر عليه الجمع، واجتمع عليه أتباعه وتلاميذه وتكاثر الناس عليه، وامتلأت قلوبهم له محبةً ومهابةً وتعظيماً، فأعلم الخاصة منهم بالذي قصده وبما يريده، وأخذ يطعن على المرابطين ويقول: هم كفار مجسمون، وغزوهم واجب على كل من يعلم أن الله تعالى واحد في ملكه أوجب غزو الروم والمجوس، وتابعه على ذلك ما يزيد على ألف وخمسمئة، فرفع خبره إلى أمير المسلمين؛ علي بن يوسف، وعرف أنه يطعن في دولته ويكفرهم، وأنه قد كثر أتباعه على مذهبه، فبعث إليه فقال له: أيها الرجل : اتق الله في نفسك، ألم أنهك عن عقد الجموع والأحزاب، وأمرتك بالخروج عن المدينة؟ فقال: قد امتثلت أمرك وخرجت عن المدينة إلى الجبانة، فبنيت خيمةً بين الموتى، واشتغلت بطلب الآخرة، فلا تسمع

(١) المرجع السابق، ص٥١.

لأقوال المضلين، فأغلظ له أمير المسلمين بالقول وتوعده بالنكال، وهم بالقبض عليه"[1].

بعد أن تمكن محمد بن تومرت من جمع أنصاره، وكون قوته في جبل تينملل كما سبق، بدأ في التحدي الظاهر للخروج العلني على المرابطين، وبدأ يظهر جلياً بغضه للمرابطين، وحرصه على الخروج عليهم، وتقويض ملكهم، وشنّ على مواقع المرابطين هجمات متتالية، انتصر في أكثرها، حتى أصبح قوةً لا يُستهان بها، فبدأ يفكر في غزو مراكش؛ عاصمة الدولة المرابطية ، "ولما كانت سنة ٥١٧هـ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة، جلهم من أهل تينمل، مع من انضاف إليهم من أهل سوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين؛ الذين تسموا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالمهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، لكم ما لهم ، وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم، فقد أباحت لكم السنة قتالهم"[2].

لكن المرابطين تصدوا لهذه الهجمات ، ولم يتركوا لابن تومرت أن ينال من بلادهم، قال المراكشي:

" وخرجوا قاصدين مدينة مراكش، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى البحيرة، بجيش ضخم من سراة لمتونة، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت، فردوا عليهم أسوأ رد، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت، فرد عليه أمير المسلمبن يحذره عاقبة مفارقة الجماعة، ويذكره الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة، فلم يردع ذلك عبد المؤمن، بل زاده طمعاً في المرابطين، وحقق عنده ضعفهم، فالتقت الفئتان، فانهزم المصامدة، وقتل منهم

(١) الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي.ص١٧٥.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، ص٢٦٠.

خلق كثير، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال: أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: بلى، قال: لم يُفقد أحد !!"[1].

استمرت المواجهات بين جيش المرابطين والموحدين ولم تنته عند وقعة البحيرة الشهيرة، وكانت المواجهات في أكثر من موقع، وقد كان لهذه المواجهات الأثر الكبير في إضعاف دولة المرابطين.

(١) انظر: المرجع السابق. ص٢٦٠، ٢٦١.

ب: الثورات الأندلسية

دخل المرابطون الأندلس سنة ٤٧٩هـ ، وذلك بعد أن استنجد المعتمد بن عباد بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين لمواجهة تهديد الروم، والذين باتوا يشكلون خطراً على بلاد الأندلس، وهي إذ ذاك مقسمة إلى ممالك وطوائف مختلفة[١].

رحب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بهذه الدعوة، وهب لنصرة إخوانه في بلاد الأندلس وحشد جنوده لنجدة إخوانهم ، ونزل بمكان يقال له: الجزيرة الخضراء ، حيث اتفق مع المعتمد بن عباد على إخلائها للمرابطين، لتكون منطلق جهادهم لتوحيد الأندلس[٢] .

"ثم بدأ تحرك القوات المحتشدة من الجزيرة الخضراء متجهة إلى أشبيلية بقيادة أبي سليمان؛داود بن عائشة، وهناك قابل الجموع التي دفعها الحماس للانضام إلى جيش المرابطين، واجتمعت جيوش الأندلس من جميع الأنحاء، وأخذ يوسف بن تاشفين ينظمها، فجعل معسكرين؛ معسكر للأندلسيين ، ومعسكر للمرابطين.

لقد ارتفعت الروح المعنوية للأندلسيين، وهبت عليهم رياح الوحدة، فكان هذا إضافة على القوة الحربية التي ظهرت حين عبرت جيوش المرابطين وصاروا هم والأندلسيين جبهة إسلامية متحدة، تقف صفاً واحداً في مواجهة الجبهة التي فاجأتها الصورة الجديدة التي صار عليها المسلمون"[٣].

وهكذا بدأ المرابطون يرسمون معالم الأندلس الجديد، الأندلس المتحدة مع المغرب العربي تحت راية واحدة، وتمكن القائد الفذ يوسف بن تاشفين من جعلها قوةً يهابها الأعداء المتربصون، وتم درء أخطار النصارى عن بلاد المسلمين في

---

(١) انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشى، ص١٩٠ وما بعدها.

(٢) انظر: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، عبد الهادي التازي، المجلد الخامس، ص٦١ ،مكتبة الأسكندرية،١٤٠٧هـ.

(٣) تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، ص٣٢. ٣٣ (بتصرف يسير).

الأندلس، واستقر الأمر بعد جهاد النصارى، وجمع شتات الأندلس ونزع ملوك الطوائف الذين لم يتفقوا، بل اختلفوا على الملك والأطماع الدنيوية، وفي سنة ٤٩٨هـ، وبعد أن قوي الإسلام في الأندلس وعز المسلمون بفضل الله ثم بجهاد المرابطين ضد أعداء الدين، أسند يوسف ولايته للعهد إلى ولده علي بن يوسف، ثم رجع للمغرب.(١)

لقد كان عهد الأمير يوسف بن تاشفين حافلاً بالخير "أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة، في رفاهية عيش، وعلى أحسن حال، ولم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة إلى حين دخوله إليها، قدّم أشياخ المرابطين فيها، وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل"(٢) .

استمر الوضع في الأندلس تحت سيطرة المرابطين "ولما ولي علي بن يوسف بعد أبيه اضطلع بالأمور أحسن الاضطلاع، وقام أحمدَ قيام، وكان يقصد مقاصد العز في طرق المعالي، ويحب الأشراف، ويقلد العلماء، ويؤثر الفضلاء، وكان كثير الصدقة، عظيم البر، جزيل الصلة، وألبسه الله المهابة، وقذف له في القلوب المحبة، فاجتمعت عليه الأمة، واتفقت الكلمة"(٣) .

وبعد وفاة الأمير علي بن يوسف بدأت الأمور في بلاد الأندلس تضطرب في عهد تاشفين بن علي، والذي تزامن عهده مع ظهور أمر الموحدين في المغرب، واستفحال أمرهم، حيث انشغل الأمير تاشفين بن علي بمناجزتهم وقتالهم، وعندها بدات الدولة المرابطية تضعف وتتفرق، ولم يتمكن الأمير تاشفين من القضاء على الموحدين، ولكنه أنهك وحوصر ثم مات بعد ذلك بعد أن عدا به فرسه وسقط ،

(١) انظر: المرجع السابق، ص٣٤.

(٢) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.ص٨٢.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٨٤.

وكان ذلك سنة ٥٣٩هـ [١] ، وقد لخص ابن الخطيب الحالة بعد موته رحمه الله فقال: " واستثقل الأمير تاشفين أمر الأندلس بعد موت أبيه بما دهمه من حروب المهدي واستيلائه على المغرب، فلم يُلقِ إلى الأندلس رأساً، وجاء القدَر من إتيان الهزائم عليه، وتنكُّب السداد إياه، بخلاف ما جرى به الأمر أيام إمارته وجهاده بالأندلس، ليقضي الله أمره، إلى أن هلك في السابع والعشرين لرمضان سنة ٥٣٩هـ ، وعادت هيفٌ إلى أديانها، وتفرقت الكلمة إلى شانها، ولفحت النار جدر الثوار، وأصبحت الأندلس دار البوار"[٢].

"كان من الطبيعي أن تنعكس أحداث المغرب على شبه الجزيرة الأندلسية ويكون لها رد فعل عنيف على الحكم المرابطي بها، والذي اتخذ شكل ثورة عارمة اجتاحت الأندلس من غربها إلى شرقها، وكأن هؤلاء الثوار انتظروا هذا التوقيت حتى تقوم قومتهم بعد وفاة الأمير تاشفين بن علي.

ولكن المستغرب في هذه الثورة ليس توقيتها وسرعة اشتعالها فقط، بل تسرع أولئك المنتزين في الحركة، والوثوب بالأمر دون روية أو تفكير في عاقبة هذا الأمر، أو فيما يحيط ببلادهم من أخطار، وتوثب النصارى لهذه الفرصة للانقضاض على البلاد الممزقة بين هؤلاء الخارجين على الحكم"[٣].

لقد كانت الثورات في بلاد الأندلس من أكبر التحديات التي واجهت المرابطين، حيث أنها ثورات تبناها فقهاء وعلماء ألبسوها لباس الدين، ثورات تتعارض مع الثقافة المرابطية النابعة من العقيدة الصحيحة التي بنيت عليها دولة

(١) انظر: الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس بن أحمد الناصري، الجزء الثاني، ص٦٥،٦٤.

(٢) أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب السلماني، تحقيق ليفي بروفنسال، ص٢٤٧- ٢٤٨، دار المكشوف، بيروت، ط٢ ١٩٥٦.

(٣) الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصمت عبد اللطيف دندش، ص٤٩، دار الغرب الإسلامي، ط١ ١٤٠٨.

المرابطين في المغرب وامتدت للأندلس، ولم تكن هذه الثورات ذات مسوغ أو مبرر معقول، بل كانت من أجل تغيير الحكم والخروج على المرابطين.

"ربما ضاق الأندلسيون بهذه الروح الدينية التي تمسك بها المرابطون، خاصةً بعد أن تعودوا حالة التحلل الديني والخلقي في عهد الطوائف، فثقل عليهم هذا الحكم، والأندلسيون شعب قُلّب شرود كثير الشغب، ومع ذلك فلم يذكر عن المرابطين أنهم تعرضوا للأندلسيين في حياتهم العامة أو الخاصة، إذ كان شغلهم الشاغل هو الجهاد وطلب الدعاء من الأندلسيين وإخلاص النية والتضرع لله وسؤاله النصر والمعونة لعله يعفو عما انغمس فيه هؤلاء من مفاسد، وكان هذا المطلب البسيط من أهل الأندلس لا يجد الأذن الخاشعة خوفاً من الله، بل ازداد انغماسهم في لهوهم وشرابهم، تاركين أمر الدفاع عن بلادهم لغيرهم"[1].

لقد أفرزت الاضطرابات في الأندلس أفكاراً متعددة، ومذاهب متفرقة، وانقسم الناس كل حسب ميوله وما يراه مناسباً له، وهذه الفرقة تحدث دائماً عند انفلات الزمام، وشق عصا الطاعة، والخروج على ولي الأمر.

لقد ضجر أقوام من أهل الأندلس من هذا الحال فآثروا اعتزال الناس والحياة، ولجأ فريق من الناس إلى التزهد والتصوف فنأوا بأنفسهم عما يحدث في هذا المجتمع من انحلال، حتى من كان معارضاً لتيار التصوف كالقاضي ابن العربي، فقد آثر هو أيضاً طريق العزلة والبعد عن الفتن.

وقد انتشرت البؤر الصوفية في جل المدن الأندلسية في القرن السادس الهجري وكانت الفرق الصوفية بها تشكل حزاماً يمتد من شرق الأندلس إلى غربها[2]، ولهذا كان من أكبر التحديات الداخلية التي واجهت الواقع الثقافي الإسلامي

(١) الأندلس في نهاية المرابطين، عصمت دندش، ص٤٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٠.

للمغرب العربي في عصر المرابطين هي فتنة المريدين، والتي ظهرت في شكل ثورة كبيرة.

ثورة المريدين (ثورة ابن قسي):

المريدون هو لفظ يطلق على أتباع التيار الصوفي ممن تأثر به،

تعدد الثوار والمنتزون في أعقاب دولة المرابطين، مثل ابن وزير؛ شيخ أهل غرب الأندلس، وابن عياض الأمير بشرقي الأندلس، ولبيد بن عبد الله صاحب سنترين، وغيرهم، إلا أن أشهر هؤلاء الثوار، والذي تعتبر حركته من اكبر التحديات التي واجهت الثقافة المرابطية، هو: ابن قسي[1].

وابن قسي هو: "أحمد بن الحسين بن قسي؛ أبو القاسم ، أول الثائرين بالأندلس عند اختلال دولة الملثمين، وهو رومي الأصل من بادية شِلب، نشأ مشتغلاً بالأعمال المخزنية[2]، ثم تزهد – بزعمه – وباع ماله وتصدق بثمنه، وساح في البلاد، ولقي أبا العباس بن العريف بالمرية، قبل إشخاصه إلى مراكش، ثم انصرف إلى قريته، وأقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر، وهو يستجلب أهل هذا الشان محرضاً على الفتنة وداعياً إلى الثورة في الباطن، ثم ادعى الهداية مخرقةً وتمويهاً على العامة، وتسمى بـ (الإمام) وطُلب فاستخفى"[3].

كانت ثورة أبي القاسم بن قسي أول ثورة بالأندلس، وكانت في أواخر العهد المرابطي، وتسمى بثورة المريدين، إذ كان هذا الرجل شيخاً من مشايخ الصوفية، المسمى أتباعهم بغرب الأندلس بالمريدين، وهذه الطائفة قد كثرت يوماً بغرب

---

(١) انظر: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب السلماني.ص٢٤٨.

(٢) يقصد بها الأعمال الحكومية، وهو مصطلح مغربي. انظر الحلة السيراء لابن الأبار ، هوامش المحقق: حسين مؤنس، ص١٩٧.

(٣) انظر: الحلة السيرَاء، أبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، المعروف بابن الأبّار، ص١٩٧، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط٢ ١٩٨٥م.

الأندلس، خاصةً في مدينة شِلْب، والتي ينتمي لها ابن قسي، وقد كثر خوض هؤلاء القوم في كتب التصوف وكتب الباطنية، والكلف برسائل إخوان الصفاء ونحوها، وقد انتشر هذا الرأي بشِلْب وما حولها، وكثر الأتباع وبدأوا في التجمع، ثم خافوا بعد ذلك صاحب الدولة فتفرقوا، ثم استقروا بعد ذلك في المرية[1].

لقد انتشر التصوف في بلاد الأندلس، وعمّ كثيراً من الأقاليم بها ، لكن أشده كان في غرب الأندلس حيث انطلاق هذه الثورة، "وكان الغرب يضم عدداً من زعماء المريدين خاصةً في مدينة شلب كأبي القاسم؛ أحمد بن قسي، وأبي الوليد بن المنذر ، وأبو عبد الله محمد بن سالم"[2] .

"لقد كان أبو القاسم بن قسي هذا في زمان شبيبته مُشرفاً بشلب من عمل أشبيلية، إلى أن أظهر، وتصدق بجميع ماله، وتطوف على الأندلس، وابتنى رابطةً بقرية جلة من قرى شلب، كان يجمع بها دائرته التي دارت بها على الأندلس دائرة السوء، وادعى الولاية، وتسمى بالمهدي، وكثرت مخاريقه، حتى اشتهر عنه أنه حج من ليلته، ويناجي بما شاء، وينفق من الكون. وتتابع الناس إليه بالرحيل، واتصل به أقوام من أهل البيوتات والأجناد، منهم ابن وزير، ومحمد بن المنذر؛ من أهل شلب، وأمثالهم من الأعيان.

واللمتونيون في أثناء هذه الحال انقطعت عنهم مواد المغرب بما دهمه من فتنة المهدي (ابن تومرت) ، وتحامل الناس عليهم لما كثر الشتات في الأندلس، وكثر التعدي في الطرقات، والفتك بالناس في الشوارع، وأوعز ابن قسي إلى أحد من طائفته أن ينتهز الفرصة في حصن منتقوط، فاهتبل الغرة فيه، وتغلب عليه في شوال من عام ٥٣٨هـ ، وبادره المرابطون بجهته قبل أن يستعد، فأنزلوه منه وقتلوه.

---

(١) انظر: المرجع السابق،ص١٩٨.

(٢) الأندلس في نهاية المرابطين، عصمت عبد اللطيف دندش، ص٥٤.

كان ابن قسي يغالط أصحابه ويقول: "إنما مثله كالفجر الكاذب، وبعده يطلع الفجر الصادق ويصبح نهاراً" ، ثم خاف ابن قسي عند القبض على المذكور، فخرج إلى جهة مَرْتُلة من حصون الغرب، فاستقر عند قوم يعرفون ببني السنة، وكان من اصحابه رجل يسمى محمد بن يحيى ويعرف بابن القابلة، وكان فريد دهره صرامةً ودهاءً وشجاعةً وبلاغة، رسائله مشهورة وفصاحته مذكورة، رمى به غرضه، وجعله سيف ثورته وعضد دولته، وعيّنه لغدر مرتلة، فخرج إليها من المكان الذي اختفى فيه ابن قسي بقرية الجوزة من قُطر مرتلة في سبعين رجلاً من المريدين، وكان قائد حصن مرتلة قد واعد رجلاً من أهلها على الإتيان إليه في الليل برشوةٍ حال استتارٍ من أهل الحصن، وقدم الوصاية بذلك إلى بوابه، ونمى إليهم الخبر، فأوهموا باتخاذ رفقة صعد بها بعضهم إلى الحصن، ولم يشك صاحبه أنها رفقة ميعاده الخبيث، ففتح الباب، واقتحم القوم الحصن، فملكوه، وبادر محمد بن القابلة إلى تسكين الناس وضبط الحصن، وزحف إليه المرابطون بتلك الجهة، فم يغنوا شيئاً، وارتحلوا بعد تخريب قطر مرتلة، وتداعت عامة ما يجاورها إلى الثورة، فقام اهل بابرة ملتفين على ابن وزير؛ عميدِهم ، وتوجه ابن قسي إلى مرتلة، فاحتل بقصبتها المنيعة غرة ربيع الأول عام ٥٣٩هـ، وبث للحين عقيدته، وتسمى إماماً، وكتب إلى البلاد يندب الناس إلى الثورة على المرابطين، واتصل به الأشرار، وأجزل العطاء من غير عمل ولا خراج، وكان إذا أعطى يحثو بيده من غير عدد، وكان أصحابه يقولون للناس إن المال يتكون عنده إذا فرغ[1] .

لقد كانت ثورة ابن قسي في منهجها وروحها تشبه إلى حد كبير خروج ابن تومرت في المغرب، بل كانت قريبةً جداً من وقت خروجها، وكان الدافع لهذا هو حب السلطة والوثوب على الدولة المرابطية التي لم يجد فيها أصحاب التصوف

(١) انظر: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب السلماني، من ص ٢٤٨ – ٢٥٠

والأهواء مكاناً لهم، ولأن الناس أهل دين ويحبون دينهم ويريدون أن يعيشوا من أجل ذلك، كان الخطاب الثوري نابعاً من الدين فيما يبدو للعامة، ولهذا تشترك هذه الدعوات الثورية في الخطاب التعبوي الذي يوجه للعاطفة المجردة بعيداً عن تحكيم العقل، واستشراف مآلات الأمور، وإلا فالعاقل لا يسمح لكائن من كان أن يشق عصا الطاعة، خاصةً وأن أمراء المرابطين لم يأمروا بمعصية الله، بل كان عهدهم زاهراً بالدعوة والعلم والجهاد.

"إن هذه الثورات كانت ثورات من أجل الثورة، حاديها الطموح الأعمى والجشع وقلة الإيمان وقصر النظر، وإن النظرة التحليلية إلى هذه الثورات تظهر أن الذين قادوها لم يعرضوا عملهم هذا على ميزان الشرع الذي يقدم درء المفاسد على جلب المصالح، هذا إن تحقق وجود هذه المنافع، فبالأحرى إن كانت منافع متوهمة وشخصية في مقابل مفاسد محققة من سفك للدماء وترويع للآمنين وإضعاف لكلمة المسلمين وهو ما حدث بالضبط في الأندلس ، فازدادت أوضاعها سوءاً، وقوي طمع عدوها وازداد كَلَبه"[1].

(١) انظر: الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، محمد محمود عبدالله بن بية ، ص٢٠٨ ، ٢٠٩.

جوانب التحدي في ثورة المريدين:

١) مخالفة المنهج الشرعي :

لقد بدأ ابن قسي ثورته ببناء هالةٍ حول نفسه بادعائه أموراً خارقةً للعادة، هي من أوهام غلاة الصوفية، والتي غالباً ما يدعو إليها من يريد جمع أكبر عدد من الأتباع لذلك ادعى أنه (المهدي) وبدأ حياته بقراءة كتب الغزالي وكتب الفلسفة ونحوها، وكل هذا ليجمع خليطاً من الأوهام والخوارق يستميل بها قلوب العامة ليحقق هدفاً لذاته، لا شك أن هذا مما يتعارض مع العقيدة الصحيحة المبنية على الدليل الصحيح من الكتاب والسنة، ولو كان الرجل صادقاً لأمر بإقامة دين الله كما يدعو إليه المؤمنون الصادقون، ولدعا الناس إليها علناً، فلو فعل ذلك لوجد من أمراء المرابطين كل إجلال وتقدير، حتى لو رأى منكراً أو ما يخالف الدين الصحيح لكانت دعوته بالمعروف أقوى وأشد تأثيراً ، لكنه سلك طريق الخوارق واستمال قلوب الجهلة، فعله فعل ابن تومرت، فكان دليلاً على مراده الخبيث، وهو الخروج على هذه الدولة السنية وبناء صرح الصوفية المعتلة الواهي، ولكن الله تعالى كبته، وأبطل كيده.

لقد كان ابن قسي متطرفاً حتى في تصوفه، فإن كان بعض صوفية الأندلس أصحاب التزام بالكتاب والسنة، والبعض الآخر يميل للمذهب الظاهري، فإن الجناح المتطرف كان يتزعمه على ما يبدو بعض صوفية المغرب، وعلى رأسهم ابن قسي، وهذا الجناح هو الذي يميل للمذهب الباطني، وإن كان ابن قسي قد أقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر من أجل جذب الناس إلا أنه كان ثورياً ناشراً لأفكار الثورة والخروج على المرابطين.[١]

(١) انظر: الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصمت عبد اللطيف دندش، ص٥٨.

٢) الخروج على ولي الأمر:

لم يكن ابن قسي بحسب ما نُقل من حاله صادقاً في ما يدعيه، بل كان يريد السلطة وتجييش المجتمع ضد الدولة المرابطية، خاصةً وأن حركة محمد بن تومرت في المغرب قد أربكت المرابطين، وأضعفت قوتهم، فاستغل ابن قسي هذه الظروف، بالإضافة إلى موت ثلاثة من أهم مشائخ الصوفية، وهم: الحكم بن برجان، وأبي العباس بن العريف، وأبي بكر الميورقي، فصفي له الجو، وأصبح شيخ الصوفية في الأندلس بلا منازع، فجمع حوله الأصحاب والأتباع، وجذبت مواهبه النادرة إليه كثيراً من المريدين الذين كانوا على شاكلته، أو المريدين الذين انخدعوا في آرائه ومظهره، فكانوا في الظاهر طائفة دينية، أو فرقة صوفية، وفي الحقيقة أداة سياسية استخدمها ابن قسي في تحقيق مطامعه للوصول إلى الحكم، خصوصاً وأن حركة المهدي بن تومرت قد نجحت في إضعاف المرابطين بالمغرب، وأوشك الموحدون على إنهاء حكمهم[١].

ادعى ابن قسي كما ادعى مهدي الموحدين أنه على مذهب الإمام الغزالي، الذي قضى فقهاء المرابطين بتكفيره، وأمروا بإحراق كتبه، واعتبروها بدعة يجب القضاء عليها،"وأقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر، وهو يستجلب أهل هذا الشأن محرضاً على الفتنة وداعياً إلى الثورة في الباطن، ثم ادعى الهداية مخرقاً وتمويهاً على العامة، وتسمى بـ (الإمام) ، وطُلبَ فاستخفى، وقُبض على طائفة من أصحابه فأزعِجوا إلى أشبيلية"[٢].

من هذا يتبين أن ابن قسي كان يسعى للخروج على سلطان المرابطين، مستقوياً بالأتباع والمريدين، وهذا المسلك لا يسلكه من يقيم لأحكام الشريعة وزناً، بل هو

(١) انظر: المرجع السابق. ص٧٠.

(٢) الحلية السيراء، أبي عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي، ص ١٩٧.

سلوك الخوارج المارقين، ولهذا كان يشكل تحدياً قوياً للثقافة الإسلامية المرابطية، والتي قامت على الكتاب والسنة.

تصدي المرابطين لفتنة المريدين:

تعتبر فتنة المريدين من التحديات التي واجهت الثقافة المرابطية، ولأن ابن قسي – كما تقدم – كان حذراً ويخشى سطوة الدولة، فإنه كان يتوقع الأخذ به في أي لحظة، لهذا كان يتحرك بسرية وحذر، إلا ان هذا الحذر لم ينفعه، فقد وصل أمره للقيادة، ولهذا فإن المرابطون عندما ظهر لهم أمره في حصن منتقوط، وما فعله صاحب ابن قسي فيه من التغلب على عامل الحصن، واستيلائه عليه، بادره المرابطون قبل أن يستعد لتنفيذ مخططه، فأنزلوه وقتلوه فلما علم ابن قسي بهذا خاف وهرب[1].

واستمر ابن قسي في التخفي، وانتهاز الفرص، ولكن المرابطين أوقعوا بفتنته في مرتلة التي خرج إليها لنشر فتنته كما تقدم.

وللعلم فإن جهود المرابطين للتصدي لفتنة المريدين لم تحقق ما كان ينبغي من إخماد هذه الثورة، وإن كانت حدت من انتشارها مؤقتاً ، والدليل على ذلك ان المرابطين تعرضوا أثناء مواجهتهم للمريدين لبعض الهزائم، وفقدوا منهم جنوداً وأموالاً.

"استولى المريدون على حصن مرجيق من اعمال شلب، وقتلوا المرابطين الموجودين به، فلما علم المرابطون بباجة ما حل بإخوانهم في حصن مرجيق، طلبوا الأمان من أهل باجة على أن يخرجوا إلى أشبيلية، وعلى إثر خروجهم دخلت قوات ابن المنذر وابن وزير، وأعلن أهلها دخولهم في طاعة ابن قسي"[2] ، لكن المرابطين

(١) انظر: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب السلماني،ص٢٥١،٢٥٠ .

(٢) الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصمت عبد اللطيف دندش، ص٧٤.

لم يخضعوا لهذه الفتنة، بل سلكوا سبيل الملاحقة، وتتبع آثار المريدين، واعتقال كبارهم الذين كانوا يغذون هذا الفكر، وكان لهم الأثر الأكبر في تجييش الناس، وجمع الحشود، فقد "تعرض المريدون وشيوخهم للمراقبة الشديدة من جانب السلطة خاصة في عام ٥٢٩هـ كما يبدو من رسائل ابن العريف، وأصبحت تحركاتهم محسوبة عليهم، تخضع لعيون رجال الأمن واستفساراتهم وتعرض البعض منهم للملاحقة والسجن، وأصبحت تحركاتهم محسوبة عليهم، تخضع لعيون رجال الأمن واستفساراتهم، وتعرض البعض منهم للملاحقة والسجن "[1].

كانت الملاحقة للمريدين على أشدها، وتتبع المرابطون آثارهم مما ضيق الخناق عليهم، وبدد كثيراً من آمالهم، وقد ظهر في رسائل ابن العريف ما يدل على ذلك، فيقول في رسالته إلى سيد المالقي:" كتبته في وقت ضاق عن تفسير ما تظنه النفس من تأنيس لكن وتنفيس لك بك، فإن عجزي عن نفسي عرفني أن غيرتي أعجز إلا ظنوناً تجوز ولكن لا تجوز، ولو عرفت حقيقة حالي ما أنست إلى معرفتي بحالك، فإن المشاهد بحاله تكفيه أحزانه برعاية ما لا نجاة لي إلا برعايته لكان رسمي ورسم إخواني في حمايته وكفايته، ولكن سال سيل الفتنة ونحن طريقه، وغشي ليل المحنة وفينا فريقه، وانخسفت الأرض، وفيها المسيء والبريء"[2].

هذا يؤكد أن المواجهة كانت قويةً وخطرةً على الجانب المرابطي، إلا أنهم لم ينثنوا عن هدفهم في القضاء على فتنة المريدين، واستمراراً للجهاد الذي بدأوا به دولتهم.

(١) المرجع السابق، ص٧٥.

(٢) مفتاح السعادة، وتحقيق طريق السعادة، أبو العباس بن العريف، تحقيق عصمت دندش، ص١٨٠، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة عام ١٩٩٣م .

المبحث الثاني
التحديات الخارجية، وسبل مواجهتها

بدأت دولة المرابطين بإصلاح الداخل المغربي، واجتثت المغرب من شتات وحروب قبلية كما سبق، ولأن الرقعة الجغرافية للمغرب واسعة، ومتعددة الأطياف والقبائل، ومختلفة المشارب، فإن انشغال قادة المرابطين بإصلاح الداخل قد استغرق منهم وقتاً طويلاً، بل ربما استنفذ المرابطون جهدهم من أجل هذا الأمر.

من هنا يتبين لنا أن التحديات الخارجية التي واجهت المرابطين بعد استقرار الأمر لهم لم تكن كثيرة، ولكن ثمة عدو كان يشكل أكبر تحدٍ لدولة المرابطين، وأثر على ثقافتهم في بلاد المغرب العربي، خاصةً بعد أن ضم المرابطون الأندلس إلى حوزتهم، ذلكم هو العدو النصراني، ولهذا يصبح أكبر التحديات الخارجية التي واجهت المغرب العربي أثناء حكم المرابطين هو:

هجمات النصارى على بلاد الأندلس، وتصدي المرابطين لها:

افتتح المسلمون بلاد الأندلس في رمضان سنة ٩٢هـ، وكان فتحها على يد القائد المسلم: طارق بن زياد ، وكان والياً على طنجة[1]، وكان طارق قائداً في جيش موسى بن نصير، وقد ركب طارق البحر وجاز إلى الأندلس من جهة الجزيرة الخضراء، حيث انتهز فرصةً خلت فيها الجزيرة من الحرس والجيوش، فنزل الجزيرة الخضراء قبيل الصبح، وصلى بها الصبح وعقد الرايات لأصحابه، ثم دخل بلاد الأندلس فاتحاً منتصراً ، وكتب بالفتح للقائد موسى بن نصير، الذي بشر بالنصر

(١) مدينة في شمال المغرب تقع على البحر ، قال الحموي:"مدينةٌ في الإقليم الرابع، طولها من جهة المغرب ثمانون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف من جهة الجنوب؛ بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء وهو من البر الأعظم وبلاد البربر. انظر: معجم البلدان. ياقوت الحموي، المجلد الرابع .

خليفة المسلمين الوليد بن عبد الملك ، ثم عبر بعد ذلك موسى بن نصير إلى الأندلس، واستخلف على القيروان ابنه عبد الله ودخل الأندلس في سنة ٩٣هـ ومعه عدد من وجوه العرب والموالي والبربر في عسكر ضخم، ووجد طارق قد افتتح قرطبة، وقتل لذريق ملك الروم، وسلم لموسى ما حازه من الغنائم والأموال(١).

وهكذا دخل الإسلام الأندلس وعاشت في حكم المسلمين عشرات السنين ومرّت بها فترات ضعف وتفرق، حتى وصل الحال بها إلى أن تقسمت إلى دويلات متناحرة في فترة ما قبل حكم المرابطين لها إلى أن دخلها المرابطون فوحدوها كما تقدم.

إن النصارى الذين طردهم المسلمون من بلاد الأندلس لم يكونوا ليسكتوا على هذه الهزائم التي ألحقتها بهم جيوش المسلمين التي تتمدد لنشر الإسلام ورفع رايته، فلقد سطر التاريخ من بسالة رجال الإسلام ما يعجز اللسان عن أن يتحدث به، وتعجز الأقلام ان تفي ببعض حقه، فقد خاض غمار المعارك مع النصارى في بلاد الأندلس وغيرها رجالٌ صادقون تعلقت قلوبهم بالله وأرخصوا أرواحهم في سبيل الله، يصدق عليهم قول الله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء:٩٥] وقوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الأحزاب:آية ٢٣].

إن ما قام به المرابطون من دفاع عن الأندلس وحمايتها لا يمكن إنكاره، بل إنهم أشركوا اهل الأندلس في شؤون الدولة، ولم يتفردوا بها، مما يؤكد أن هدفهم كان رفعة الإسلام، وحماية هذا الثغر المهم من أعداء الدين، وقد ذكر صاحب الحلل الموشية في أثناء حديثه عن سيرة يوسف بن تاشفين رحمه الله ما يؤكد هذا المعنى

(١) انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب. عبد الواحد المراكشي، ص٣٢ وما بعدها.

فقال: "أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة، في رفاهية عيش، وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محفوظة على حين وفاته رحمه الله، وكان الجهاد انقطع بها منذ تسع وسبعين سنة، من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها، قدم أشياخ المرابطين فيهان وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافل.

وكان ترتيبهم في الأندلس أنهم لم يزيدوا فارساً على خمسة دنانير للشهر شيئاً، مع نفقته وعلف فرسه، فمن ظهرت نجدته وإعانته وشجاعته، أكرموه بولاية موضع ينتفع بفوائده، وتركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين، لكونهم أخبر بأحوالها،وأدرى بلقاء العدو وشن الغارات، ولم يمكنوا من ولايتها أحداً سواهم، مع الإحسان إليهم، وكانوا متى ما وصلتهم خيل من العدوة بعثوا بها إلى أهل الثغور"[1].

دخل المرابطون الأندلس لإنقاذها وصد هجمات النصارى عنها، وأوقعوا بالنصارى هزيمة شنيعة في موقعة الزلاقة[2] المشهورة، "وكان هذا النصر سنة ٤٧٩هـ ، بعد عام واحد من سقوط طليطلة في يد ألفونس السادس ملك قشتالة، فكان ظفر الإسلام بهذا النصر الفريد بعد تلك الكارثة القاصمة إيذاناً بتحول حاسم في مجرى تاريخ الغرب الإسلامي كله، فقد وقف تيار الغزو النصراني،

(١) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية. ص٨٢ (بتصرف يسير).

(٢) الزلاقة: هي أول معارك المرابطين بعد دخولهم الأندلس، وهي معركة فاصلة مشهودة، قادها الأمير يوسف بن تاشفين بالإضافة إلى قوة من أهل الأندلس بقيادة المعتمد بن عباد ملك أشبيليا، وكانت ضد النصارى الأسبان بقيادة الفونسو السادس ، وقد وقعت في يوم الجمعة الثاني عشر من شهر رجب سنة ٤٧٩هـ ، وانتصر فيها المسلمون انتصاراً عظيماً، وجرح فيها الفونسو وولى الأدبار، بعد ان فقد من رجاله عدداً كبيراً. انظر: الحلل الموشية، ص٥٧ وما بعدها.

وبدأت فترة استرداد إسلامية، استعادت فيها جيوش المرابطين كثيراً مما فقده المسلمون خلال السنوات الأخيرة الماضية"[1].

"هذا الانتصار كان له أثر حاسم في سير الحوادث في الأندلس، فقد تحطمت القوة الضاربة لمملكة قشتالة وليون، وتوقف تقدمها نحو الجنوب، وارتد رجالها شمالاً للدفاع عن طليطلة، واستعاد المسلمون الأشبونة وشنترين وتوقف تقدم كونتية البرتغال في غرب الأندلس، وغريب الأمر أن المتوكل بن الأفطس؛ صاحب بطليوس، أبدى بعد هذا النصر خوفاً وقلقاً من المرابطين ومال إلى الخيانة والتفاهم مع العدو، وقد بلغت أخباره هذه يوسف بن تاشفين، ولاحظ يوسف كذلك أن المعتمد بن عباد تراخى من ناحيته وخاف على إمارته، أما الأمير أبو عبد الله الزيري صاحب غرناطة ومالقة، فقد بدأ وكأن النصر لم يكن على هواه"[2].

"وجعل الله بين أولئك الأمراء ملوك الطوائف من التحاسد والتنافس والغيرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفات، والعشائر المتغايرات، فلم تتصل لهم في الله يد، ولا نشأ على التعاضد عزم، ولا توجه إلى الاستكثار قصد"[3].

إن هذا التراخي من ملوك الطوائف بالأندلس جعل يوسف بن تاشفين يفكر جاداً في نزعهم وضم الأندلس تحت راية واحدة، خاصةً وأن بعض هؤلاء الأمراء كان متواطئاً مع العدو النصراني من أجل الحفاظ على العرش، " ولم يلبث هذا الأمير اللمتوني الكبير أن استبان أن تركه ملوك الطوائف في إماراتهم حري بأن يذهب بآثار كل جهد يبذله في استنقاذ البلاد، فعول على خلعهم عن إماراتهم وتركيز السلطان كله في يده وأيدي رجال من المرابطين، فجاز إلى الأندلس جوازه

(١) الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، د.حسين مؤنس، ص٦، مكتبة الثقافة الدينية،مصر. طبعة سنة ١٤١٣هـ . (بتصرف يسير)

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، ص١٩٥.

(٣) أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب السلماني، ص٢٤٤

الثالث سنة: ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م ، واستفتى الفقهاء في أمر هؤلاء الأمراء،فأفتوه بضرورة خلعهم"[١].

تم للأمير يوسف بن تاشفين خلع أمراء الطوائف، وبهذا اتسعت دولة المرابطين اتساعاً جعل منها دولة كبرى تمتد في قارتين، وهذا الأمر يتطلب من المرابطين مواصلة جهادهم والحفاظ على هذه المملكة الكبرى التي تشمل المغرب والأندلس، "وقد فرض الأندلس على المرابطين مسؤولية ثقيلة، فقد كان عليهم أن يواصلوا الحرب والجهاد وحدهم على جبهة عريضة شمالي خط الوادياناة، لأن الأندلس كانت دار جهاد، وقد دخلها المرابطون مجاهدين، وكان عليهم أن يستمروا في هذا الصراع المجيد، ولم يجد المرابطون من الأندلس عوناً، فكان عليهم أن يقوموا بالعمل وحدهم، فإذا أضفنا إلى ذلك مسؤوليات المرابطين في المغرب، تبينا أنهم حملوا في الواقع من المسؤوليات ما كانت قواهم عاجزة عن النهوض به على طول المدى"[٢].

إن العدو الذي أخرجه المرابطون بالأمس من الأندلس لم يكن ليقف موقف المتفرج، لهذا بدأ يرتب صفوفه ليعاود الكرة مرة أخرى لاستعادة أرض الأندلس، خاصةً وانها أرض ذات خيرات يطمع فيها كل من عرفها، وأصحاب الكلمة من أمراء الأندلس وكبارها لم يكونوا على قدر المسؤولية الكبرى التي ينبغي أن يحملوها، بل كانوا يطمعون في تحقيق مآربهم الشخصية ورغبات أنفسهم.

وفي وسط هذه الأجواء ، وبعد أن تكامل عقد المرابطين بضم الأندلس، وعند سنة ٥٠٠هـ ، توفي القائد البطل، والملك الهُمام؛ يوسف بن تاشفين رحمه الله ، وخلفه ابنه عليّ ، والذي كان يتمتع بخصال كثيرة من الخير يشبه فيها أباه.

---

(١) الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، د.حسين مؤنس، ص٧.

(٢) معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس، ص١٩٨.

كان علي بن يوسف منشغلاً أيضاً بمواصلة الجهاد في الأندلس، والتي كان الخطر النصراني يهددها، بالإضافة إلى المغرب التي هي الأصل وفيها عاصمتهم.

"وقبل ان يقدم أمير المسلمين علي بن يوسف على تنفيذ جهاده ضد الممالك الأسبانية النصرانية أراد أن يطمئن على الجبهة الأندلسية التي ستكون مركز انطلاقه نحو الشمال، وخطّاً من خطوط تموينه الهامة في حملاته تلك، ولذلك جاز على الأندلس بعد توليه السلطة بمدة يسيرة في منتصف عام ٥٠٠هـ "[١] .

إن بلاد الأندلس مع سيطرة المرابطين عليها، وضمهم لها تحت لواء واحد، لم تكن بمعزل عن الخطر النصراني، ذلك أن النصارى كانوا يقعون منها في موقع حساس وخطير.

"لقد استطاع المسلمون في بادئ الأمر أن يبسطوا سلطانهم على جميع شبه جزيرة إيبيريا[٢] تقريباً، ولكنهم مع ذلك ارتكبوا خطأً عسكرياً جسيماً عندما أهملوا جانب المناطق الشمالية الغربية القاحلة الباردة؛ المعروفة باسم: اشتوريش (Asturios) وكانت عواقب هذا الأهمال وخيمة فيما بعد، إذ تكونت في هذا الركن الشمالي الغربي النواة الأولى لمملكة ليون الأسبانية، ولقد أحاطت هذه المملكة الأسبانية نفسها من جهة الشرق والجنوب بمنطقة من القلاع والحصون لحماية حدودها من غارات المسلمين، وقد عرفت هذه المنطقة في المصادر العربية باسم القلاع بينما سماها الأسبان: كاستيليوس (Castellos) أي الحصون، وكان يحكم هذه المنطقة أمراء تابعون للملكة ليون من الناحية السياسية، ولكنهم كانوا يتمتعون باستقلال ذاتي كي تتاح لهم حرية التصرف في مواجهة المسلمين"[٣] ومن

(١) الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين، سلامة محمد الهرفي ، ص٢٠١.

(٢) إيبيريا: هي الأندلس.

(٣) انظر: تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد العبادي، وإبراهيم الكتاني، ص٢٣٨، الهامش(١)، دار الكتاب العربي، الدار البيضاء،طبعة سنة ١٩٦٤م.

هنا بدأت المملكة النصرانية تتكون تحت ما سماه المسلمون باسم: مملكة قشتالة، وهي تعريب لكلمة: كاستيليوس[1].

بدأ أمير المسلمين علي بن يوسف جهاده ضد مملكة قشتالة، والتي تشكل خطراً واضحاً، وتحدياً كبيراً في وجه دولة المرابطين.

"عبر ألفونسو ملك قشتالة جبال سييرا مولينا التي تفصل بين أراجون وقشتالة، وزحف على قلعة أيوب وكانت من أمنع ما بقي من معاقل الثغر الأعلى، فاستولى عليها كذلك، وكانت أنباء هذه المحن المتوالية، التي نزلت بمسلمي الثغر الأعلى، وتوالى سقوط قواعده في أيدي النصارى، قد وصلت إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فاهتم لها ، وكتب إلى أخيه الأمير أبي إسحاق؛ إبراهيم بن يوسف؛ والي إشبيلية منذ وفاة واليها السابق القائد محمد بن فاطمة في سنة ٥١١هـ ، بتجهيز الجيوش، والمبادرة إلى السير لقتال ملك أراجون (ابن رذمير) ، ووضع حد لعدوانه، وكتب في نفس الوقت إلى القادة والرؤساء بالأندلس أن ينهضوا بقواتهم مع أخيه، وأن يكونوا تحت إمرته، فحشد إبراهيم قواته، ووافته قوات قرطبة بقيادة واليها ابن زيادة، وقوات غرناطة بقيادة واليها محمد بن تينغمر اللمتوني، وقوات مرسية بقيادة أبي يعقوب؛ ينتان بن علي ، وجماعة أخر من الرؤساء والقادة، وعدد كبير من المتطوعة، وسار الأمير إبراهيم في هذه القوات الجرارة صوب الشمال، وكان ألفونسو قد انتهى وفقاً لبعض الروايات من افتتاح قلعة أيوب، وصار منها لافتتاح دروقة؛ قرينتها في المنعة والأهمية، والواقعة في جنوبها.

كان ألفونسو حينما علم بتحرك المرابطين وسيرهم إلى قشتالة قد استقدم سائر قواته، واجتمع له زهاء اثني عشر ألف فارس، غير المشاة والرماة، وهم جموع غفيرة لا تحصى، ووقع اللقاء بين المسلمين، والنصارى في ظاهر بلدة صغيرة تسمى (كتُندة ، أو قتُندة) على مقربة من دورقة، وذلك في الرابع والعشرين من شهر ربيع

(١) انظر: المرجع السابق، ص٢٣٨.

الأول سنة ٥١٤هـ، ونشبت بين الفريقين معركة عنيفة، هُزم فيها المرابطون هزيمةً شديدة، وسقط حوالي عشرين ألف قتيل من المتطوعة، كما استشهد فيها نوع خاص من الناس، وهم العلماء والفقهاء، وفي مقدمتهم العلامة أبو علي الصدفي، وأبو عبد الله بن الفراء؛ قاضي ألمرية، وعاد الأمير إبراهيم بمن تبقى من الجيش إلى بلنسية"[1].

هكذا استمر الصراع بين المرابطين والنصارى، ولا شك أن هذا الصراع كان من أكبر التحديات التي واجهت المرابطين، خاصةً وأنه قد فُقد على إثرها جملة من شيوخ المرابطين، وحملة الثقافة الأصيلة التي تبنتها هذه الدولة، وتظهر جوانب التحدي في هذا الصراع في النواحي التالية:

١ . الانشغال بالمدافعة يمنع التطور الثقافي:

كان هذا الأمر جلياً واضحاً في الصراع الدائر بين المرابطين والنصارى، فانشغال علي بن يوسف خاصةً ومن بعده من أمراء المرابطين، أثر على ثقافة بلاد المغرب التي هي بدورها كانت تعاني من هجمات الموحدين على يد ابن تومرت، كما سبق، والبلاد التي تخوض حروباً متواصلة، وتدافع عدواً متربصاً، تركز جهدها وتبذل وسعها في صد العدوان، ولا تتفرغ للبناء الفكري والتطور الثقافي، بل إن ظهور الثورات الفكرية في الأندلس كان أحد أسبابه هو الصراع بين المرابطين، وأعدائهم من النصارى.

٢ . موت العلماء والمفكرين وحملة الثقافة:

لا شك أن دولةً كدولة المرابطين، دعاماتها الأساسية هم العلماء والفقهاء، وهم وقود الثقافة المرابطية كما سبق، ولأن غالب الوزراء والقادة هم من العلماء وحملة الثقافة والفكر، فإن المعارك التي خاضها المرابطون كانت كفيلةً بأن تفقد

(١) دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، ص١٠٣ ، ١٠٤ ، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط ٢ ١٤١١هـ . (بتصرف)

الدولة بعض هؤلاء الفقهاء والعلماء ، وهذا له أثره البالغ على ثقافة المرابطين عموماً، وبلاد المغرب على وجه الخصوص، وهذا ما ذكره عنان في الكلام الآنف الذكر "وتنوه الرواية الإسلامية بنوع خاص من استشهد في الموقعة من العلماء والفقهاء" وفي المقابل يستغل العدو النصراني انتصاره ليعزز مبادئ عقيدته وثقافته، "وعلى إثر الموقعة استولى ألفونسو على قلعة دروقة، وأنشأ على مقربة منها عند منابع نهر "خلوكا" محلّةً جديدة محصنة، سميت قلعة "مونريال" لتكون حاجزاً لصد الجيوش الإسلامية، التي تنساب من طرق مرسية وبلنسية، ولتكون في نفس الوقت منزلاً لجمعية دينية جديدة من الفرسان، أسست لحماية الدين!!!"[1] .

هكذا يظهر جلياً أن حروب النصارى في بلاد الأندلس كانت تحدياً كبيراً للمرابطين، ولواقعهم الثقافي الذي بدأوه برفع راية الدين.

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٠٤.

الفصل الخامس

سبل الاستفادة من الدراسة في العصر الحاضر

سبل الاستفادة من الدراسة في العصر الحاضر

دولة المرابطين دولة عظيمة، حكمت بلاد المغرب وأنقذتها من واقع مرير عاشته في ظل نزاعات قبلية وتصدعات عرقية، فضلاً عن الشركيات التي انتشرت حتى غُيب الناس عن دين الله الحق إلا بقايا ممن كانوا يحملون الدين ولا يملكون لأمتهم نفعاً ، جاءت هذه الدولة بأمر الله تعالى لتنطلق من رباط العلم والإيمان حاملةً على عاتقها لواء النصر للإسلام وتحرير الإنسان، وإعادة الناس إلى حظيرة الإسلام الحق. لم تكن دولة المرابطين دولة قبيلة، أو طالبة ثأر، بل كانت دولة حق تبحث عن الدين ونصرته، وترخص في سبيل ذلك الأرواح والمهج، منذ أن انطلق مؤسسها الأول يحيى بن إبراهيم رحمه الله تعالى، وبمعاضدة من مؤسس منهجها، وراسم معالم ثقافتها؛ الإمام: عبد الله بن ياسين رحمه الله ، وهي تسير على معالم واضحة، وإشارات ربانية استقاها من قام على شؤونها من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فكان التقاء العلم الشرعي الأصيل بقوة وشجاعة البدوي الأنِف الذي لا يرضى التبعية والدون، فكان النتاج دولةً ملكت المغرب والأندلس وحملت دين الله ونصرته بكل ما تملك، ولا شك أن دراسة الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء فترة هذه الدولة يكسب الباحث ثقافةً مهمةً يمكن تأطيرها في التالي:

سبل الاستفادة من الدراسة علمياً :

من خلال دراسة الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين يخرج الباحث بمجموعة من النقاط العلمية المستفادة من دراسة هذه الحقبة المهمة وتتمثل فيما يلي:

١. ضرورة التعرف على أحوال المسلمين ونشاطهم الديني، خاصةً تلك الدول التي بدأت تشق طريقها من رحم المعاناة التي عاشتها الشعوب التي غُيبت عن دينها

زمناً طويلاً، مثل دولة المرابطين، فدراسة الحالة التي كانت عليها هذه الدول قبل أن تنشأ، ثم تكوّنها وانطلاقها بكل عزم وثبات نحو تحقيق أهدافها وفق تنظيم محكم وتخطيط سليم يدفعهم إليه رؤية واضحة للخروج من المعاناة التي تعانيها شعوبهم؛ كل هذا يجعل الباحث أمام أنموذج أمثل للجماعة المؤمنة الصابرة التي يُقتدى بها.

٢. ضرورة العلم الشرعي وأنه أساس متين للدولة المسلمة التي تسعى لإنقاذ الناس وتعبيدهم لله رب العالمين، فإن العلم غاية شريفة لا عز للأمة إلا بها، وقد بدأت أمة الإسلام انطلاقتها الأولى مع الوحي بقول الله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [سورة العلق:آية ١] ، وهذا دليل قاطع على ضرورة العلم الشرعي كقاعدة أساس في بناء الدولة المسلمة، ولهذا تميزت دولة المرابطين بأن رجالها انطلقوا من رباط تعليمي رائده العالم الرباني: عبد الله بن ياسين رحمه الله الذي تتلمذ على يد وجاج بن زلو؛ الذي تلقى العلم عن أبي عمران الفاسي، فكان للعلم في نشأة هذه الدولة القدح المعلى، ولم يرض جماعة المرابطين أن ينضم إليهم ابتداءً إلا من كان حريصاً على طلب العلم، صابراً على لأوائه، ولقد كان عبد الله بن ياسين عالماً مربياً، واسع العلم بعيد الطموح، مؤمناً بمبدأ العلم قبل التمكين، ولهذا عكف على التعليم من البداية، ولم يكن يتطلع للسيادة أو الرئاسة لأنه صاحب رسالة وهدف، لا يهمه المنصب، ولا يبحث عنه كما اتضح من سيرته رحمه الله .

لقد كان لتعاليم الإسلام التي غرسها ابن ياسين في رجال المرابطين عظيم الأثر بعد ذلك في التمكين لهم في الأرض، ولهذا خرج من مدرسته رجال هذه الدولة المباركة ليحملوا على عواتقهم رسالتهم السامية لإنقاذ بلاد المغرب، ونشر الإسلام الصحيح فيها، لهذا كان للفقهاء والعلماء دورهم البارز في رسم معالم هذه الدولة المباركة.

٣. أهمية العبادة للتمكين في الأرض، فالعبادة هي الغاية التي خلق الله الناس من أجلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سورة الذاريات:آية٥٦] ، وقد أدرك عبد الله بن ياسين هذه الغاية العظمى فربى أصحابه المرابطين على عبادة

الله تعالى، فعندما ضيق عليه في بادئ الأمر من بعض رؤساء لمتونة، انطلق إلى جزيرة في حوض السنغال ومعه سبعة نفر بالإضافة إلى الأمير يحيى بن إبراهيم، وأقاموا بهذه الجزيرة ثلاثة أشهر يعبدون الله، حتى تسامع بهم الناس فأتوهم من كل مكان[1]،وهكذا استمر عبد الله بن ياسين يعلمهم أمور دينهم وكيف يعبدون الله، فكانوا يرابطون في هذه الجزيرة عبّاداً لربهم حتى وصل عددهم ألف رجل فخرجوا بعد ذلك ليمكن الله لهم في بلاد المغرب.

إن تعلق العبد بربه وحسن عبادته له من أقوى دعائم التمكين، ولهذا مكّن الله لهذه الدولة التي نشأ مؤسسوها على حب العبادة والتعلق بالله، وهذا المنهج هو الذي ربى عليه النبي ﷺ أصحابه فقد علقهم بعبادة ربهم منذ أن بدأ فجر الرسالة.

٤. مكانة الصبر في الإسلام، وأنه دعامة أساس من دعامات الدولة الإسلامية، وقد قال ﷺ " واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا"[2]، وقد تمثل المرابطون هذه الحقيقة، والتي يجب أن تؤمن بها الأمة اليوم، خاصةً في ظل هذه الظروف الحرجة التي تعانيها بلاد الإسلام من تكالب أعدائها عليها، واستباحة حرماتها، فقد يتسلل اليأس إلى قلوب بعض المسلمين، فيسيء الظن بربه، ولهذا يجب أن يعلم أمثال هذا أن النصر وعد من الله، يتحقق إذا صبرت الأمة في مواجهة الأعداء، واتخذت دين الله سبيلاً ، والقرآن والسنة منهاجاً تستقي منه تعاليم الدين.

والله عز وجل قد حث المجاهدين على الصبر، وأوصاهم بالثبات في مواجهة الأعداء، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا

(١) انظر: الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي، ص١٢٤ وما بعدها.

(٢) رواه الطبراني برقم ١١٢٤٣،(١١/ ١٢٣)، والحاكم في المستدرك برقم ٦٣٠٤،(٣/ ٦٢٤)، والبيهقي في شعب الإيمان، برقم ٩٥٢٨،(١٢/ ٣٥٣)، وأورده ابن رجب الحنبلي في جامع العوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جامع الكلم، تحقيق ماهر الفحل.دار ابن كثير، دمشق.ط١ ١٤٢٩هـ . ص٤٣٢ .

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة الأنفال:آية ٤٥] ، وربط سبحانه النصر بالصبر بعد ذكر العدد مباشرةً قال تعالى: ﴿ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾ [سورة الأنفال: آية ٦٦] .

فالصبر طريق للنصر، وقد فهم المرابطون هذا المعنى جيداً، وتمثلوه في جهادهم فتحقق لهم النصر والتمكين.

٥. القيادة في الإسلام مهمة كبرى، ولا يقوم بها إلا من اتصف بالصفات السابقة، إضافةً إلى ضرورة إلمامه بجوانب دولته، ومعرفته ما يدور فيها، وهذا لا يتحقق إلا بوجود الحاشية الصالحة الناصحة، ولهذا فإن يوسف بن تاشفين رحمه الله عندما أحاط نفسه برجال صالحين، ومجاهدين صادقين، كان له التمكين، إضافةً إلى كونه كان رجلاً فاحصاً لدولته ملماً بجوانب ملكه، فكانت الدولة في عهده أقوى ما تكون، وعندما ولي ابنه علي من بعده، وعلى الرغم مما كان يتمتع به من خصال حميدة، وشجاعة، إلا أنه لم يكن مدركاً بالصورة المطلوبة للقائد، وكانت نظرته قاصرة، خاصةً فيما يتعلق بموضوع محمد بن تومرت، فإن علي بن يوسف بإطلاقه له بادئ الأمر وتهاونه في أمره، قد دقّ أول مسمار في نعش دولته الكبرى، وبدأ العد التنازلي للمرابطين، وقد سبق بيان ذلك، واتضح كيف أن ابن تومرت كان داهيةً من الدواهي، واستطاع أن يجمع الأتباع ويسقط ملك المرابطين، والكل يدرك أن الأمير علي بن يوسف كانت تنقصه نظرة أبعد، مثل تلك التي أشار بها عليه ابن وهيب في شأن ابن تومرت.

٦. أهمية الحوار الفكري مع المخالفين، وضرورة استيغاب أطراف الخلاف، فالله عز وجل أمر نبيه بمجادلة المخالفين فقال: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [سورة النحل: آية ١٢٥] ، فالمجادلة والحوار سبيل للوصول للرأي المشترك، والتعايش بالصورة الصحيحة، مع الحفاظ على مكانة الدين، وقوته،

فالحوار والمناقشة والمجادلة ليست ضعفاً، كما أن أحادية الرأي وضيق الأفق، وأطر الناس على مذهب واحد، ولو كان صحياً يعد أمراً مخالفاً لتعاليم الإسلام، وقد تعايش النبي عليه الصلاة والسلام مع اليهود في المدينة عندما لم يعتدوا، فلما اعتدوا وتجاوزوا كان لا بد من النفي والإبعاد لتعذر التعايش حينها.

إن من الأخطاء التي تُحسب على قيادة المرابطين، أطرهم الناس على مذهب الإمام مالك رحمه الله ، وهذا تضييق وتفكير أحادي، وقد كان سبباً في نفور كثير من الناس من فقهاء الدولة المرابطية، ومع إيماننا بأهمية مذهب الإمام مالك، ومكانته، وأنه أحد المذاهب الأربعة التي انتهت إليها مدارس الفقه في الأمة، لكن تحييد بقية الآراء الفقهية، والمذاهب الشرعية يعتبر من أخطاء المرابطين، ولو أنهم فتحوا المجال لبقية المذاهب، وأقاموا للناس منهجيةً علميةً مقارنةً، وتقبلوا الآراء الأخرى وناقشوها، وحاوروها، مالم تكن مغرضةً أو داعيةً إلى الفوضى لكان الأمر أفضل مما كان عليه من أطر الناس على رأي واحد، ولهذا استجاب عدد كثير من الناس لدعوة ابن تومرت، وما حادثة إحراق كتاب الإحياء إلا دليل على ضيق النظرة، وإن كنا نتفهم مراد الأمير علي بن يوسف الذي أمر بذلك، ونؤمن بأنه ما فعل ذلك إلا حفاظاً على عقيدة وثقافة دولته، لكن هذا الإحراق كان إقصاءً سبب نفوراً وهيجاناً من أناس كانوا ينظرون للإمام الغزالي على أنه العالم البحر، ويعد هذا الإحراق من هفوات الدولة المرابطية، فإن بعض الناس ربما كان لا يعلم عن كتاب الإحياء شيئاً، فلما مُنع وأحرق، أصبح عندهم رغبة قوية في الاطلاع عليه، وكان الأولى أن ينبري العلماء الثقات في الرد على ما في الإحياء من مخالفات، والاستفادة مما فيه من خير.

٧. الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الإسلام، وهو باقٍ إلى قيام الساعة، وما دامت الأمة قائمةً لله بأمره منافحةً عن دينه فإن التمكين والعزة نتيجةً حتميةً لسعيها، والجهاد أمر الله للمؤمنين، أمر الله به لتبقى راية الإسلام عاليةً، قال الله في كتابه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى

ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [سورة البقرة: آية ١٩٣] وفي الحديث: قال ﷺ :"من قاتل لتكون كامة الله هي العليا فهو شهيد"[(١)] ، فالغاية من القتال أن يكون الدين لله، ولهذا إن صحت هذه الغاية واتضحت للأمة كان النصر حليفها، وعلى هذا كان جهاد المرابطين، فقد كانت انطلاقتهم لنصرة دين الله فحقق الله لهم النصر، واتساع دولتهم، ودانت لهم بلاد المغرب، وبلاد الأندلس.

ومما ينبغي التنبيه إليه أن الجهاد بهذه المكانة هو خيار أمة لا خيار أفراد، فما لم تكن للأمة قيادة واحدة تدعو لجهاد أعداء الله، فلا يحق للأفراد أن ينشئوا جهاداً، ويفتحوا جبهات بدون الصدور عن رأي علماء الأمة وولاتها، وقد يدفع الحماس أحياناً بعض الناس للقتال والمجاهدة، وهو لا يملك مقومات النصر، فهذا النوع قد يضر ولا ينفع، بل فعله هذا خاطئ ، وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاثة عشر عاماً عانى فيها مع أصحابه الكرم ﷺ فلم يأمر عليه الصلاة والسلام بالقتال، بل كان يأمر أصحابه بالصبر، يقول خباب ﷺ : أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة وقد لقينا من المشركين شدة فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله فقعد وهو محمر وجهه فقال: (لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحم أو عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله) زاد بيان: (والذئب على غنمه)[(٢)].

فلم يأمرهم عليه الصلاة والسلام بالجهاد على الرغم مما يجدونه من العنت في سبيل دينهم.

---

(١) أخرجه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ برقم:٢٦٥٥.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي -صلى الله عليه وسلم- وأصحابه من المشركين بمكة (٥/ ٤٥) برقم (٣٨٥٢).

٨. خطورة الخروج على ولي أمر المسلمين، ومن ولاه الله أمرهم، والله تعالى أمر بطاعة ولي الأمر وجعل طاعته تبعاً لطاعة الله ورسوله ﷺ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء: آية ٥٩]، وقد أمر بها النبي عليه الصلاة والسلام وحذر من شق عصا الطاعة، قال ﷺ :"أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمر عليكم عبد"(١)، فالاجتماع على ولي الأمر مع ضرورة نصحه وتوجيهه ودعوته، مما يحفظ للأمة بقاءها، ويقوي شوكتها، مع الأخذ في الاعتبار أن الطاعة لا تكون إلا في المعروف، فمن رأى من ولي الأمر أمراً يكرهه، وجب عليه تقويمه ونصحه، ولا يحق له بحال من الأحوال أن يخرج عليه أو يؤلب الناس ضده، ولهذا كان فعل ابن تومرت ممقوتاً، وسبيله ضالاً، وقد خسرت الأمة بخروجه أكثر مما ربحت.

(١) أخرجه أحمد (٢٨/ ٣٧٣)، برقم ١٧١٤٤، وأبو داود، باب في لزوم السنة، (٤/ ٣٠٠)، برقم ٤٦٠٧، والترمذي ، باب ما جاء بالأخذ بالسنة، (٥/ ٤٤)، برقم ٢٦٧٦.

سبل الاستفادة من الدراسة عملياً :

بعد دراسة الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين، يخرج الباحث بمجموعة من النقاط العملية المستفادة من دراسة هذه الحقبة المهمة، وحتى يتم تحويل ما استفيد من دراسة هذا الواقع إلى مشاريع عملية قد تسهم في حفظ الموروث الثقافي لهذه الأمة، فهذه بعض النقاط العملية:

١. ضرورة إنشاء مراكز بحثية متخصصة لدراسة الواقع الثقافي للبلاد الإسلامية ومن بينها بلاد المغرب العربي، والتي زخرت بالعديد من التجارب العملية في النهوض بثقافة الأمة الإسلامية، ويجب تحويل ما تم تعلُّمه من خلال دراسة هذا الواقع الثقافي إلى مشاريع عملية ناتجة عن مراكز بحثية متخصصة، تقوم بإعداد خطط مستقبلية يُستفاد فيها من تجربة المرابطين، بحيث تكون هذه الخطط مستوحاة من تلك التجارب لتعزيز إيجابياتها، وتلافي سلبياتها.

٢. ضرورة إعداد مراكز لتكوين العلماء بحيث تكون متخصصة تعني بتعليم أبناء المسلمين العلم الشرعي، وفق خطة ممنهجة متكاملة، وإعدادهم من خلالها ليكونوا علماء عاملين، ودعاة في الحق مجاهدين، ويستفاد في هذا من رباط عبد الله بن ياسين، وكيف أنه حول طلبة العلم إلى رجال أمة، استطاعوا إنقاذ بلاد المغرب، وأعادوا لها مكانتها المرموقة.

٣. ضرورة دراسة الحركات المناوئة للدعوة الإسلامية دراسة فاحصة، ومعرفة مشاربها وأسس قيامها، ليتسنى لمن يقوم على شؤون الأمة أن يرد على من يستحق الرد، ويجب على العلماء بيان خطر كل الفرق التي تسعى لتشتيت شمل الأمة، أو تسيء للمنهج الإسلامي الواضح، الذي جعله الله نوراً للعالمين، وهدىً للناس أجمعين، كما يجب أن تتولى الجامعات الإسلامية عقد المؤتمرات وورش العمل لتفنيد آراء الحركات والأحزاب الداعية إلى غير هدى الله، مع الأخذ في الاعتبار ضرورة ما أشير إليه سابقاً من أهمية الحوار المبني على أسس العقيدة الإسلامية الصحيحة.

٤. إعداد الأمة لمواجهة العدو يجب أن يكون متكاملاً وعلى كافة الصُّعُد، حيث يتوجب إعداد الأمة علمياً ودعوياً وجهادياً ، ويجب أن تتولى المؤسسات التربوية والمحاضن الدعوية هذا الأمر، وتساهم مع جميع المؤسسات المعنية ببناء الأجيال في التخطيط لإعداد جيل يحمل المسؤولية بقوة، ويسهم في خدمة دينه وثقافته بجد، ولهذا يجب أن تُنشأ المدارس العلمية المتكاملة التي يجد فيها المتعلم والمتربي مادةً علمية ومسالك عملية تسهم في صياغة شخصية متكاملة الجوانب، مبنيةً وفق المنهج الشرعي الأصيل، أشبه ما تكون بالربط التي أنشأها مسلمو المغرب وانطلق منها المرابطون، والأخذ في الاعتبار أن يعد مناهجها علماء ربانيون مخلصون لدينهم، يجمعون بين العلم والحكمة.

٥. التركيز على الشباب والاهتمام بهم، وتوجيه حماسهم، خاصةً أولئك الذين سلمت فطرهم من لوثات المادية المعاصرة، وفساد المذاهب الفكرية المنحرفة، مع التركيز على فئة الضعفاء والفقراء، فهم عادةً أقرب الناس إلى الاستفادة من التوجيه، والتفاعل مع المعلم، ولا أدل على ذلك أن أتباع الأنبياء غالباً هم من الضعفاء، ومن يحتقرهم الجبارون والمتكبرون، وقد ذكر الله في قصة نوح عليه السلام ما يدل على هذا المعنى قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة هود:آية ٢٧] ، فهؤلاء الضعفاء هم الذين نصر الله بهم الدين، وفتح بهم الأمصار، فرعايتهم والاهتمام بهم من التفكير الاستراتيجي السليم الذي يثمر بإذن الله قوةً لا يستهان بها.

٦. لدى الأمة موروث ثقافي كبير، ولهذا يجب على المفكرين والأكاديميين من رجال الأمة جمع هذا الموروث، وترجمته لواقع عملي من خلال المشاريع البناءة، التي تسهم بدورها في دفع عجلة التنمية البشرية للمسلمين، وتحقيق الاكتفاء الذاتي على مختلف النطاقات، فقد آن الأوان ان نترجم تجارب علماء الأمة إلى مشاريع عملية لنصبح أمةً منتجةً بدلاً من أن نكون عالةً على الأمم، وفي تجربة المرابطين شواهد

كثيرة على هذا الأمر، ابتداءً من جماعة الرباط، وانتهاءً بالمدارس التي أقامتها الدولة المرابطية لتخريج رجالها، فقد أنشأ يوسف بن تاشفين مدرسة (الصابرين) في أوائل القرن الخامس الذي شهد انتصارات يوسف بن تاشفين، وأنشأ المرابطون أيضاً كلية القرويين بفاس، ومدارس سبتة، وغيرها، وكانت هذه المدارس تأوي علم القيروان، وثقافة الأندلس المشهورة، ونبغ فيها أعلام كبار[1].

(١) انظر: الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، ص١٧٦، ١٧٧.

الخاتمة

وختاماً: هذه بعض جوانب الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين، اجتهدت في أن أضع النقاط على الحروف، وأفتح الطريق لدراسة واقع هذه الدولة العظيمة، ومعرفة ثقافتها الإسلامية الأصيلة التي صبغت بها وجه بلاد المغرب العربي، واستنار بها الأندلس وأفريقيا، وهي بحق حقبة زمنية رائعة، تستحق البحث والدراسة، ولها جوانب مضيئة تحتاجها الأمة اليوم، ولهذا فإني أنصح كل طالب علم، خاصة المهتمين بالدراسات الثقافية والتاريخية أن يهتموا بدراسة دولة المرابطين، واستخلاص الفوائد والدروس والعبر من مواقفها وأيامها.

إن دراسة الواقع الثقافي الإسلامي اليوم أصبح ضرورةً ملحة للحفاظ على الهوية الإسلامية ورد كل محاولات التغريب وطمس الهوية التي يمارسها أعداء الأمة اليوم على أبنائها في الشرق والغرب.

وبعد دراسة الواقع الثقافي الإسلامي للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين، فقد خرجت بالنتائج التالية:

١. تعتبر دولة المرابطين من أهم دول الإسلام التي حظي عهدها بنهضة إسلامية شاملة، وحظيت الثقافة الإسلامية فيها باهتمام بالغ من لدن حكامها، ودراسة واقعها الثقافي يفتح للدارس آفاقاً رحبةً نحو علوم الثقافة الإسلامية.

٢. تنوعت روافد الثقافة الإسلامية في المغرب العربي أثناء عهد المرابطين، وهذا التنوع جعل للثقافة الإسلامية أهميتها في تلك الحقبة الزمنية المهمة.

٣. شملت الثقافة الإسلامية في المغرب العربي أثناء عهد المرابطين عدة مجالات، مما انعكس على سياسة الدولة وطريقة حكمها، فكانت الثقافة الإسلامية حاضرةً في جميع مجالات الدولة السياسية والاجتماعية والعلمية.

٤. أثرت في الثقافة الإسلامية للمغرب العربي أثناء دولة المرابطين مجموعة من المؤثرات الإيجابية والسلبية، لهذا كانت دراسة واقعه الثقافي من الأهمية بمكان لمعرفة هذه المؤثرات، والاستفادة منها.

٥. واجه المغرب العربي أثناء دولة المرابطين بثقافته الإسلامية التحديات التي عرضت له، وكان المنهج الأصيل الذي قامت عليه الدولة حاضراً ومؤثراً، ودافعاً لهذه المواجهة.

٦. بلاد المغرب العربي حاضنة للعلوم والمعارف، وفترة الحكم المرابطي كانت زاخرةً بمجموعة من العلماء والأدباء والفقهاء، أسهموا في رفعة هذه الأمة، وعلو شأنها، وأولتهم الدولة المرابطية كل الاهتمام والتقدير.

٧. على الرغم مما تميزت به الدولة المرابطية من قوة الحكم وإحكام السيطرة على بلاد المغرب، إلا أن تهاون بعض حكامها بالحركات الخارجة عليها تسبب في سقوطها وانهيارها، كما حدث مع ابن تومرت مؤسس حركة الموحدين التي أسقطت حكم المرابطين.

٨. حماية العقيدة من أولى أولويات الدولة الإسلامية، وإذا كانت الدولة تحمي العقيدة الصحيحة وتتبناها فقد تمسكت بسبل النجاة، واستعصمت بحبل الخلاص وكتبت لها الريادة.

٩. العدو الخارجي لا يمكن له أن يطمح إلى دخول بلاد الإسلام ما لم يكن له أنصار في الداخل ينشرون فكره ويؤيدونه، لذا فإن تطهير الصف من المنافقين والمرجفين من وسائل الاستقرار وعلامات القوة للدولة.

توصيات البحث:

١. ضرورة دراسة الواقع الثقافي الإسلامي للعالم الإسلامي دراسة متكاملة، للخروج بمنهج ثقافي تربوي رباني المصدر، قوي البناء تستنير به الأمة اليوم للخروج من مآسيها.

٢. تكون دراسة التاريخ أكثر قرباً من الحقيقة حين تكون الدراسة متسمةً بالشمول، والاستقصاء، ذلك لأن المعلومة التاريخية قد يكتبها المعاصر، فيجحف أو يبالغ، وقد يكتبها المخالف فيبرز جوانب الخلل ، ويتعامى عن جوانب البناء المضيئة، فيكون ظالماً، وقد يكتبها المادح المقتات على موائد السلاطين، فيقول ما ليس بحق، ويهوي بقلمه تحت وطأة المادة والطمع، لهذا يجب أن يُقرأ كل ما كتب، وتقارن الأحداث بحسب تسلسلها للخروج بحكم عادل يكون أقرب للحقيقة ، وأنفع للمتعلم والطالب.

٣. إنشاء مراكز بحثية متخصصة في دراسات الواقع الثقافي للأمة الإسلامية، والخروج بمناهج تربوية تبث لدور التربية والمدارس لربط الأجيال بماضيهم الناصع، ومعرفة مسالك الرقي للسير فيها، وتجنب مواطن الخلل .

٤. يجب أن يعلم المسلمون اليوم أن المآسي التي تمر بها الأمة لا مخرج لهم منها إلا بالعودة الصادقة للمنهج الرباني الذي انتصرت به الدول الإسلامية السابقة كدولة المرابطين ، ذلك لأنها وضعت الفيصل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فكان لها الغلبة والنصر والتمكين، ولهذا فإنه لابد من إبراز سبل الخلاص من خلال دراسة الواقع الثقافي الإسلامي لتلك الدول والممالك.

٥. إبراز الشخصيات القيادية التي تستحق أن تكون مثلاً أعلى يحتذى به، بدلاً من تلميع صورة من لا يستحق التلميع.

٦. يجب أن تنشأ وسائل إعلام متخصصة في إبراز الواقع الثقافي الإسلامي، لإيصال الرسالة للعالم كله، حتى يعلم الناس من هم المسلمون، وماهو منهجهم.

وفي الختام:

أسأل الله تعالى أن يقيض للأمة أمر رشد يعز فيه أهل الطاعة ويُهدى فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، وأن يرزقنا حسن الختام.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

الفهـــارس

- فهرس الآيات .
- فهرس الأحاديث.
- فهرس الأشعار.
- فهرس الأعلام المترجم لهم.
- فهرس القبائل والأماكن والبلدان .
- فهرس الكلمات والألفاظ المعرف بها .
- فهرس المصادر والمراجع .
- فهرس الموضوعات .

* * * * * *

فهرس الآيات

سورة البقـرة

الآيـــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾﴾	١٩٣	١٠٨ ١٨٦

سورة آل عمـران

الآيـــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾	١٨	٦٦
﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾	٨٥	٧
﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾	١١٠	٦٤
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾	١٥٩	٧٤
﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾	١٦٩	٦٠

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾ ﴾	٢٠٠	٧٠

سورة النســـاء

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾	٥٩	١٥٢ ١٨٨
﴿ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ ﴾	٩٥	١٧٣

سورة المــائدة

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾	٧٩	٦٠

سورة الأنعـــام

الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾	٥٤	٦٢

سورة الأنفـــال

الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾	٤٥	١٨٤
﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾	٦٠	٧٠
﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾	٦٦	١٨٥

سورة هـــود

الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾	٢٧	١٩٠

سورة النحـــل

الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾	١٢٥	٧٤ ١٨٥

سورة الإسراء

الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾	١٦	٦٤ ١٣٥

سورة الحـــج

الآيـــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾	٤١	٥٩

سورة الفـــرقان

الآيـــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾﴾	٧	٦٠

سورة الأحـــزاب

الآيـــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾	٢٣	١٧٣

سورة ص

الآيـــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾	٢٦	٥٩

سورة الشـــورى

الآيـــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾	٢١	١٤٩
﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾	٣٨	١١١

سورة الذاريـــات

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾	٥٦	١٨٣

سورة الجـــن

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾	١٨	١٥١

سورة العـــلق

الآيـــــــــــــــــــــــة	رقمها	الصفحة
﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾	١	١٨٣

فهرس الأحاديث

أتيت النبي ﷺ وهو متوسد بردة وهو في ظل الكعبة..... ١٨٧

أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة..... ١٨٨

لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق ٦١

ما من وال يلي رعيةً من البشر فيموت وهو غاش لهم..... ٥٩

من قاتل لتكون كامة الله هي العليا فهو شهيد..... ١٨٧

واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب ١٨٤

وعظنا رسول الله ﷺ موعظة ، وجلت منها القلوب ١٥٢

فهرس الأشعـــار

حسبي من الأمر أني كنت مجتهداً والله يعطي على الإخلاص والعمل ..١٨

وإن بـدا خـللي فـــالله يعــذرني فهـو العفـو عـن الزلات والخطـل

كـــــل ابـن آدم خطـــاء له زلـل فخـلق آدم نقــص غــير مكتمــل

** ** **

أبـدت لنـا الأيـام زهـرة طيبهـا وتســربلت بنظيرهـا وقشـيبها .١٠٢

واهتز عِطف الأرض بعد خشوعها وبدت بها النعماء بعد شحوبها

وتطلعـــت في عنفـــوان شـــبابها من بعد ما بلغت عتي مشيبها

** ** **

انظر إلى الصبح سيفاً في يدي ملك في الله من جنده التأييد والظفر ١٠٢

يرعـى الرعايـا بطـرف سـاهر يقـظ كـما رعاهـا بطـرف سـاهر عمـرُ

فهرس الأعلام

أبو بكر بن علي الصنهاجي(البيذق)..... ٤٥

أبو بكر بن عمر اللمتوني..... ٢٨

تميم بن يوسف بن تاشفين ٣٤

عبد الله بن عبد العزيز البكري ٤٤

علي بن يوسف بن تاشفين ٣٣

محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي..... ٥٨

محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحمودي(الإدريسي)..... ٤٥

مسعود بن وانودين بن خزرون ٢٨

موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي(أبوعمران)..... ٢٥

موسى بن نصير ٩

وجاج بن زولو..... ٢٥

يحيى بن إبراهيم الجدالي..... ٢٤

يحيى بن عمر اللمتوني ٢٧

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم..... ٢٩

فهرس القبائل والبلدان والأماكن

صنهاجة ٢٤
غمارة..... ٣٢
آسفي ٢٣
أشبــونة ٣٥
أغمات ٢٩
الجدالة..... ٢٦
القيروان ٨
اللمتونة..... ٢٦
المغرب الأدنى..... ٢٣
المغرب الأقصى ٢٣
المغرب الأوسط..... ٢٣
أوتيكا..... ٢١
إيبيريا..... ١٧٧
بجاية ٢٣
بُرقة..... ٨
بطليوس ٣٥

بلاد السوس ٣٠
تلمسان ٢٣
جامع القرويين ٥٦
جبال تازة ٢٣
جبل درن ٢٩
درعه ٢٩
سبتة ٣٢
سجلماسة ٢٨
سرقسطة ٣٥
شنترين ٣٥
طليطلة ٣٥
طرابلس ٨
طنجة ٣٢
فازار ٣١
فاس ٣١
قرطاجنة ٢٢
قرطبة ٣٤
قشتالة ٣٤

مدينة شنترين ١٠٣

مراكش ٣٠

مسوفة ٢٧

مغراوة..... ٢٨

موقعة الزلاقة ١٧٤

وادي ملوية ٢٣

يـابُـرة ٣٥

فهرس الكلمات والألفاظ المعرف بها

الأعمال المخزنية ١٦٤

الثقافي الإسلامي ٢٠

الرُبُط ٧٠

المريدون ١٦٤

الواقع ٢٠

فهرس المصادر والمراجع

١. الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، محمد محمود عبدالله بن بية، دار ابن حزم، الرياض. طبعة ٢٠٠٠م.

٢. الأحوال السياسية وأهم مظاهر التطور الحضاري لدولة المرابطين في عهد علي بن يوسف، سلامة محمد الهرفي، (رسالة جامعية) جامعة أم القرى ١٤٠٢هـ.

٣. الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، أبو العباس بن أحمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، طبعة سنة١٩٥٤م.

٤. أضواء جديدة على المرابطين، دكتورة: عصمت دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩١م.

٥. أعز ما يطلب، محمد بن تومرت، تحقيق د. عبدالغني أبو العزم، مؤسسة الغني للنشر، الرباط، طبعة ١٩٩٧م.

٦. أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، ابن الخطيب السلماني، تحقيق ليفي بروفنسال، الطبعة الثانية ١٩٥٦م،دار المكشوف، بيروت.

٧. انتصارات يوسف بن تاشفين، حامد محمد الخليفة، مكتبة الصحابة – الإمارات، الطبعة الأولى.

٨. الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٩. الأنيس المطرب بروض القرطاس، علي بن أبي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة، الرباط، طبعة سنة ١٩٧٢م .

١٠. تاريخ ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت، طبعة سنة١٤٢١هـ.

١١. التاريخ الدبلوماسي للمغرب، عبد الهادي التازي، مكتبة الأسكندرية،١٤٠٧هـ.

١٢. التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير، عبد الكريم الفيلالي، شركة ناس للطباعة بالقاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

١٣. تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق أحمد العبادي، وإبراهيم الكتاني، دار الكتاب العربي، الدار البيضاء، طبعة سنة ١٩٦٤م.

١٤. تاريخ المغرب العربي، عبدالواحد ذنون طه، و خليل السامرائي، و ناطق صالح مطلوب، دار المدار الإسلامي، لبنان، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

١٥. تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم محمد، مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية، طبعة عام ١٩٨٦م .

١٦. تاريخ المغرب والأندلس، عصام الدين الفقي، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة ، الطبعة الأولى.

١٧. تاريخ حضارة المغرب والأندلس في عهدي المرابطين والموحدين، د. عبد الحميد السامرائي، دار شموع الثقافة، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م .

١٨. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، د. علي الصلابي، دار المعرفة – لبنان، الطبعة الثالثة.

١٩. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين، د. محمود السيد، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.

٢٠. التشوف إلى رجال التصوف، أبو يعقوب التادلي، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، الطبعة الثانية ١٩٩٧.

٢١. التصوف في مصر والمغرب، د. منال عبد المنعم جاد الله، نشر منشأة المعارف بالإسكندرية، سنة الطبعة مجهولة.

٢٢. الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، طبعة سنة ١٤١٣هـ.

٢٣. الثقافة الإسلاميةن د. راشد شهوان وآخرون، دار المناهج، الأردن، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ.

٢٤. جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون. دار المعارف. الطبعة الخامسة ١٩٨٢م.

٢٥. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٢٦. الجامع الكبير - سنن الترمذي ،محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي،المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي – بيروت، ١٩٩٨ م.

٢٧. الجيوش الإسلامية وحركة التغيير في دولتي المرابطين والموحدين (المغرب والأندلس)، د. فتحي زغروت، دار التوزيع والنشر الإسلامية بالقاهرة، الطبعة الأولى.

٢٨. الحضارة الإسلامية في المغرب، الحسن السائح، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ.

٢٩. الحلة السيرَاء، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي؛ المعروف بابن الأبّار، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية١٩٨٥م.

٣٠. الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، مؤلف مجهول، تحقيق سهيل زكار، وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ .

٣١. الحياة الاجتماعية بالمغرب الأقصى في العصر الإسلامي (عصري المرابطين والموحدين)، د. جمال طه، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر- الإسكندرية، الطبعة الأولى.

٣٢. دور المرابطين في الجهاد بالأندلس، عبد الواحد شعيب، دار اقرأ للطباعة والترجمة والنشر، ليبيا، الطبعة الأولى.

٣٣. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ .

٣٤. الدولة المرابطية (قضايا وظواهر أدبية) د.حسن جلاب، المطبعة والوراقة الوطنية- مراكش، الطبعة الأولى.

٣٥. الدولة المرابطية(ملامح نظام الكتابة الديوانية)، د. محمد البركة، دار أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.

٣٦. دولة المرابطين في المغرب والأندلس، عهد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، د. سعدون عباس نصر الله، دار النهضة العربية – بيروت ، الطبعة الأولى.

٣٧. دولة المرابطين، علي الصلابي، مكتبة الإيمان بالمنصورة، الطبعة الثانية ، ٢٠٠٦م.

٣٨. الرُّبُط بالمغرب الإسلامي ودورها في عصري المرابطين والموحدين ، محمد الأمين بلغيث، رسالة جامعية "ماجستير" ، جامعة الجزائر، معهد التاريخ ١٤٠٦هـ .

٣٩. رقم الحلل في نظم الدول، أبوعبدالله بن الخطيب السلماني، المطبعة العمومية بحاضرة تونس،سنة١٢١٦هـ .

٤٠. الروض المعطار في خبر الأقطار، محمد عبد المنعم الحميري، تحقيق: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٤م.

٤١. سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية- بور سعيد، الطبعة الأولى.

٤٢. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

٤٣. سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة.

٤٤. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م.

٤٥. الصلة، ابن بشكوال، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ .

٤٦. العبر وديوان المبتدأ والخبر، عبد الرحمن بن خلدون، دار الفكر، بيروت، تحقيق خليل شحاتة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ .

٤٧. القاضي عياض الأديب ، عبد السلام شقور ، دار الفكر المغربي ، الطبعة الأولى ١٩٨٣ .

٤٨. قيام دولة المرابطين؛ صفحة مشرقة من تاريخ المغرب في العصور الوسطى، الدكتور حسن احمد محمود، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية.

٤٩. الكامل في التاريخ، ابن الأثير، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.

٥٠. مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين، د. إبراهيم بوتشيش، دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت ، الطبعة الأولى.

٥١. المجتمع والسُّلطة عند المرابطين في الصحراء، صالح ولد محمدو ، دار نقوش عربية- تونس ، الطبعة غير موضحة .

٥٢. مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين؛ دراسة سياسية وحضارية، د. جمال أحمد طه ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية ، الطبعة الأولى.

٥٣. المرابطون (تاريخهم السياسي) ، محمد عبد الهادي شعيرة ، مكتبة القاهرة الحديثة – القاهرة ، الطبعة الأولى.

٥٤. المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠.

٥٥. المسند، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٥٦. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري ،المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥٧. المعجم الكبير، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة الثانية.

٥٨. معالم تاريخ المغرب والأندلس، حسين مؤنس ، دار الرشاد، الطبعة الحادية عشر.

٥٩. المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٣٨٣هـ .

٦٠. معجم البلدان، شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الحموي، دار صادر، بيروت، طبعة ١٣٩٧هـ .

٦١. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار، دار الدعوة.

٦٢. المغرب عبر التاريخ، إبراهيم حركات ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء ، الطبعة الثانية .

٦٣. المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، أبي عبيد البكري، مكتبة المثنى، بغداد، الطبعة والتاريخ مجهولة.

٦٤. المغرب والأندلس في عصر المرابطين (المجتمع – الذهنيات - الأولياء) ، د. إبراهيم القادري بوتشيش، دار الطليعة – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣م .

٦٥. مفتاح السعادة، وتحقيق طريق السعادة، أبو العباس بن العريف، تحقيق عصمت دندش، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة عام ١٩٩٣م .

٦٦. الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، نجيب زبيب ،دار الأمير للثقافة والعلوم، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ .

٦٧. موقع وكالة إحياء التراث والتنمية الثقافية، وزارة التثقافة، الجمهورية التونسية:
http://www.patrimoinedetunisie.com.tn/arabe/sites/utique.php

٦٨. نحو ثقافة إسلامية أصيلة ، د.عمر الأشقر، دار النفائس، الأردن، الطبعة الثالثة عشرة، ١٤٣٢هـ ..

٦٩. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الشريف الإدريسي، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة.

٧٠. النظام السياسي والحربي في عهد المرابطين، إبراهيم حركات، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء-المغرب.

٧١. نظم الجمان لترتيب ما سلف من اخبار الزمان، ابن القطان المراكشي، تحقيق محمد مكي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٩٩٠م .

٧٢. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، أبي العباس القلقشندي، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ .

٧٣. وثائق المرابطين والموحدين، عبد الواحد المراكشي، تحقيق: حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ .

٧٤. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، طبعة عام ١٣٩٧هـ .

فهرس الموضوعات

ملخص الرسالة..... ٣

ملخص الرسالة بالانجليزي..... ٥

المقدمـــة ٧

أهمية موضوع الدراسة..... ١٢

أسباب اختيار الموضوع..... ١٢

الدراسات السابقة..... ١٣

أهم العقبات التي واجهت الباحث ١٣

منهج البحث:..... ١٤

خطة البحث ١٥

التمهيد: التعريف بمفردات عنوان البحث..... ٢٠

الواقع ٢٠

الثقافي الإسلامي..... ٢٠

المغرب العربي..... ٢١

دولة المرابطين..... ٢٤

الفصل الأول: روافد الثقافة الإسلامية ومقوماتها في دولة المرابطين..... ٣٧

المبحث الأول: روافد اجتماعية..... ٣٨

الهجرة القبائلية..... ٣٩
البربر..... ٣٩
أشهر القبائل البربرية..... ٤١
خصائص الصنهاجيون..... ٤٢
العرب..... ٤٦
التكوين الطبقي للمجتمع..... ٥٠
المبحث الثاني: روافد دعوية إعلامية..... ٥١
دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين..... ٥١
خصائص دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين..... ٥٢
المسجد..... ٥٦
الرسائل والوثائق..... ٥٨
رسالة الإمام الطرطوشي..... ٥٨
المفاهيم الثقافية في رسالة الإمام الطرطوشي..... ٦٢
رسالة الخليفة العباسي المستظهر بالله..... ٦٦
المفاهيم الثقافية في رسالة الخليفة العباسي المستظهر بالله..... ٦٨
المبحث الثالث: المؤسسات التعليمية..... ٧٠
الرُبُط..... ٧٠
رباط الإمام عبد الله بن ياسين رحمه الله..... ٧٠

الثقافات التي تربى عليها أهل الرباط..... ٧٣

المجالس العلمية والكتاتيب ٧٧

الفصل الثاني: مجالات الثقافة الإسلامية وآثارها في دولة المرابطين ٨٠

المبحث الأول: مجالات الثقافة الإسلامية..... ٨١

المجال السياسي..... ٨١

المجال الاجتماعي ٨٨

أقسام المجتمع المرابطي..... ٩٠

المجاهدون ٩٠

المتعلمون والفقهاء..... ٩١

عامة الناس..... ٩٣

المجال العلمي والأدبي ٩٥

اهتمام المرابطون بالأدب..... ١٠٠

المبحث الثاني: آثار الثقافة الإسلامية على دولة المرابطين ١٠٥

وحدة المنهج ١٠٦

تجريد مفهوم الجهاد في سبيل الله ١٠٨

اختيار الأصلح من الرجال..... ١٠٩

تعزيز مبدأ الشورى ١١١

الاستقرار الاقتصادي..... ١١٣

الفصل الثالث: الواقع الثقافي الإسلامي في دولة المرابطين ١١٧

المبحث الأول: الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات الإيجابية ١١٨

التمسك بالمذهب المالكي..... ١١٨

الجهاد في سبيل الله ١٢٢

هجرة العلماء إلى المغرب العربي ١٢٦

المبحث الثاني: الواقع الثقافي الإسلامي والمؤثرات السلبية ١٢٩

ظهور التصوف وعلم الكلام..... ١٢٩

الميل نحو الترف والبذخ..... ١٣٤

الاضطرابات السياسية..... ١٣٧

الفصل الرابع: تحديات الواقع الثقافي الإسلامي في عصر المرابطين ١٤٠

المبحث الأول: التحديات الداخلية وسبل مواجهتها ١٤١

فتنة ابن تومرت وقيام دولة الموحدين ١٤١

المهدي بن تومرت ؛ مؤسس دولة الموحدين..... ١٤٢

ثورة ابن تومرت، وقيام دولة الموحدين ١٤٥

جوانب التحدي عند محمد بن تومرت ١٤٧

التأثر بالمذهب الرافضي..... ١٤٧

ادعاؤه المهدية..... ١٤٩

خروجه على أمير المسلمين..... ١٥١

تصدي المرابطين لفتنة محمد بن تومرت ١٥٤
الاستدعاء والمناظرة..... ١٥٤
المواجهة المسلحة..... ١٥٧
الثورات الأندلسية..... ١٦٠
ثورة المريدين (ثورة ابن قسي) ١٦٤
جوانب التحدي في ثورة المريدين ١٦٨
مخالفة المنهج الشرعي..... ١٦٨
الخروج على ولي الأمر ١٦٩
تصدي المرابطين لفتنة المريدين..... ١٧٠
المبحث الثاني: التحديات الخارجية، وسبل مواجهتها..... ١٧٢
هجمات النصارى على بلاد الأندلس..... ١٧٢
جوانب التحدي في الصراع بين المرابطين والنصارى..... ١٧٩
الانشغال بالمدافعة يمنع التطور الثقافي ١٧٩
موت العلماء والمفكرين وحملة الثقافة..... ١٧٩
الفصل الخامس: سبل الاستفادة من الدراسة في العصر الحاضر..... ١٨١
سبل الاستفادة من الدراسة علمياً ١٨٢
سبل الاستفادة من الدراسة عملياً ١٨٩
الخاتمة ١٩٢

النتائج ١٩٢

التوصيات ١٩٤

الفهـــــارس..... ١٩٦

فهرس الآيات..... ١٩٧

فهرس الأحاديث ٢٠٣

فهرس الأشعار ٢٠٤

فهرس الأعلام..... ٢٠٥

فهرس القبائل والبلدان والأماكن..... ٢٠٦

فهرس الكلمات والألفاظ المعرف بها..... ٢٠٩

فهرس المصادر والمراجع..... ٢١٠

فهرس الموضوعات ٢١٩